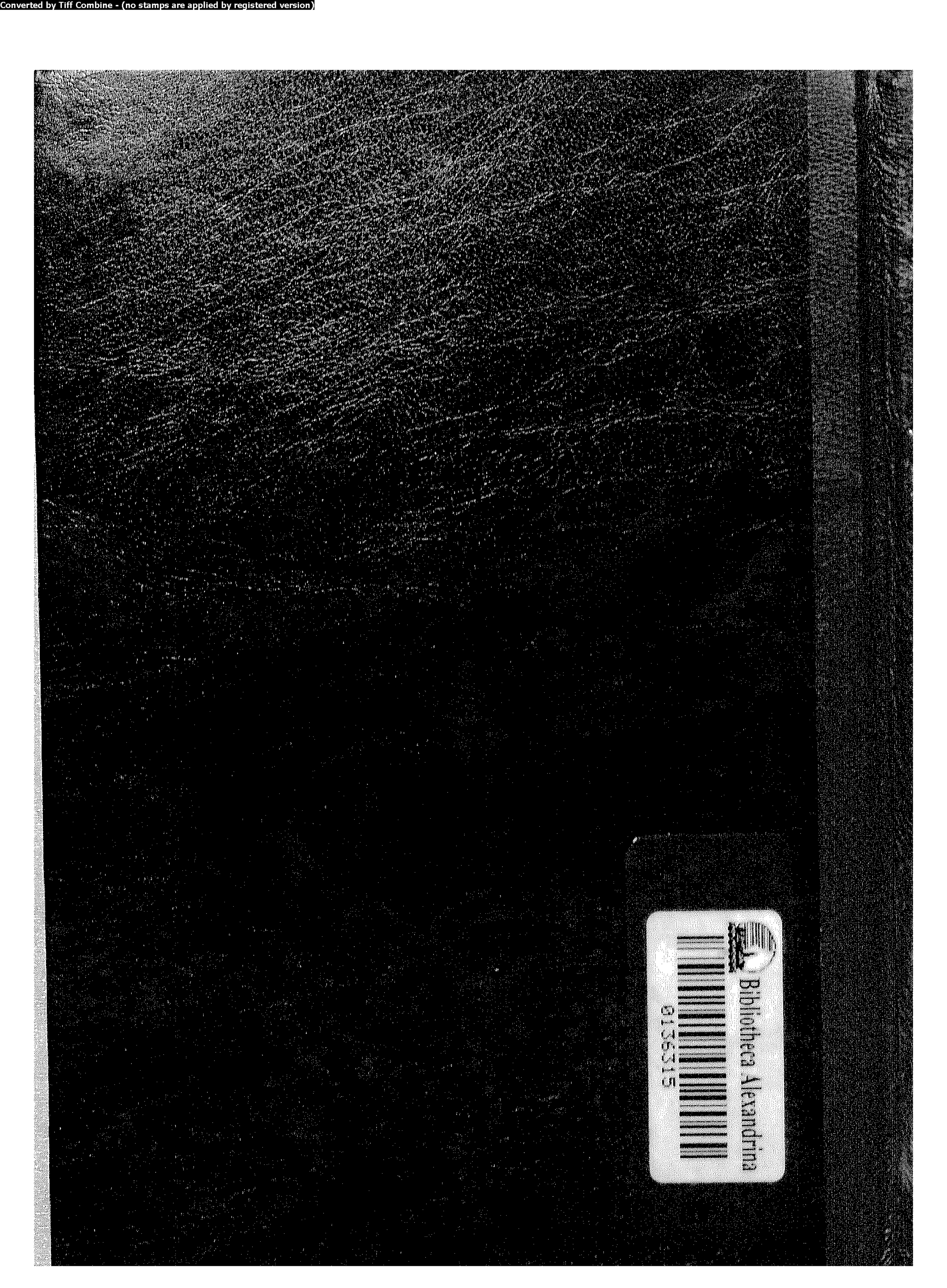

Bibliotheca Alexandrina
0136315







نزهة الأنام في محاسن الشام

تأليف

أبي البقاء عبد الله البدري
من علماء القرن التاسع الهجري

الناشر
دار الرائد العربي
بيروت - لبنان
ص . ب : ٦٥٨٥

الطبعة الأولى
١٩٨٠م

خطبة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمدلله الذي جعل الشام في وجه الارض شامة خضرا، وزان عاطله بحالي عيون تروي قلب الصادي وتشرح له صدرا. وأجرى ماءها الفضي على ثراء كالذهب، وحلى به حصباء در لم يكن فيه مخشاب. وأدار من الماء خلاخيل على سوق أصول الاشجار، وقلد أجياد فروعها بيواقيت الثمار توجت رؤوسها بأكليل جواهر الأزهار. وأرسل كف النسيم بمشط المطر فسرح فروع رؤوس عرائس الغصون، وجملها بحلل ذات اكمام من سندس أخضر ومعصفر صبغة صنعة من هم له ساجدون.

احمده حمدا كثيراً حيث صبح اللوز بأمره على بعضهن عاقد، وبعضهن أثقلها الحمل من الجوز فامست بارادته بعد قيامها تتقاعد. وبعضهن من باسقات النخيل من طرحت بقدرته ثمرة الفؤاد. واجرى لطفه في بعضهن حيث ارتخت نهودها كالرمان هائمة بحضنهن في كل واد.

واشكره شكراً مزيدا مذ عطف الطل على طفل أمهات السفرجل فيرضعه وهو يشرب، وأسبل ستره على من رفعت كفوفها كورق الكرمة لما امتدت وعليها العنب زبيب. ومنهن من عمها بالحيا فاحمر خدها كالتفاح، ومنهن من نكست رأسها من الهيبة كالكمثري فاكسبها عرفا طوت شقق نشره أيدي الرياح.

سبحانه أوجد بها اجناسا ذات انواع تسقى بماء واحد، وجاد لعليلها من انواء السحاب وشعاع النيرين بصلة وعائد. فجعل قطوفها دانية لأحبائه، وقدس أرضها اذ هي مرتع ومربع لاصفيائه. وحباها لسكنى الانبياء، واختارها موطنا لعباده الاولياء.

وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له شهادة عبد تقي يرجو بها في غد التفكه في رياض الجنان مع مزيد الانعام، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي اخترق السبع الطباق بنور أضاءت منه قصور بصرى من أرض الشام. ذو الشرف الاعلى السني الجبهة الواضح الجبين، الذي أنزل عليه «وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين».

اللهم فصل وسلم عليه ما دامت الشام عامرة بحديثه الشريف الماحي لصور الكفر الواهية، وعلى آله وأصحابه الذين تعاونوا على البر والتقوى في فتحها فمنهم من أخذ شطرها الشرقي عنوة ومنهم من اخذ الشطر الغربي صلحاً من باب الجابية.

وبعد فقد سألتني أيها الأخ الأمجد، والحبيب الأسعد العاشق في محاسن الشام على السماع، والمتشوق المتتوق الى بديع مرآها المشنف ذكره للاسماع، أن اعللك بخبرها لعدم العيان، وان اقربها اليك بوصف يلذه قلب الهائم الولهان. وهل أنا إلا قسيمك في الشوق والهيام، وحليفك في الحب والغرام.

وليس بتزويق اللسان وصوغه
ولكنه ما خالط اللحم والدما

غير اني رُميت منها بعد الوصل بقطيعة صدها، كأني اذنبت في حالة القرب فادّبتني بهجرها وبعدها.

عشنا زمانا وليس الوصل يقنعنا
واليوم ادنى خيال منك يرضينا

أي والله

وما قلت ايه بعدها لمحدث
من الناس الا قال قلبي آها

كيف لا وهو

بلد صحبت به الشبيبة والصبا

ولبست ثوب العز وهو جديد

فاذا تمثل في الضمير رأيته

وعليه أغصان الشباب تميد

أستغفر الله هي مسقط رأسي، ومجمع أهلي وناسي.

وملعب خلاني واخواني.

سقا الله شاماً كان فيها اجتماعنا

بأحبابنا النائين مغدودقا سكبا

وروّى ثراها من دموعي مسبل

كبحر فاني أستقل لها السحبا

منازل أحبابي ومربع جيرتي

وأوطان اخواني ومن كان لي تربا

لعمري لئن شطّ المزار وأصبحت

منازلهم شرقا ومنزلنا غربا

فاني على بُعد الديار وقربها

أسرُّ لهم حبا وأبدي لهم حبا

يهيّج أشواقي من البرق لامع

ويبعث اشجاني النسيم اذا هبّا

ويذكرني ليلات وصل تصرّمت

حمام النوى نوحا فاسعده ندبا

ليالي اعطيت البطالة حقها

ورحت بما يقضيه حكم الصبي صبّا

اعاطي الهوى الصحب الكرام وبيننا

احاديث آداب أرق من الصهبا

عسى ما مضى من شملنا أن نعيده
ونصبح في أفق ونمسي به شهبا

كيف أخفي ذلك، وقد سبق في علم الله ما كان حمداً وشكراً على حب الوطن، فانه من الإيمان.

وما عن رضى كانت سليمى بديلة
بليلى، ولكن للضرورات أحكام

نعم

شكوت وما الشكوى لمثلي عادة
ولكن تفيض العين عند امتلائها

فأجبتك أيها السائل اذ هيجت عندي من الدموع بحار الاشتياق. وواسيتك أيها العاشق اذ أتيتك بخبر المعشوق ولعل الخبر يكون وصله في التلاق، وقد فصلته لك في هذه الأوراق. وهو من جملة ما عندي، وقدمت لحضرتك السامية ثروة ما ملكه اللسان من جواهر حفظها القلب في صندوق الصدر وأوردتها بخط يدي. وما هي إلا صبابة من صب، وقطرة من جفن نازح حب

وما تناهيت في بثي محاسنها
الا وأكثر مما قلت ما أدع

لعلمي أن محاسن (دمشق) كثيرة لا تستقصى، وأوصاف صفاتها تتضاعف أعدادها ولا تحصى. قصرت عن استيفائها أرباب التواريخ المطولة الحسنة، وحفيت سوابق فحول أقلامهم في ميادين الطروس أن يدركوا حصر بعضها في مصنفاتهم المدونة. لكن بحمد الله جاءت هذه النبذة حديقة يترنم بها الخاطر، ويتنزه فيها الناظر وهذا سميتها «نزهة الأنام في محاسن الشام».

والله تعالى أسأل أن يعوضنا عن ضيق هذه الدنيا الجافية، بالدخول الى جناته الواسعة الرفيعة، وان يمتعنا فيها بفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة. ان شاء الله تعالى بكرمه ومنّه وأمنه ويمنه.

مَا وَرَدَ مِنَ الحَدِيثِ فِي الشَّام

فمن محاسن الشام ما ورد فيها من رواية ابي داود في سننه عن عبدالله بن حوالة قال رسول الله ﷺ «انكم ستجندون بعدي أجنادا ثلاثة:جنداً الى اليمن، وجنداً الى الشام، وجنداً الى العراق» قال عبدالله «خِرْ لي يا رسول الله» قال: «عليك بالشام. فانها خيرة الله في أرضه يجتبي اليها خيرته من عباده. وان الله قد تكفل لي بالشام وأهله» قال أبو ادريس الخولاني ومن تكفل الله به فلا ضيعة عليه.

وقال رسول الله ﷺ «ستفتح عليكم الشام فعليكم بمدينة يقال لها (دمشق) هي خير مدائن الشام، وفسطاط المسلمين بأرض منها يقال لها الغوطة».

وقال ابو هريرة رضي الله عنه: «أربع مدائن من مدائن الجنة وأربع مدائن من مدائن النار. فأما مدائن الجنة فمكة والمدينة وبيت المقدس ودمشق، وأما مدائن النار فالقسطنطينية وطبرية وانطاكية المحترقة وصنعاء».

قال ابو عبدالله السقطي ليس هي صنعاء اليمن وانما هي صنعا بأرض الروم. وانطاكية المحترقة انما سميت بذلك لأن العباس بن الوليد بن عبد الملك أحرقها. وهو من فضائل الشام للربعي. وهو عند كعب الاحبار أيضا من طريق آخر. انتهى.

والحديث المبدأ به رويناه من حديث أبي مسهر عبد الاعلى بن مسهر عن سعيد بن عبد العزيز عن ربيعة بن يزيد عن أبي ادريس الخولاني عن عبدالله بن حوالة الازدي رضي الله عنه، قال شيخ الاسلام وأمير المؤمنين في الحديث شهاب الدين احمد بن حجر رحمه الله تعالى وهو حديث حسن مسلسل بالدمشقيين وهو عن النبي ﷺ قال «انكم ستجندون أجنادا ثلاثة. جنداً بالشام، وجنداً بالعراق، وجنداً باليمن» قال الحوالي «خِرْ لي يا رسول الله» قال « عليكم بالشام فمن أبي فليلحق بيمنه ويسق من غدره فان الله قد تكفل لي بالشام وأهله» فكان أبو ادريس الخولاني اذا حدث بهذا الحديث التفت الى ابن عامر فقال «من تكفل الله تعالى به فلا ضيعة عليه» انتهى والله تعالى أعلم.

ومن محاسن الشام هذا الحديث القدسي الذي ورد فيها عن كعب الاحبار رضي الله عنه قال «إنا نجد في كتاب الله تعالى، يعني التوراة أن الارض على صفة النسر فالرأس الشام والجناح الايمن الغرب والجناح الايسر الشرق وهو العراق وخلف العراق أمة يقال لها واق وخلف واق أمة يقال لها واق واق. وخلفهامن الأمم ما لا يعلمه الا الله تعالى. والظهر السند وخلف السند الهند، وخلف الهند أمة يقال لها مسند وخلف ذلك من الأمم ما لا يعلمه الا الله تعالى. والذنب اليمن فلا يزال الناس بخير ما لم يقرع الرأس فاذا قرع الرأس هلك الناس».

اشتِقَاق اسم الشَّام

قال بعض الشراح والمؤرخين والمفسرين انما سميت الشام شاما لان قوما من بني كنعان نزلوها فتشاءموا اليها فسميت شاماً لذلك.

وقالت طائفة انما سميت شاماً لما تشاءم لها أهل اليمن من يمنهم كما يقال تيامنوا أو تياسروا فسميت بذلك.

وقال قوم انما سميت شاماً لأن بني اسرائيل قتلوا بني كنعان ونفوا ما بقي منهم فصارت لهم، ثم وثب الروم على بني اسرائيل فقتلوهم وأجلوا من بقي عنها الى العراق الا قليلا منهم، ثم جاءت العرب فقتلت الروم وسبتهم وهرب من سلم منهم الى بلاد الروم، واستمرت بيد أولاد العرب الى يومنا هذا.

قال الجوهري يذكر ويؤنث ورجل شآمي وشآم على فعال وشامي أيضا حكاه سيبويه رحمة الله تعالى عليه ولا تقل شأم وما جاء في ضرورة الشعر محمول على أنه اقتصر من النسبة على ذكر البلد وامرأة شامية وشامية مخففة الياء.

ونقلت من خط اللغوي أحمد بن مطرف من الجزء الثاني من كتابه المسمى بالترتيب في الاخبار والاعاجيب أن في الشام قولين أحدهما أنه يجوز أن يكون مأخوذا من اليد الشومى وهي اليد اليسرى واليمنى اختها فالشومى من الشوم واليمنى من اليمن. وقالت العرب:

فأنحى على شؤمى يديه فذادها
باظمأ من فرع الذؤابة اسحما

اظمأ أفعل من الظما وشؤمى مقصور مهموز ويجوز أن يكون فعلى من الشوم.

ويجوز أن يكون فيه قول ثالث وهو أن يكون جمع شامة والشامة العلامة. يقال شامة وشام مثل حاجة وحاج. والرجل أشام اذا كان ذا شامة وحقيقة الشامة أن تكون مخالفة للون سائر الجسم. قال الجاحظ وأطلقت الشامة على النكتة من أي لون

كان في أي لون كان اضعافها. الا ترى قول رسول الله ﷺ لما نزلت «يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم- الى قوله- ولكن عذاب الله شديد» قال عمران بن الحصين انزلت هذه الآية وهو في سفر قال «أتدرون أي يوم ذلك» قالوا «الله ورسوله أعلم» قال «ذلك يوم يقول الله لآدم ابعث بعث النار» قال «يا رب وما بعث النار» قال «تسعمائة وتسعون الى النار وواحد الى الجنة» فانشأ المسلمون يبكون: فقال رسول الله ﷺ «قاربوا وسددوا فانه لم تكن نبوة قط الا كان بين يديها جاهلية فيؤخذ ذلك العدد من الجاهلية فان تمّت والا كملت من المنافقين. وما مثلكم ومثل الامم الا كمثل الرقمة في ذراع الدابة أو كالشامة في جنب البعير» ثم قال «اني لأرجو أن تكونوا ربع اهل الجنة» فكبروا ثم قال «اني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة» فكبروا ثم قال «اني لأرجو ان تكونوا نصف اهل الجنة» فكبروا ثم قال ولا أدري قال الثلثين أم لا رواه الترمذي. فانظر اليهْ ﷺ كيف اطلق الشامة وجعلها في جنب البعير. والبعير قد يكون ازرق أو أحمر وغير ذلك. وما الغرض الا النكتة القليلة من اي لون كانت في جنب البعير من أيّ لون كان. الا تراهم يقولون أرض الشام والشام جمع شامة.

وذهب بعضهم الى تسميته شاما لشامات له يعني اختلاف اراضيه في الوان ترابها وقد علمت أن بعض ترابه أبيض وأسود وأحمر وأصفر وبعضها اكدر. ويختلف كل لون منها في ذاته بالأشدية والأضعفية اختلافاً كثيراً فصحّ أن اطلاق الشامة هاهنا لكونها نكتة في الارض اذ الشام بمجموعه لو كان لونا واحداً لكان كالنكتة الخفيفة الخفية في أديم الارض. ثم انهم تجاوزوا في استعمال الشامة الى ان اطلقوها على غير اللون فأطلقوها على كل شيء قليل في نوعه فقالوا: فلان في قومه شامة اما لمزيته عندهم بالكرم أو بالحلم أو بالشجاعة أو بغير ذلك من الصفات الحميدة. ومنه قول ابن الساعاتي:

لولا صدودك يا أمامهْ ... ما بت أندب عهد رامهْ
ابكي لياليَ غبطة ... كانت لخد الشام شامة

فتأمل كيف أطلق الشامة على لياليه التي قطعها بالشام لأنه استلذ زمانها واستطاب أوقاتها من بين الليالي كلها. انتهى.

ومن محاسن الشام ما يروى عن كعب الاحبار رضي الله عنه أنه قال: ما بعث الله نبياً الا من الشام فان لم يكن من الشام هاجر الى الشام. وبها رأس يحيى ابن نبي الله زكريا عليهما السلام بين الاساطين من الجانب الشرقي بالجامع الاموي. قبالة هود عليه السلام في الجدار القبلي قبره. انتهى.

باني دمشق [1]

ومن محاسن الشام بناؤها ودمشقتها.

قال وهب بن منبه: دمشق بناها العازر غلام ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وكان حبشياً وهبه له نمرود بن كنعان.

وقال أبو الحسن الرازي: رأيت في الكتاب الذي سماه أبو عبيدة (كتاب فضائل الفرس) أن بيوراسف الملك بني مدينة بابل ومدينة دمشق.

وفي جزء الدمشقيين ما حكاه أبو الخير العراقي قال كان في زمان معاوية بن أبي سفيان رجل صالح بدمشق، وكان يقصده الخضر عليه السلام في أوقات للزيارة، فبلغ ذلك معاوية، فجاء اليه وقال: بلغني أن الخضر يأتيك فأحب أن تجمع بيني وبينه فقال له: نعم، فلما جاء الخضر عليه السلام على العادة قال له الرجل: إن معاوية سأله الاجتماع به فقال الخضر عليه السلام: لا سبيل الى ذلك. قال معاوية: قل له قد اجتمع على أفضل الخلق وحدثه وجلس معه وهو سيد الأولين والآخرين ﷺ ولكن سله عن ابتداء (دمشق) كيف كان. قال الرجل: فسألته. قال: صرت اليها فرأيت موضعها بحراً تستجمع فيه المياه، ثم غبت عنها خمسمائة عام، ثم صرت اليها، فرأيتها قد ابتدىء فيها بالبناء، ونفر يسير بها.

ونقل ابن عساكر رحمه الله تعالى في فتوحه قال: وجدت بخط أبي الفرج الاصفهاني فيما ذكر انه نقله من كتاب فيه اخبار الكعبة المشرفة وفضائلها وأسماء المدن والبلدان واخبارها، ثم ذكر مولد ابراهيم الخليل عليه السلام على رأس ثلاثة آلاف ومائة وخمسين سنة من جملة الدهر الذي هو سبعة آلاف سنة، وذلك بعد بنيان دمشق بخمسين سنة. ونقل بعض المؤرخين بخمس سنين. قلت وهذا يناقض ما تقدم والله سبحانه وتعالى اعلم.

وقال صاحب عيون التواريخ: ان الذي بناها غلام (الاسكندر) اسمه (دمشقش) وقيل (دمشق).

وذلك لما رجع (الاسكندر) من المشرق، وعمل السد بين أهل خراسان وبين ياجوج ومأجوج، وسار يريد المغرب، فلما بلغ الشام وصعد على عقبة (دُمَّر) نظر الى هذا المكان الذي فيه اليوم (دمشق) فوجده وادياً يخرج منه نهر جار وغيضة أرز، فلما رآها ذو القرنين، ورأى اجتماع الماء بواديها، فأخذ الاسكندر لغلامه (دمشقش)، فأمره أن ينزل بها وكان أمينه على جميع ملكه، فنزل هو والاسكندر في موضع القرية المعروفة (بيلذا) وهي من غيضة الأرز على ثلاثة أميال. وأمره ان يحفر في ذلك الموضع حفيرة، فلما فعل ذلك، أمر أن يردمها بالتراب الذي حفر منها، فلما رد التراب اليها لم يملأها، فقال للغلام: ارحل بنا فاني كنت نويت أن أؤسس في هذا المكان مدينة، فبان لي ما يصلح ان يكون ههنا مدينة، فانه ما يكفي اهلها زرعها، فلما رحل الاسكندر عنها وصار الى (البثنية) وحوران، وأشرف على تلك السعة، ونظر الى أرضها الحمراء، فأمر بتناوله من ذلك التراب فلما لمسه بيده أعجبه ورأى لونه كالزعفران فامر بالنزول هناك وان يحفر حفيرة، فلما حفرت، أمر برد التراب فردوه ففضل منه ثلثه، فقال (الاسكندر) للغلام (دمشقش) ارجع الى الموضع الذي به الأرز وانزل الوادي واقطع الاشجار التي على حافاته وابنها مدينة وسمها باسمك فهناك يصلح أن يكون مدينة وهنا يصلح أن يكون زرعها فانه يجزئها ويكون منه ميرتها. يعني المكان المسمى بحوران والبثنية. فرجع الغلام (دمشقش) الى الغيضة واختط بها المدينة وجعل لها ثلاثة ابواب: الأول (باب جيرون) والثاني (باب البريد) والثالث (باب الفراديس) وهذا القدر هو المدينة فاذا غلقت هذه الثلاثة أبواب فقد اغلقت المدينة وتحصنت. وخارج الابواب مرعى ونبات وأعشاب وما أشبه ذلك. وكان قد بنى له فيها كنيسة يعبد الله تعالى فيها وهي الموضع الذي هو الآن الجامع.

وقيل أن الذي بنى الكنيسة اليونان. وقيل بل وسعوها هم وكبروها على ما هي عليه اليوم من الجامع المعمور بذكر الله تعالى.

وسكنها (دمشقش) واستمر بها الى أن مات فيها وبه عرفت وسميت، غير ان طول الازمنة وتغير الاحوال واختلاف الألسنة حذفت شينه وسكنت قافه فقيل (دمشق) وقيل انما اسمه دمشق وبه سميت.

وقال الجوهري دمشق المراد به السرعة، ويجمع على دماشق ومنه قول الهذلي:

دمـــاشــق يعــفــقــن عــفــق الــســعــالى
خــفــاف الــتــوالي طــوال الجــزور

وناقة دمشق أي سريعة جدا، ومثالها جِضَجْر. ومنه قول الزفيان «وصاحبي ذات هباب دمشق» قال الجوهري: و(دمشق) هي قصبة الشام. انتهى.

وقال ابو مسهر عبد الأعلى راوي الحديث المتقدم: ان الذي بنى حصن (دمشق) هو الذي حول أبواب (بيت المقدس) الى مسجدها وجعله على مساحته.

واليونان هم الذين وضعوا الارصاد، وتكلموا على حركات الكواكب واتصالاتها ومقارنتها، وبنوا (دمشق) في طالع سعيدٍ، واختاروا هذه البقعة الى جانب الماءالوارد بين هذين الجبلين، وصرفوا أنهاراً تجري الى الاماكن المرتفعة والمنخفضة، وسلكوا الماء في أبنية الدور بها، وبنوا هذا المعبد، وكانوا يصلون الى القطب الشمالي فكانت محاريبه تجاه الشمال، وبابه يفتح الى جملة القبلة حيث المحراب اليوم، كما شاهدنا ذلك عياناً لما نقضوا بعض الحائط القبلي وهو باب حسن مبني بحجارة منحوتة عن يمينه ويساره بابان صغيران بالنسبة اليه وكان غربي المعبدقصر منيف جدا تحمله هذه الاعمدة التي بباب البريدوشرقيه باب قصر جيرون وهي «إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد». انتهى.

بناءُ قصرَيْ جيرُون وَالبرَيْد

وقال بعض المؤرخين: الذي بنى (باب جيرون) سليمان عليه السلام، بنته له الشياطين وكان الذي تكفل بعمارته اسمه (جيرون) فسمي به.

وقال بعض المؤرخين: بناه (عاد) وقيل: بل ولده (سعد) كان له ولدان احدهما اسمه (جيرون) والآخر (بريد) فبنى لهما هذين القصرين على أعمدة، وفتح لكل قصر منهما بابا الى المعبد، فسمي كل واحد باسم صاحبه، وهو أول من صنع المدينة، وأحدث بها البناء، وعمل لها الابواب.

أبواب دمشق

الاول (الباب الصغير) وهو الذي نزل عليه (يزيد بن أبي سفيان) في حصار المسلمين الروم ودخل منه. وسمي بذلك، لأنه كان أصغر أبوابها حين بنيت. وقيل يسمى (باب الجابية الصغير) وهو في قبلة البلد.

الثاني (باب كيسان) وهو من شرقيه، وينسب الى (كيسان مولى معاوية) لنزوله عليه قلت: وهو الآن مسدود.

ويليه الثالث وهو (باب شرقي) لانه شرقي البلد وعليه نزل (خالد بن الوليد) رضي الله عنه، ومنه دخل عنوة كما في التواريخ المطولة.

ويليه الرابع وهو (باب توما) من شام البلد ينسب الى عظيم من عظماء الروم، وسمي باسمه، وكان له عليه كنيسة.

ويليه الباب الخامس وهو المسمى (بباب الجنيق) منسوب الى رومي اسمه (الجنيق) وبه تعرف (محلة الجنيق) كانت خارج البلد تسمى (الفراديس) والفراديس بلغة الروم البساتين.

ويليه السابع وهو (باب الجابية) منسوب الى (قرية الجابية) وكانت في الجاهلية مدينة عظيمة. انتهى.

وقال الحافظ بن عساكر رحمه الله: كان باب الجابية ثلاثة ابواب، الاوسط منها كبير، ومن جانبيه بابان صغيران، وكان الباب الشرقي بهذه الصفة، لكونه مقابله، وكان من الثلاثة ابواب ثلاثة أسواق ممتدة من الباب الشرقي الى باب الجابية.

وكان الأوسط من الأسواق الثلاثة للمشاة من الناس، وأحد السوقين [لمن] يشرّق بدابة، والآخر لمن يغرّب بدابة حتى لا يلتقي فيهما راكبان.

والأبواب صوروها على الكواكب، فزحل على باب كيسان، وعلى الباب الشرقي صورة الشمس، وعلى باب توما الزهرة، وعلى باب الجنيق القمر[1]، وعلى باب

(١) في ابن عساكر (١ : ١٦)وباب الفراديس الأخر المسدود للقمر.

الفراديس عطارد، وعلى باب الجابية المشتري، وعلى الباب الصغير المريخ[٢].

وكان من حكماء اليونان من اتخذ على باب الجابية صورة انسان مطرق الرأس كالمتفكر، ومن أعماله أنه اذا دخل أحد يريد بدمشق سوءا أو بأهلها، فان ذلك الانسان يصر لأنينه الباب، فيعلم به خدمة الباب وقوّامه. انتهى.

والمرحوم نور الدين محمود بن زنكي الشهيد افتتح لها بابا وسماه باب السلام؟ وأحدث باب الفرج، وسماه بذلك، لما وجد الناس به من الفرج.

قال ابن عساكر: وكان بقربه باب يسمى باب العمارة فتح عند عمارة القلعة، فسد وأثره باق الى يومنا هذا، وأول من بنى القلعة اقسر بن آوق، ولما جدد الملك العادل أبو بكر بن أيوب القلعة أذهب باب العمارة والله أعلم.

ويليه الباب الجديد وهو الآن خاص بالقلعة، والذي أحدثه الأتراك في دولتهم ثم صحفته العوام بالحديد[٣] وهو يفتح الى القلعة، يليه من الغرب باب السر، سمي بذلك لكونه يفتح الى القلعة أيضا، وكان الأتراك ينزلون منه سرا، ويطلعون منه، ويجوز الخارج منه على جسر من خشب، من تحته الخندق الدائر بالقلعة، ينيف عمقه على مائة ذراع بالعملة به يتخزن الماء وينبت البوص وغير ذلك وهو غير خندق المدينة.

واصطلح في آخر دولة ابن قلاوون أن من يولى نيابة دمشق أن يصلي عند هذا الباب ركعتين مستقبل القبلة، بحيث يبقى الباب على يساره، ويقف أجناد القلعة وأرباب الوظائف والاتراك في منازلهم على حسب العادة متحملين السلاح الى أن يفرغ من صلاته ودعائه، فان أريد به شر قبض عليه ودخلوا به من ذلك الباب، ويقفلون الجسر بينهم وبين أعوانه، فان الجسر بلوالب يحيل بينهم. وان أريد به خير، ركب في عزه، ووجوه الدولة في خدمته الى أن ينزل بدار العدل التي أنشأها المرحوم نور الدين الشهيد، وهي التي تسمى اليوم بدار السعادة وهي تلي باب السرور وعلى بابها باب النصر فتحه الملك الناصر بن أيوب للمدينة وهذه الخمسة الابواب الحادثة جميعها فيما بين بابي الجابية والفراديس الا

---

(٢) في ابن عساكر الباب الصغير للمشتري وباب الجابية للمريخ.

(٣) قال ابن عساكر (١: ١٦) باب الحديد في سوق الاساكفة.

باب السلام وفي السور أبواب صغار تفتح عند الحاجة اليها غير ما ذكرنا ، وغالب هذه الأبواب القديمة بنى عليها منائر نور الدين الشهيد رحمه الله على مساجد ، وجعل لكل باب باشورة كالسويقة ، بها حوانيت مملوءة بالبضائع فاذا حصنت المدينة وقفلت الأبواب ، يستغني أهل كل باب من هذه الأبواب بما عندهم وهو مقصد جميل والله أعلم .

الفتح العربي

ومن محاسن الشام افتتاحها على يد الصحابة رضي الله عنهم قال الحافظ ابن عساكر : لما فتح الله تعالى على المسلمين الشام بكماله ومن جملته (دمشق) المحروسة بجميع اعمالها ، وانزل الله عز وجل رحمته فيها ، وساق بره اليها ، كتب أمير المؤمنين[٤] وهو إذ ذاك أبو عبيدة رضي الله عنه كتاب أمان ، وأقر بأيدي النصارى أربع عشرة كنيسة ، وأخذ منهم نصف هذه الكنيسة ، وأخذ منهم التي كانوا يسمونها كنيسة ماريوحنا بحكم أن البلد فتحه خالد بن الوليد رضي الله عنه من الباب الشرقي بالسيف ، وأخذت النصارى الامان من أبي عبيدة وهو على باب الجابية ، فاختلفوا ثم اتفقوا على أن جعلوا نصف البلد صلحا ، ونصفه عنوة ، فاخذ المسلمون نصف هذه الكنيسة الشرقي فجعله أبو عبيدة رضي الله عنه [مسجدا وكانت قد صارت اليه إمارة الشام فكان أول من صلى فيه أبو عبيدة رضي الله عنه] ثم الصحابة بعده في البقعة التي يقال لها محراب الصحابة رضي الله عنهم ، ولم يكن الجدار مفتوحا بمحراب محني ، وانما كان المسلمون يصلون عند هذه البقعة المباركة .

وكان المسلمون والنصارى يدخلون من باب واحد ، وهو باب المعبد الاصلي الذي كان في جهة القبلة مكان المحراب الكبير الذي هو اليوم حسبما سلف لنا ذكره ، فينصرف النصارى الى جهة الغرب لكنيستهم ، ويأخذ المسلمون يمنة الى مسجدهم . ولا يستطيع النصارى أن يجهروا بقراءة كتابهم ، ولا يضربون بناقوس اجلالا للصحابة رضي الله عنهم ومهابة لهم وخوفا منهم .

---

(٤) أي الأمير على من شهد هذا الفتح من المؤمنين .

ولما ولي امارتها معاوية رضي الله عنه بنى دار الامارة وسماها ﴿الدار الخضراء﴾ وسكنها معاوية أربعين سنة والأمر على ذلك. والله أعلم .

فضل مسجد دمشق

ومن محاسن الشام ما ورد في فضل مسجدها . نقل عن بعض المفسرين في قوله تعالى «والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الامين» عن قتادة أنه قال : لقد أقسم الله تعالى بأربعة مساجد، فان التين هو مسجد دمشق، والزيتون مسجد بيت المقدس، وطور سينين حيث كلم الله عزوجل موسى عليه السلام، والبلد الامين مكة المشرفة، وعن يزيد بن ميسرة قال: أربعة أجبل مقدسة بين يدي الله تعالى: طور زيتا، وطور سينا، وطور تينا، وطور تيمانا. قال فطور زيتا بيت المقدس، وطور سينا طور موسى عليه السلام، وطور تينا مسجد دمشق، وطور تيمانا مكة المشرفة.

وعن محمد بن شعيب قال: سمعت غير واحد من قدمائنا يذكرون أن التين مسجد دمشق. وأنهم قد أدركوا فيه شجرا من تين قبل أن يبنيه الوليد.

وعن عمرو بن الدونس الغساني في تفسير والتين قال: التين مسجد دمشق، كان بستانا لهود عليه السلام، وفيه تين قديم.

وعن القاسم بن عبد الرحمن قال: أوحى الله تبارك وتعالى الى جبل قاسيون أن هب ظلك وبركتك لجبل بيت المقدس. قال ففعل. فاوحى الله عزوجل اليه: اما وقد فعلت فاني سأبني لي في حضنك بيتا. قال الوليد بن مسلم: في حضنك أي وسطك وهو المسجد أعني مسجد دمشق أعبد فيه بعد خراب الدنيا أربعين عاما، ولا تذهب الايام والليالي حتى أرد عليك ظلك وبركتك. قال فهو عند الله بمنزلة المؤمن الضعيف المتضرع.

ويقال ان أول من بنى جدران هذا الجامع الاربعة هود عليه السلام، وكان هود قبل ابراهيم الخليل عليهما السلام بمدة طويلة.

وقد جاء في الاخبار ان ابراهيم عليه الصلاة والسلام قاتل شمالي دمشق عند (بَرْزَة)

قوما من أعدائه فظفر بهم ، وكان مقامه لمقاتلتهم عند قرية برزة ، وبه سميت عند بروزه على أعدائه وبها متعبده بسفح الجبل ينسب اليه . وكانت دمشق عامرة إذ ذاك .

وعن مسلم بن الوليد قال : لما أمر الوليد بن عبد الملك ببناء مسجد دمشق ، وجدوا في حائط المسجد القبلي لوحا من حجر منقوش ، فأتوا به الوليد ، فلم يجد من يحسن قراءته ، فدلوه على وهب بن منبه ، فبعث اليه ، فلما قدم أخبره بموضع ذلك اللوح فقرأه وهب فاذا فيه موعظة (٥) وفي آخرها كتب في زمن سليمان بن داود عليهما السلام . والله سبحانه وتعالى أعلم .

---

(٥) هذه الموعظة في تاريخ ابن عساكر (١ : ١٩٧).

بناء الوليد المسجد

ومن محاسن الشام بناء معبدها . قال ابن عساكر : لما صارت الخلافة الى الوليد بن عبد الملك عزم على أخذ بقية هذه الكنيسة وإضافتها الى مابأيدي المسلمين ، وجعل الجميع مسجدا واحدا ، وذلك لتأذي المسلمين بسماع قراءة النصارى في الانجيل ورفع أصواتهم في الصلاة ، فأحب أن يبعدهم عن المسلمين ، فطلب النصارى وسألهم أن يخرجوا عن بقية الكنيسة ويعوضهم اقطاعات كثيرة عرضها عليهم ، وان يقر لهم اربع كنائس لم تدخل في العهد وهي كنيسة مريم وكنيسة المصلبة وكلتاهما داخل الباب الشرقي وكنيسة تل الجبن وكنيسة حميد بن درة [٦] التي بدرب الصيقل ، فأبوا ذلك أشد الإباء فقال ائتونا بعهدكم الذي بأيديكم في زمن الصحابة فقريء بحضرة الوليد فاذا كنيسة توما التي كانت خارج باب توما لم تدخل في العهد وكانت فيما يقال أكبر من كنيسة مار يوحنا فقال أنا أهدمها وأجعلها مسجدا فقالوا بل يتركها أمير المؤمنين وما ذكر من الكنائس ونحن نرضى بأن يأخذ بقية كنيسة مار يوحنا فاقرهم على تلك الكنائس وأخذ منهم بقية الكنيسة .

ثم امر الوليد بالهدم فجاءت اساقفة النصارى وقساوستهم وقد ندموا فقالوا يا أمير المؤمنين : إنا نجد في كتبنا أن من يهدم هذه الكنيسة يجن ، فقال : انا أحب أن اجن في الله والله لا يهدم فيها أحد قبلي ، ثم صعد المنارة الغربية وكانت صومعة عظيمة ، فاذا فيها راهب فأمره بالنزول منها فأبى الراهب فأخذ بقفاه وحذّره منها ، ثم وقف على أعلى مكان منها فوق المذبح الاكبر الذي يسمونه الشاهد وأخذ فاساً وضرب أعلى حجر فالقاه فتبادر الامراء والاجناد الى الهدم بالتكبير والتهليل والنصارى تصرخ بالعويل على درج باب البريد وجيرون وقد اجتمعوا فامر الوليد صاحب الشرط أن يضربهم وهدم المسلمون جميع ما كان من آثارهم من المذابح والأبنية والحنايا حتى بقي صرحة مربعة .

ثم شرع في بنائه بفكرة جيدة على هذه الصفة الحسنة التي لم يشهد مثلها من قبلها ولا من بعدها .

---

(٦) قال ابن عساكر (١ : ٢٤٢) : هو حميد بن عمرو بن مساحق القرشي العامري ، وأمه (درة) بنت أبي هاشم خال معاوية بن أبي سفيان ، وهو أبو هاشم بن عتبة بن ربيعة . وكان لدرب اقطاعا له فنسبت الكنيسة اليه .

واستعمل الوليد في هذا المسجد خلقا كثيرا من الصناع والمهندسين والمرخمين . وكان المستحث على عمارته أخوه سليمان بن عبد الملك ، ويقال ان الوليد بعث الى ملك الروم يطلب منه صناعا في الرخام والاحجار وغير ذلك ليعمروا هذا المسجد على ما يريد وأرسل يتوعده إن لم يفعل ليغزون بلاده بالجيوش ، وليخربن كل كنيسة في بلاده حتى القيامة التي بالقدس الشريف ، ويهدم كنيسة الرها وجميع آثار الروم . فبعث ملك الروم صناعا كثيرة جدا وكتب اليه يقول له : ان كان ابوك فهم هذا الذي تصنعه وتركه فانه لوصمة عليك ، وان لم يفهمه وفهمته انت فانه لوصمة عليه . فاراد ان يكتب اليه الجواب ، واذا بالفرزدق الشاعر دخل عليه فاخبره بما كتبه ملك الروم فقال : يا امير المؤمنين انت جعلت اخاك سليمان هو القائم بأمر العمارة والجواب بنص القرآن «ففهمّناها سليمان وكلاً آتينا حكمًا وعلمًا» فاعجب ذلك الوليد وارسل به جوابا لملك الروم .

ولما اراد الوليد ان يبني القبة التي في وسط الرواقات التي يقال لها قبة النسر (قلت وهو اسم حادث على ما اظن كأن العوام شبهوها بالنسر في شكله لأن الرواقات عن يمينها وشمالها كالأجنحة لها) حفر لأركانها حتى وصل الى الماء وشربوا منها ماء عذبا زلالا ثم وضعوا فيه جراز الكرم وبنوا فوقها بالحجارة فلما ارتفعت الاركان عقدوا عليها القبة فسقطت . فقال الوليد وقد أعياه أمرها لبعض المهندسين اريد أن تبني لي أنت هذه القبة . فقال على أن تعطيني عهد الله وميثاقه أن لا يبني فيها أحد غيري وان لا يعارضني فيما أرومه . ففعل ذلك . وبنى الاركان ثم سترها بالبواري والحصر واختفى سنة لا يعلم الوليد أين ذهب ولا يستطيع أن يدع أحدا يتمها . فلما كان بعد العام حضر على الوليد فقال له : كيف حتى عطلت البناء . قال لأمر خفي على أمير المؤمنين وعلى البنائين ، ثم قال ياأمير المؤمنين احضر معي حتى أوقفك على ذلك ، فلما حضر الوليد وكشف الحصر والبواري عن الأركان فاذا هي هبطت بعد ارتفاعها حتى ساوت الارض . فأعجب الوليد و [رجال] الدولة وخلع عليه . ثم أكمل بناءها وعقدها على الهيئة المعلومة الآن .

وأراد الوليد أن يجعل بيضة القبة من ذهب خالص ليعظم بذلك شأن المسجد فقال له بعض المعلمين : انك لا تقدر على ذلك . فضربه خمسين سوطا وقال له : ويلك أنا أعجز

عن ذلك . فقال له المهندس الذي بناها : صدق يا أمير المؤ منين وأنا اوضحه لك . فأمر أن يسبك له لبنة على القدر الذي يطلبه . فلما أحضرها قال أمير المؤ منين : احسبوا القدر الذي دخل فيها . فوجدوه عدة من الالوف فقال : يا أمير المؤ منين اريد مثل هذه كذا وكذا الف لبنة فان كان عندك ما يكفي عملناه . فلما تحقق الوليد صحة قوله أطلق المضروب ورسم له بخمسين دينارا واعتذر اليه .

ولما سقف الوليد الجامع جعلوا أسقفه جملونات وباطنها مسطحا مقرنصا بالذهب . فقال له بعض أهله : أتعبت الناس بعدك بتلبيس سطح هذا الجامع في كل عام . فأمر الوليد أن يجمع ما في بلده وباقي معاملته من الرصاص ليجعله عوض الطين ويكون أخف على السقف ، فجمع ذلك . فلم يكفه . ثم بلغ الوليد ان امرأة عندها من الرصاص القناطير المقنطرة ورثته من ابيها ، فساوموها في بيعه فأبت وقالت : لا ابيعه الا بثقله فضة . فقال لهم : نشتريه لحاجتنا بزنته فضة . فلما اخبروها ان امير المؤ منين سمح لك بزنة ما قلت . قالت : حيث كان صادقا في حب الله فانا احب ان يكون لي في هذا الجامع شيء في حب الله خذوه باجمعه ، فكفاه وفضل . وذكر بعض المؤ رخين ان هذه المرأة كانت اسرائيلية .

وقال ابن عساكر اشترى الوليد هذين العمودين تحت قبة النسر من خالد بن يزيد بن معاوية بألف وخمسمائة دينار .

قال وكان في مسجد دمشق اثنا عشر الف مرخم واشترى لوحين [من] رخام فستقي من الاسكندرية بمائة اشرفي ونقلهما ووضعهما على محل الغار التي فيها رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام . وقيل انهما كانا في عرش بلقيس مع الستة شبابيك التي في مشهد المؤ ذنين على الباب والمشهد الذي تجاهه .

وعن يزيد بن واقد قال وكلني الوليد على العمال في بناء الجامع فوجدنا فيه مغارة فعرّفنا الوليد . فلما كان الليل وافى وبين يديه الشمع فنزل فاذا هي كنيسة لطيفة ثلاثة اذرع في ثلاثة اذرع واذا فيها صندوق ففتح الصندوق فاذا فيه سفط وفي السفط رأس يحيى بن زكريا .

فأمر الوليد برده الى مكانه وقال : اجعلوا العمود الذي فوقه معينا بين الاعمدة . فجعلوا عليه عمودا مسفط الرأس .

وذكر بعض المؤرخين ان ارض الجامع كانت مفروشة بالفصوص المزمكة بالذهب المسماة بالفُسَيفساء . وان الرخام كان في جدرانه سبع وزرات . ومن فوقه صفات البلاد والقرى وما فيهما من العجائب . وان الكعبة المشرفة وضع صفاتها فوق المحراب . ثم فرق البلاد يمينا وشمالا وما بينهما من الاشجار المثمرة والمزهرة وغير ذلك . وجعل سلاسل المصابيح من نحاس محلى بالذهب . ورتب له من الشموع ما يوقد منه في اماكن مختصة . واصطنع في صحنه صفة مجامر على اعمدة برسم البخور ووكل بذلك خدمه لا يفترون ليلا ولا نهارا حتى كان يشم روائح البخور من مسيرة فرسخين وسبك له سرجا من نحاس كل سراج يوضع فيه قنطار زيت وجعل على كل باب سراجا . وجعل في محراب الصحابة رضي الله عنهم اجمعين حجر بلور، وقيل بل درة لا قيمة لها وكانت اذا طفئت المصابيح يقوم نورها مكانها وان الامين بن الرشيد ارسل الى صاحب دمشق ان يسيرها اليه فاختلسها وسيرها اليه ، وقيل انه لما رآها امر بردها . وقال الحافظ بن عساكر : ثم ذهبت بعد ذلك فجعل مكانها برنية من زجاج وقد رأيتها ، ثم انكسرت بعد مدة فلم يوضع مكانها شيء .

مآذن المسجد

وبنى الوليد المنارة التي يقال لها (العروس) وجعل عدة من المصابيح توقد عليها في كل ليلة ورتب لها ثلاث نوّب كل نوبة اربعون مؤذنا وهي باقية الى يومنا هذا . واما (الغربية) و(الشرقية) فهما على ما كانتا عليه من غير عمل ادوار ودرابزين ، وهما من بناء اليونان كالصوامع لضرب النواقيس والرصد . وقال بعض المؤرخين ان الشرقية احترقت في سنة اربعين وسبعمائة فنقضت وجددت من اموال النصارى لكونهم اتهموا بحرقها واقر بعضهم بذلك فقامت على احسن الاشكال . وقال بعض العلماء في المنارة الشرقية البيضاء التي ينزل عليها بن مريم عليه السلام في آخر الزمان بعد خروج الدجال كما ثبت

في صحيح مسلم عن النواس بن سمعان والله أعلم.

ويقال انه كان في الركنين الشماليين صومعتان كالمقابلة فهدمهما الوليد، وجعل من بعض آلتهما قبتان على اعمدة في صحن الجامع، وجعل فيهما خلوتان من فوق الاعمدة واودع بهما كتب اوقاف هذا الجامع ومصاريفه، ويقفل عليهما بالاقفال الحديد المانعة(٧)

وكانت فيه طلّسمات اصطنعتها اليونان لعدم دخول الحشرات كالحية والعقرب والخنافس والعناكب وغير ذلك من الطيور كالحمام والعصافير والوطاويط وما اشبه ذلك. قال ابن عساكر: وذهب بعض طلّسماته. قلت: بل كلها بسبب المحن التي توالت وتعددت على دمشق آخرها محنة تمرلنك.

نفقات البناء

وقال عمرو بن مهاجر الانصاري رحمه الله: ضبط الكتّاب ما انفق على الكوة التي في قبلة المسجد فكانت سبعين الف دينار. وقال ابو قصي: انفق في عمارة مسجد دمشق خمسة آلاف الف دينار وستمائة الف دينار. فلما بلغ امير المؤمنين الوليد ان عمرو بن مهاجر والناس قالوا «أنفذ الوليد بيت مال المسلمين في غير حقه وكان يعمر هذا الجامع ببعض ذلك» جمع الناس، ونودي بالصلاة جامعة، ثم صعد المنبر وحمد الله واثنى عليه فقال «يا ايها الناس، قد بلغني عنكم أنكم قلتم بأني انفقت بيت مال المسلمين، في غير موضعه بغير حق» فأطرقت الناس ثم قال «يا عمرو - يعني ابن مهاجر - قم فأحضر اموال بيت المال» فحمل على البغال. وبسطت الأنطاع تحت القبة وصب عليها المال ذهبا وفضة حتى كان الرجل لا يرى الآخر وجيء بالقبابين ووزنت فاذا هي تكفي الناس ثلاث سنين مستقبلة.

وفي رواية سبع سنين مستقبلة لو لم يدخل الناس شيء بالكلية ففرح الناس وهللوا

---

(٧) توجد الى الآن في الشمال الغربي من صحن المسجد قبة على أعمدة فتحت في أواخر عهد السلطان عبد الحميد بطلب من الحكومة الألمانية بناء على اقتراح بعض مستشرقيها. وكان من العلماء الذين حضروا فتحها باسم الحكومة العثمانية الشيخ طاهر الجزائري، فوجد فيها بعض الصكوك والوقفيات والمصاحف وامثال ذلك من المكتوبات القديمة. أما الشمال الشرقي من صحن المسجد ففيه الآن قبة الساعات وهي على جدران لا على أعمدة

وكبروا وحمدوا الله وأثنوا على أمير المؤمنين ودعوا له وشكروه على ذلك. ثم قال الوليد «يا أهل دمشق انكم تفخرون على الناس بأربع: بهوائكم ومائكم، وفاكهتكم، وحماماتكم، فاحببت أن أزيدكم خامسة وهي هذا المعبد» فحمدوا الله تعالى وانصرفوا شاكرين له. انتهى.

وصف جامعها شعرا

ومن محاسن الشام ما وصف جامعها به بدر الدين حسن بن حبيب الحلبي في كتاب سماه (تشنيف المسامع في وصف الجامع) قال: واما دمشق فانها في وجنة الدنيا كالشامة، وزينة البلاد كريش الطاووس أو طوق الحمامة. وفي دائرة الاقطار كالنقطة المعلمة، وفي جيش الامصار كالملك الذي ينطق بالحكمة. وفي قلادة الاقليم كالواسطة، وفي سماء الحلل كالشمس التي بدت أشعتها في الوجوه باسطة. وهي الربوة المباركة. والغوطة التي جلت عن المماثلة والمشاركة. والمعدودة من جملة مدائن الجنة، والمأهولة بالأهلة من أرباب الكتاب والسنة. والمعروفة بإرم ذات العماد، والموصوفة بلم يخلق مثلها في البلاد. وأما جامعها ففيه أقول:

يا جامعاً في دمشق في حسنه قد تفرّد
لم تطرب الناس طراً الا لأنك معبد[٨]

وقلت أيضا:

معبد الشام يجمع الناس طراً
واليه شوقا تميل النفوس
كيف لا يجمع الورى وهو بيت
فيه تجلى على الدوام العروس[٩]

---

(٨) فيه تورية باسم (معبد) الموسيقي العربي الشهير.

(٩) فيه تورية باسم منارة العروس) التي مر ذكرها.

وقلت:

يا راغباً في غير جامع (جِلَّق)
هل يستوي الممنوع والممنوح
اقصر عناك وفي غلوك لا تزد
إن الزيادة بابها مفتوح[10]

قلت: وهذا الباب المفتوح في بيت ابن حبيب سرقه من بيتي الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة لكن ركبه في محله أحسن تركيب وهما:

أرى الحسن مجموعاً بجامع (جِلق)
وفي صدره معنى الملاحة مشروح
فان يتغالى في الجوامع معشر
فقل لهم باب الزيادة مفتوح

ونقلت من خط الشيخ صلاح الدين الصفدي قوله فيه:

تقول (دمشق) اذ تفاخر غيرها
بمعبدها الزاهي البديع المشيِّد
جرى لتناهي حسنه كل معبد
وما قصبات السبق الا لمعبد

والاصل في ذلك قول الشيخ برهان الدين القيراطي رحمه الله:

سقى بدمشق الغيثُ جامعَ نسكها
وروضاً به غنى الحمام المغرد
اذا ما زهى في العين من ذاك معبد
لذكر حلا في السمع من ذاك معبدُ

ومن معانيه البديعة قوله فيه:

الجامع الأموي اضحى حسنه
حسناً عليه في البرية أجمعا

---

(١٠) فيه تورية باسم (باب الزيادة) الذي مر ذكره.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حلوه اذ حلوه فانظر صحنه
تلقاه أصبح للحلاوة مجمعا

ومن تحريره البديع قوله فيه:

(دمشق) في الحسن لها منصب
عال وذكر في الورى شائع
فخلّ من قاس بها غيرها
وقل له ذا الجامع المانع

ومن محاسنه قوله في الساعات رحمة الله تعالى:

في الجامع الأموي الحسن مجتمع
وبابه فيه للأحداق لذّاتُ
دقائق الحسن يحويها له درج
فحبذا منه بالساعات ساعات
وحبذا معبدٌ كم أطربت اذنا
فيه من الذكر نغمات وأصوات
جلا العروسَ على الرائي فطلعتها
تزفها من بدور التم طارات

ومن لطائفه قوله فيه وفي (النسر) تغمده الله برحمته:

يقول لنا نسر بجامع (جلق)
أنا الطائر المحكي والآخر الصدى
وقد أطرب الاسماع مطرب جنكها
وغنى به من لا يغني مغردا

دمشق والقاهرة

ومن محاسن الشام ما وصفها [به] الشيخ بدر الدين محمد الدماميني الاسكندري

المالكي قال: «فتأملها الملوك فاذا هي جنة ذات ربوة قرار ومعين، وبلدة تبعث محاسنها الفكر على حسن الوصف وتعين. وحسبها بالجامع الفارق بينها وبين سواها، والانهار التي اذا قبّل المحْل فمّا أجراها، واذا سمع حديث الخصب فما أرواها. وما أقول ومتنزهات مصر عارية عن المحاسن وهذه ذات الكسوة [١١]، وان النيل ما احترق[١٢] الا من الأسف حيث لم يسعده الدهر بالصعود الى تلك الربوة. وما أظنه احمرّ إلا خجلا من صفاء أنهارها، ولا ناله الكسر الا لتألمه بالانقطاع عن الوصول الى سقي أزهارها. فلو رأى العاشق جبهتها لسلا بمصر معشوقة، ونسى ظهور جوانبه المنحنية بقامات غصونه الممشوقة. ولو تطاولت المجنونة الى المفاخرة لتأخرت الى خلفها مستحيية، وأحجمت عن الاقدام حين تحركت لها بدمشق السلسلة. وحق لمصر ألا يجري حديث المفاخرة في وهمها، وأن تتقي شر المنازعة قبل أن تصاب من هذه البلدة بسهمها. فسقى الله متنزهاتها التي طرب المملوك برؤية جنكها ولطالما اهتزت له المعاطف على السماع، ورأى بها كل نهر ذاب عنه الجليد فانعقد على حلاوة شكره الاجماع»

وما أحسن قول الشيخ برهان الدين القيراطي:

ما فيه إلا جوسق أو روضة
أو جدول أو بلبل أو ربرب
وكأن ذاك النهر فيه معصم
بيد النسيم منقّش ومكتّب
واذا تكسر ماؤه أبصرته
في الحال بين رياضه يتشعب
وشدت على العيدان وُرْقٌ أطربت
بغنائها من غاب عنه المطرب

---

(١١) فيه تورية بقرية (الكسوة) وهي ضاحية جنوبي دمشق، سميت باسم كسوة المحمل الذي كان يسافر معها الى مكة المكرمة كل عام.

(١٢) فيه اشارة الى (تحاريق النيل) ايام انخفاضه

فـالـورق تـنشـد والـنسيم بهـا فـكـم
اضـحـى لـه مـن بـيـنـنـا مـتـطلّب
ولكم طـربت عـلى السمـاع بجنكـهـا
وغـدا بـربـوتهـا الـلسـان يـشـبّـب
فـمـتى أزور مـعـالمـا ابـوابهـا
بـسـمـاحـهـا كـتـب الـكـرام تـبـوب

وصف مسجد دمشق

ومن محاسن الشام ما وصف جامعها به العلامة اليعقوبي قال «مدينة دمشق جليلة قديمة . وهي مدينة الشام ، في الجاهلية وفي الاسلام . وليس لها نظير في جميع بلاد الشام في انهارها وسبانيها وكثرة عمارتها . افتتحت في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة اربع عشرة وبانيها اسمه دماشق بن نمرود بن كنعان . وقيل دمشق بن قاني بن مالك بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام . وقيل سعد بن عاد ، وبنى فيها قصرين لولديه بريد وجيرون ، ولما بنى دمشق سماها إرم وعلى هذا نقلت الاخبار ان ارم ذات العماد هي دمشق ، يقال انه كان فيها اربعمائة الف عمود . واما جامعها فليس في مدائن الاسلام احسن منه ، بناه الوليد في خلافته بالرخام والذهب سنة ثمان وثمانين ، فرشه بالرخام الابيض المختم بالأرزق ، وسقفه لاخشب فيه ، مذهب كله من اعلاه الى اسفله ، وبه ثلاثة منابر» انتهى .

ومن محاسن الشام وصف الاستاذ ابن جبير لجامعها . نقلت من خط الشريشي قال : أملى علي شيخنا ابن جبير في وصف جامع دمشق ما صورته قال «الجامع الاموي من اشهر جوامع الاسلام حسناً واتقان بناء ، وغرابة صنعة ، واحتفال تنميق وتزيين . ومن عجيب شأنه انه لا ينسج فيه عنكبوت ، ولا تدخله ولا تلم به الطير المعروفة بالخطاف .

ووجه الوليد الى ملك الروم بالقسطنطينية فأمر باشخاص اثني عشر الف صانع من جميع بلاده وتقدم اليه بالوعيد في ذلك ان توقف . فامتثل امره مذعنا فشرع في بنائه وبلغت

الغاية في التأنق فيه [وانزلت جدره كلها] بالفصوص الملونة المذهبة المعروفة بالفسيفساء ومثلت به الاشجار مفرعة الاغصان بانواع الازهار، فجاء يغشى العيون وميضاً وبصيصا .

وبلغت النفقة عليه احد عشر الف الف دينار ومائتي الف دينار .

وكان ابو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه لما دخلها صالح النصارى بان اخذ نصف الكنيسة الشرقي فصيره مسجداً وبقي النصف الغربي للنصارى فاخذه الوليد وادخله في الجامع بعد ان ارغبهم في التعويض عنه فأبوا فاخذه قسرا . وكانوا يزعمون ان من يهدم كنيستهم يجن، فبادر الوليد وقال أنا أول من يجن في حب الله وبدأ الهدم بيده فتبادر المسلمون للهدم ثم ارضاهم عمر بن عبد العزيز في خلافته عن الكنيسة بمال عظيم .

وطول هذا الجامع من الشرق الى الغرب مائتا خطوة وهي ثلاثمائة ذراع وذرعه في السعة من القبلة الى الشمال مائة وخمس وثلاثون خطوة وهي مائتا ذراع وتكسيره من المرجع الغربي اربعة وعشرون مرجعا وهو تكسير مسجد النبي ﷺ غير ان طوله في مسجد رسول الله ﷺ من القبلة [الى الشمال]. وبلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاث مستطيلة من الشرق الى الغرب سعة كل بلاطة منها ثماني عشرة خطوة [والخطوة] ذراع ونصف وقامت البلاطات على ثمانية وستين عموداً منها [اربع وخمسون سارية] وثماني ارجل واربع [ارجل مرخمة ابدع ترخيم، مرصعة بفصوص من الرخام ملونة، قد نظمت خواتيم وصورت] يتخللها اثنتان مرخمة ملصقة في الجدار الذي يلي الصحن واربعة محاريب واشكال غريبة قامت في البلاط الأوسط دور كل رجل منها اثنان وسبعون شبراً ويستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهات سعته عشر خطوات عدد قوائمه سبع وأربعون منها اربعة عشر رجلا والباقي سواد .

وسقف الجامع كله من خارج ألواح من رصاص واعظمها ما فيه قبة الرصاص المتصلة بالمحراب هي قائمة في الهواء عظيمة الاستدارة وقد استقل بها هيكل عظيم وهو غارب لما يتصل من المحراب الى الصحن والقبة قد اقيمت في الهواء فاذا استقبلتها أبصرت مرأى عظيما هائلا .

ومن أي جهة استقبلت البلد ترى القبة في الهواء كأنها معلقة في الجو وعدد شمسياتها الزجاجية الملونة المذهبة أربع وسبعون فاذا قابلتها الشمس واتصل شعاعها انعكس الشعاع الى كل لون منها واتصل ذلك بالجدار القبلي وتتصل بالابصار منها أشعة ملونة هائلة لا تبلغ العبارة بعض صورها.

ومحرابه من أعجب المحاريب الاسلامية حسناً وغرابة صنعة يتقد ذهبا كله قد قامت في وسطه محاريب صغار ومتصلة بجدار تحفها اسورة مفتولات قبلي الأجدرة كأنها مخروطة بعضها أحمر كأنها مرجان ولم ير شيء أجمل منها.

وفيه ثلاث مقاصير: مقصورة معاوية رضي الله عنه وهي مقصورة وضعت في الاسلام طولها اربعة وأربعون شبرا وعرضها نصف الطول. ويليها لجهة الغرب المقصورة التي احدثت عند زيادة الكنيسة فيه وهي أكبر. والثالثة بالجانب الغربي تجتمع السادة الحنفية فيها للتدريس.

وله أربعة أبواب باب قبلي يعرف بباب الزيادة، وباب شمالي يعرف بباب الناطفيين، وباب غربي يعرف بباب البريد، وباب شرقي يعرف بباب جيرون وهو أعظمها. وله وللغربي [وللشمالي أيضا] دهاليز متسعة يفضي كل دهليز منها الى باب عظيم كانت كلها مداخل الى الكنيسة فبقيت على حالها.

وفي صحنه من عجائب الابنية والقباب والصوامع الثلاث والمياه المدبرة ما يحير العقول وتكل عنده الافهام. وهذا الصحن من أجمل المناظر وأحسنها وفيه يجتمع أهل البلد و[هو] متفرجهم كل عشية تراهم فيه ذاهبين راجعين من باب البريد الى باب جيرون لا يزالون على هذا الحال الى انقضاء العشاء الآخرة. منهم من يتحدث مع صاحبه، ومنهم من يقرأ. فهذا دأبهم بالعشي والغداة، والاحفل بالعشي. وأهل البطالة يسمونهم الحراثين»

وما أحسن قول الشاب الظريف محمد بن العفيف في غلام يمشي في صحن الجامع:

تمشّى بصحن الجامع الشادن الذي
على قده أغصان بان النقى تثني

فـقـلت وقـد لاحـت عـليـه حـلاوة
الا فـانـظرواهـذي الحلاوة في الصحن

وقال ابن جبير: «وللجامع الاموي اربع سقايات في كل جهة.
سقاية باب جيرون، وباب جيرون مفروش بالبلاط الطويل العريض وهو خمسة ابواب مقوسة لها ستة أعمدة. وفي جهة اليسار منه مشهد كبير كان فيه رأس الحسين رضي الله عنه قبل أن ينقل الى القاهرة. وبازائه مسجد صغير لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه. قد انتظمت أمام البلاط أدراج ينحدر عليها الى الدهليز وهو كالخندق العظيم يتصل الى باب عظيم الارتفاع ينحسر الطرف دونه سموا قد حفته أعمدة كالجذوع طولا وكالاطواد ضخامة. وبجانبي هذا الدهليز أعمدة قامت عليها شوارع مستديرة فيها حوانيت العطارين وغيرهم وعليها شوارع مستطيلة فيها الحجر والبيوت. وفي وسط الدهليز حوض بانبوب صفر يزعج الماء بقوة فيرتفع الى الهواء أزيد من القامة وحوله أنابيب صغار ترمي الماء علواً فيخرج عنها كقضبان اللجين وكأنها تلك الدوحة المائية، ومنظرها ابدع من أن يوصف.

وعن يمين الخارج من باب جيرون في جدار البلاط الذي أمامه شبه غرفة لها هيئة طاق كبيرة مستديرة فيها طيقان من صفر وقد فتحت أبوابا صغارا على عدد ساعات النهار ودبرت تدبيرا هندسيا فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فمي بازيين من صفر قائمين على طاستين من صفر مثقوبتين فتبصر البازيين يمدان اعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ويقذفانهما بسرعة وتدبير عجيب تتخيله الاذهان سحرا فعند وقوعهما يسمع لهما دوي فيعودان من الاثقاب الى داخل الجدار الى الغرفة وينغلق الباب للحين بلوح صفر فلا يزال كذلك حتى تنقضي الساعات فتنغلق الابواب كلها ثم تعود الى حالاتها الاولى.

ولها بالليل تدبير آخر وذلك ان في القوس المنعطف على الطيقان المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخرمة في كل دائرة زجاجة وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة فاذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح وأفاض على الدائرة شعاعا

فلاحت دائرة محمرة ثم ينتقل الى الاخرى حتى تنقضي ساعات الليل وقد وكل بها من يدبر شأنها فيعيد فتح الابواب ويسرح الصنج الى موضعها وهي التي تسمى الميقاتية»

وصف قلعة دمشق

ومن محاسن الشام قلعتها وحسن بنائها واتساعها فانها قدر مدينة. وبها ضريح السيد الجليل ابي الدرداء رضي الله عنه. وبها جامع وخطبة كالمدينة فانها بفرد خطبة لا غير وخارج المدينة الخطب الكثيرة يعسر الآن علينا تعدادها. وبها حمام وطاحون وبعض حوانيت لبيع البضائع. وبها دار الضرب التي تضرب فيها النقود. وبها الدور والحواصل وبها الطاولة التي ليس على وجه الأرض أحسن منها كأنها افرغت بقالب من شمع ينظر الرائي اعلاها فيحسن نظره وان طال مرآه.

وهي تسامتُ رؤوس الجبال. يقال ان تيمورلنك لما حاصرها وعجز عنها امر أن ينقب تحتها وتقطع الاشجار وتعلق بها وحتى اذا انتهى تعليقها اطلق النار فيها تحتها من الاخشاب وظن انها تفسخ بذلك وتسقط شذر مذر فيبلغ مراده من أخذ القلعة. فلما عمت النار فيها تحتها بركت بصوت أزعج الوجود كما يبرك الاسد فمن ثم سموها بالاسد البارك وهي الآن على الثلثين من علوها.

وبالقلعة آبار ومجار للماء ومصارف بحيث اذا وقع الحصار وقطع عنهم الماء تقوم الآبار مقامه.

وبها يمر نهر بانياس وينقسم فيها قسمين يستمر احدهما على حاله طاهرا للمنافع والاستعمال والآخر تنسحب عليه الاوساخ والقاذورات وهو المسمى بقليط يمر تحت الارض بنحو من قامتين لتشعب الماء الطاهر فوقه يميناً وشمالاً، حتى في بعض الاراضي يبلغ سبعة مجاري من الماء العذب ليس لأحدها اختلاط بالآخر.

ومصارفهم تسقط على نهر قليط ويمر في المدينة الى أن يخرج من الباب الصغير ويتصل بمحلة المزاز فيضمحل فيما يليها من الاراضي التي تزرع الكرسنة والفصة والبيقية والقنب وما أشبه ذلك. وغالب ما يسقى به القنب وهو أبيض أملس كالرماح في الطول مجوف لا

عقد به يصب الماء من رأس الواحدة فيجري من آخرها وقشره يعمل منه الخيوط والحبال وتورى بالقنب النار وهو يقوم مقام الشعشاع والطرفاء لكنه ألطف منهما وأسرع وقيدا . كما أن الشيخ أحسن من الحلفاء بعرفه الذكي أخضر وناشفا . ويقال ان القنب هذا يعمل من ورقه الحشيش اذا اضيف اليه الورق البري . وقد ذكرنا ذلك مفصلا في كتابنا (راحة الارواح، في الحشيش والراح) فليراجع . انتهى .

حي تحت القلعة بدمشق

ومن محاسن الشام تحت قلعتها فانها منهل للغريب ومرتع للقريب وهي ساحة سماوية كبركة الرطلي[١٣] في الوسع لاجتماع البرية تحفّها الدور وتعلوها التصور ويلحقها كل ما يرومه الانسان، وتشتهيه الشفة واللسان، لا يحتاج فيها سكانها لحاجة من المدينة ولا لجيرانها . فيها دار البطيخ الذي يباع فيه جميع فواكه البلد . وبه العين المشهورة بالمجمع على برودة مائها وعذوبته وخفته . وتحت القلعة سوق للقماش المذروع وسوق قماش للمخيط . أحدهما للرجال والآخر للنساء . وبها سوق للفرا والعبي وغير ذلك . وبها سوق السقطيين وسوق النحاس وبها سوق السكاكينيين وبها سوق القربيين وبه للارميين وبها سوق قماش الخيل والبغال والبهائم والاغنام وبها سوق القشاشين وبها سوق المدهون والخضريين وبها سوق المحايريين والنجارين والخراطين . وبها سوق النقليين وبها دار الخضر وبها سوق المناخليين والزجاجيين .

واما ساحة تحت القلعة فانك لا تستطيع أن ترى ارضها لكثرة ما به من المتعيشين والوظائفية . ويتخلل بينهم أرباب الحلق والفالاتية والمضحكون وأصحاب الملاعيب والحكوية والمسامرون وكل ما يتلذذ به السمع ويسر العين وتشتهيه النفس صباحا ومساء على هذا لا يفترون، لكن المساء أكثر اجتماعا ويستمرون الى طلوع الثلثين . وهو عبارة عن ثلاثة طبول متفرقة بأعلى القلعة يضربون الثلث الاول كل واحد منهم ضربة والثلث

---

(١٣) بركة الرطلي حي من أحياء القاهرة.

الثاني من الليل يضرب كل واحد ضربتين والثلث الآخر من الليل يطلع المؤذن على منارة العروس بالجامع الاموي ويعلق لهم قنديل الاشارة فيضرب كل واحد منهم ثلاث ضربات ويسوق الثلثين من التسبيح والأذان الاول الى السلام ينتهي الضرب.

وبها خطبتان الاولى بآخرها بالمدرسة المؤيدية. والثانية بصدرها في جامع يلبغا. وهو من أحسن الجوامع ترتيباً ومتنزّها، بصحنه بركة ماء مربعة داخلها فسقية مستديرة بها نوفرة يصعد منها الماء قامة ومن فوقها مكعب عليه عريشة عنب ملون يصل الماء الى قطوفها الدانية. وبجانبيها حوضان فيهما من أنواع الفواكه واجناس الرياحين. وله شبابيك تطل على جهاته الثلاث الاولى على تحت القلعة من جهة الشرق والجهة الثانية تطل على بين النهرين وهي الغربية والجهة القبلية تنظر الى نهر بردى وما هناك من الاشجار والازهار وهناك شجرة حور يحتاط بها اربعة رجال فلا ينظر الواحد لمن يقابله لعظم ساقها. وللجامع ثلاثة أبواب الأول الشرقي وهو في صدر تحت القلعة ويسمى باب الحلق، والثاني شمالي يخرج الى الميضا ويسمى باب الفرج، والثالث غربي ينحدر منه في درج الى اول الوادي ويسمى باب المنزه. انتهى.

بين النهرين

ومن محاسن الشام (بين النهرين) وهو مبتدأ الوادي يشتمل على فرجة سماوية بها دور وقصور وسويقة بها حانوت طباخ وصاجاتي وقطفاني وفقاعي وحواضري وفاكهاني وشوا وقلاجين وسكرداني ونقلي وقاعة لبن وعدة للجلبية وحمام يشرح صدور البريد وقنطرة يتوصل منها الى جزيرة لطيفة من رأسها ينقسم نهر بردى فيصير نهرين والمقسوم منه نهر الصالح المعتقد الشيخ ارسلان أعاد الله علينا من بركاته وعلى المسلمين طول الزمان وبها مقصفان (١٤) للبطالين فيها بين المقسمين وقبالهما زاوية للشاب التائب يقام بها السبت والثلاثاء من الاوقات بالوعاظ والدواخل ما يصير الحاضر غائبا. ويتوصل الى زقاق الفرايين المشتمل على قاعات واطباق وغرف وكم رواق، الجميع يطل على بين النهرين.

(١٤) المقصف المتنزة الظليل على شاطيء نهر

وصف النواعير

ولكل مكان من ذلك ناعورة يستلذ صاحبها بانسها وتجلب له الماء اذا سمع حسها.

ومن أحسن ما قاله الشيخ ابو الفضل بن القدوه احمد بن العارف محمد وفاء:

نواعير نعت لي رشاً للقلب راعي

فهام القلب مني على حس النواعي

ومن محاسن الشيخ زين الدين عمر بن الوردي قوله فيها:

ناعورة مذعورة ولهانة لي حائرة

الماء فوق كتفها وهي عليه دائرة

ابن نباتة:

وناعورة قالت وقد ضاع قلبها

واضلعها كادت تعد من السقم

أدور على قلبي لاني فقدته

وأما دموعي فهي تجري على جسمي

ومن بديع مجير الدين محمد بن تميم:

ناعورة قالت لنا بأنينها

قولاً ولن تدري الجواب ولا تعي

كم فيّ من عجب يرى مع انني

أبداً أسير ولا أفارق مصجعي

لا رأسي في جسدي وقلبي ظاهر

للناظرين وأعيني في أضلعي

ومن اغراضه قوله:

وناعورة شبهتها اذ رأيتها

وما زال فكري بالغرائب يسمح

بطائرة مخضرة كل ريشة
لها تحتها عين من الدمع تسفح

ومن بدائع ابن خطيب الاندلس:

وناعورة تحسب من صوتها
متيما يشكو الى زائر
كأنما كيزانها عصبة
رموا بصرف الزمن القاهر
قد منعوا ان يلتقوا فاغتدى
أولهم يبكي على الآخر

ومن تحرير القيراطي قوله:

وناعورة قد ضاعفت بنواحها
نواحي وأجرت مقلتاي دموعها
وقد ضعفت مما تئن وقد عدت
من السقم والشكوى تعد ضلوعها

التقي ابن حجة قوله فيها:

وناعورة قد سلسلت دور انسنا
وأهدت لنا روحاتها نفحة الصور
اذا ما سقت دورا تحرك عودها
لنا وتغني في البسيط على الدور

شيخه علا الدين بن القضامي:

وذات شجو أسالت مدامعا لم تصنها
تبكي بفرط دموع ويضحك الروض منها

ابن نباتة رحمه الله تعالى:

وناعورة قسمت حسنها
على واصف وعلى سامع
وقد ضاع نشر الربا فاغتدت
تدور وتبكي على الضائع

ومن محاسن شعره قوله فيها:

اعجب لها ناعورة قلبها
للماء منشى العيش والعشب
تعبانة الجسم ولكنها
كما ترى طيبة القلب

الامير مجير الدين بن تميم رحمه الله:

أبدت لنا بالعذر ناعورة
أدمعها في غاية السكب
تقول لما ضاع قلبي وقد
ضعفت بالنوح وبالندب
صيرت جسمي كله اعينا
تدور في الماء على قلبي

ومن تضامين ابن تميم قوله:

وناعورة شبهتها حين ألبست
من الشمس ثوبا فوق اثوابها الخضر
كطاوس بستان تدور وتنجلي
وتنفض عن ارياشها بلل القطر

ومن لطائفه قوله فيها:

ناعورة مذ ضاع منها قلبها
دارت عليه بأنة وبكاء

وتـعــللت بــلقـائــه فــلأجــل ذا
جـعــلت تــديــر عــيــونها في المــاء

الشرفان

ومن محاسن الشام شرفاها وما حويا من المناظر والقصور، وما فيهما من الولدان والحور. وتقرب الى الله تعالى أهلها ببناء المدارس، رغبة في جوار المجرد الفقير البائس. ورتبوا له من الخبز واللحم والطعام، والزيت والحلو والصابون والمصروف في كل شهر على الدوام. فيجلس الطالب في شباكها ينظر الى الماء والخضرة والوجه الحسن، فيكف لا ينبعث الى طلب العلم ويتحرك من فهمه ما سكن.

ويقال ان بمدرسة الكججانية قبة بها طاقات بعدد أيام السنة، والشمس دائرة على تلك الطيقان ولا تدخل اليها وهذا من حسن الهندسة.

وأما جامع تنكز فانه في الشرف الادنى وهو من الغايات هندسة وبناء فيه عشرون شباكا على خط الاستواء يشرف على الانهار ومرجة الميدان وما حوى. وبوسط صحنه يمر نهر بانياس يتوضأ منه الناس وبه ناعورتان يملآن ويفرغان الى حوضين بهما سائر الاشجار، وجميع الرياحين والازهار. وبينهما بركة مربعة بها كأس في غاية التدوير، يجري الماء اليها من النواعير. فهو متنزه يقصد، وللمصلي معبد. وفي كل شرف منهما عدة من المدارس والمساجد، ولكل واحد ما يكفيه من الاوقاف استولت عليها ايدي المتشبهين بالفقهاء فاظهروا فيها انواع المفاسد. فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم.

وكل شرف يطل على (الشقرا) و (الميدان)، و (القصر الابلق) و (المرجة) ذات العيون والغدران. وما أحسن قول الشيخ شمس الدين محمد النواجي الشافعي في وصف الشرف الاعلى:

الا ان وادي الـشـــام أصــبــح آيــة
محــاسنــه مــا بــين أهــل النهى تتــلى

وان شـرفت بـالنيـل مصـر فلم يـزل
دمشق لهـا بـالغـوطة الشـرف الاعـلى

ونقلت من خط العلاء علي بن المشرف المارديني في غلام اسمه علي في الشرف الاعلى:

جـنى عـلٍّ ولـكـن وجـهـه حـسـن
وفـعـله المـرتـضى يحلو بـه الـشـغـف
بـدر مـن الشـرف الاعـلى لـه نسب
وهـل لـغـير عـلي ينـسـب الـشـرف

الامير مجير الدين محمد بن تميم يصف الميدان:

عـجـبـا لمـيـداني دمـشـق وقـد غـدا
كـل لـه شـرف الـيـه يـشـول
والـنهـر بـيـنـهـما لـغـير جـنـايـة
سـيـف عـلى طـول المـدى مـسـلول

وقال ابن الشهيد في (الشقراء و(الميدان):

ولم تحـك جـلق في المحـاسـن بـلدة
قـول صـحـيـح مـا بـه بهـتـان
ولئـن غـدوت مـنـافـسـا في غـيـرهـا
هـا بيـنـنـا (الـشـقـراء و (المـيـدان)

ومن تحرير القيراطي قوله في وصف الشقراء:

سر بي الى الـشـقـراء مـن جـلق
واثـن الى الخـضـراء مـنـك الـعـنـان
فـيـهـا جـنـان لـو رأى حـسـنهـا
ابـو نـواس لـلهـا عـن (جـنـان)
وانـزل بـواديـهـا الـذي تـربـه
مسـك وحـصـبـا الـنهـر منـه جمـان

المرجة

ومن محاسن الشام مرجتها قرأت كتاب وقف تربة السلطان الملك الظاهر (برقوق) سقى الله عهده الكائنة بالصحرا خارج (باب النصر) من (القاهرة) المحروسة وهو متصل الثبوت الى آخر وقت تسجيلي على بعض القضاة الشافعية، من جملته طاحون الشقراء بمرجة (دمشق) المحروسة ظاهر قصر الملك الظاهر ابي الفتوحات (بيبرس) سقى الله عهده بالقرب من (زاوية الاعجام) ويليها قصبة سوق عدة حوانيتها احد وعشرون حانوتا وعلوها الطباق المطلة على المرجة المذكورة وبآخرها المسجد المطل على نهر بردى. انتهى.

قلت وأدركت الطاحون غير دائرة. ولقد هدمها وكيل المقام الشريف (برهان الدين النابلسي) المعروف بابن ثابت في أوائل دولة السلطان الملك الاشرف (قايتباي) خلد الله تعالى ملكه. فعلى هذا كانت المرجة عامرة آهلة وهي من المحاسن التي لا تدرك وبعضهم يشبهها بصدر الباز[١٥] كأنه شبهها به لان الوادي ينضم من رأسها ويعلوه جبلان وشبه هذين الشرفين بالاجنحة.

ونقلت من خط التقي ابن حجة قوله فيها:

ذكرت احبتي بالمرج يوما
فقوت ادمعي نيران وهجي
وصرت اكابد الاحزان وحدي
وكل الناس في هرج ومرج

ومن بديع القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر قوله فيها:

ومرجةُ في واد يروقك روضها
ولا سيما ان جاد غيث مبكر

(١٥) لا يزال منتهى (المرجة) في جهة الغرب يدعى الى اليوم (صدر الباز).

بهـا فـاض نهر مـن لجـين كـأنـه
صفـائـح اضحت بـالنجـوم تسمّـر
تـلاحـظهـا عـين تـفـيض بـادمـع
يـرقـرقـهـا منـه هـنـالـك محـجـر
وكـم غـازلـتـه لـلغـزالـة مـقـلة
تـسـارق اوراق الـغـصـون فـتـنـظر
اذا فـاخـرتـه الـريـح ولّـت عليـلة
بـاذيـال كـثـبـان الـربـا تـتـعـثر
بـه الفضـل يبـدو والـربيـع وكم غـدا
به الروض يحيى وهو لا شك جعفر(١٦)

حي المنيبع

ومن محاسن الشام محلتا (الخلخال) و (المنيبع) فمحلة (الخلخال) بها سويقة وحوانيت وفرن وحمام وهي مسكن الاتراك وكذلك المنيبع والشرفان وبه يدق طبلخاناتهم وبها زاويتا الادهمية والحضود وهي تحف بالناس والاعيان ومن أحسن قول الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة في وصف الخلخال:

يـا حـبـذا يـومـي بـوادي جـلق
ونـزهـتي مـع الـغـزال الحـالي
مـن اول الجـبـهـة قـبـلتـه
مـرتـشـفـا لآخـر الخـلـخـال

(والمنيبع) محلة وسويقة وحمام وافران وبها مدرسة (الخاتونية) وهي من اعاجيب الدهر يمر بصحنها نهر (بانياس)ونهر (القنوات) على بابها ولها شبابيك تطل على المرجة وبها الواح الرخام لم يسمح الزمان بنظيرها وعدة من خلاوي الطلبة وبجوارها دار

---

(١٦) فيه تورية بآل برمك.

الامير الاصيل (ابن منجك) رحمه الله تعالى وبها سكن القاضي بهاء الدين بن جحى الشافعي رحمه الله تعالى. وهذه المحلة من محاسن دمشق وشرفها. انتهى.

نقلت من خط الشيخ شمس الدين محمد النواجي في وصف المنيبع:

يا سادة اهدوا محاسن جلّق
لطرفي ففاضت بالبكا عبرات
منيبع جفني فوق ربوة جبهتي
يزيد ودمعي بعدكم قنوات[١٧]

متنزه الجبهة

ومن محاسن الشام المتنزه المسمى بالجبهة وهي أرض مربعة قدر فدانين عليها سقائف تظلها من غير طين بين شجر الصفصاف والجوز والحور وكل مفرش حصير تحيط به جداول الماء من اربع جهاته مع البرك والبحرات بالنوافر وهي على جنب نهر (بردى) وبه النواعير وبها حوانيت للشرايحية والجزارين والطباخين والحواضرية والاقسماوية والنكاهين وغير ذلك. وبها مسجد ومدرستان ومربط الدواب، ومقاصفية واقفون في خدمة الناس. وعندهم اللحف والانطاع والعبي لمن يبات.

وفيها يقول التقي ابن حجة الحموي (دوبيت):

لما ملأ (الجبهة) بالانوار
لمناه على ذلك خوف العار
قال انصرفوا سئمت من بلدتكم
و «الجبهة» من منازل الاقمار

وفيها يقول علي بن سعيد صاحب (المرقص والمطرب) وقد رآها عند شمس الاصيل قبيل المغرب:

---

(١٧) فيه تورية بمحلة (المنبع) ومتنزهي (الربوة) و(الجبهة)، ونهري (يزيد) و(القنوات).

ان لـلجـبـهـة في قـلبـي هـوى
لم يـكـن عـنـدي لـلوجـه الجـمـيـل
يـرقص المـاء بهـا مـن طـرب
ويمـيـل الـغـصـن في الـظل الـظليـل
وتـود الـشـمس لـو بـاتـت بهـا
فـلذا تـصـفـرّ في وقـت الاصـيـل

ويعلوها نهرا (القنوات) و (بانياس) المنحدر الماء اليها منه ومن فوق النهر حمام النزه والى جانبه مقصف بحوانيت فيها البضائع ويمر بوسطه نهر القنوات. ويتوصل منه الى زاوية الحريري المشهورة وليس أبدع من منظرها وينحدر منها الماء الى المتنزه المسمى (قطية) وهي مقصف على نهر بردى وعليه النواعير متشعبة اراضيه بجداول الماء والبرك والبحرات. وبه قصبة ذات حوانيت يعلوها اربعة أطباق ومربط للدواب. وعند المقاصفي العبي واللحف والانطاع حتى الاطباق والملاعق لمن يأكل وهذا مما لا يوجد في بلد من البلاد.

انشدني قاضي القضاة عزالدين احمد الكتاني الحنبلي فيها:

أيـا حسن سلسـال عـلى نهر قـطيـة
اذا مـا جـرى فيهـا نخـوض ونلعـب
تهـدده اغـصـانها برؤوسهـا
فـيـنـظر مـن طـرف خـفـي ويهـرب

وقال ابن عماد الاندلسي وابدع:

نهر يهـيـم بـحـسـنـه مـن لم يهـم
ويجـيـد فيـه الشـعـر من لم يـشـعـر
فـكـأنـه وكـأن خـضـرة شـطه
سيـف يسـل عـلى بسـاط أخـضـر

متنزه النيربين

ومن محاسن الشام المتنزه المسمى بالبهنسية. وهو روض يجمع بين الاشجار، والفواكه والازهار، مع عيون الماء، وتظهر منه الى (مرجة جسر ابن شواس). به مقاصفي وبيع وشراء ويتوصل منه الى اراضي (حمص) مابين رياض وغياض. ويعلوها محلة (النيربين). وهي أعظم المحلات وأخضرها وأنظرها- حسنة الاثمار كثيرة الازهار وبها سويقة وحمام يقال له (حمام الزمرد) وجامع بخطبة وهي مسكن الرؤساء والاعيان وبها دار قاضي القضاة نجم الدين يحيى بن جحى وفيها قتل رحمه الله تعالى ومنها تدخل الى أرض الربوة.

وأعجب من هذا ان السالك الى الربوة من حين يخرج من باب (جامع يلبغا) يمشي بين اشجار، وأثمار، ومياه، وظل ظليل. لا يمكن ان يرى الشمس. الا إن يقصد رؤيتها. انتهى.

وفيها يقول بدر الدين بن لؤلؤ الذهبي يصف النيربين:

رعى الله (وادي النيربين) فانني
قطعت به يوما لذيذا من العمر
درى انني قد جبته متنزها
فمد لاقدامي ثيابا من الزهر
واوحى الى الاغصان قربي فارسلت
هدايا مع الارياح طيبة النشر
وأخدمني الماء القراح وحيثما
سنحت رأيت الماء في خدمتي يجري

واجاد الوداعي بقوله ثم افاد:

ويوم لنا بالنيربين رقيقة
حواشيه خال من رقيب يشينه

وقفنا وسلمنا على الدوح بكرة
فردت علينا بالرؤوس غصونه

سيف الدين المشد وأبدع:

وصباً صَبَتْ من (قاسيون) فسكّنت
بهبوبها وصبّ الفؤاد البالي
خاضت مياه (النيربين) عشية
وأتونك وهي بليلة الاذيال

ربوة دمشق

ومن محاسن الشام محلة (الربوة) قال بعض المفسرين الربوة احدثها بنو كنعان وابتدأوها. وهي المذكورة في قوله تعالى «(وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين» يعني مريم وعيسى عليهما السلام. وانما قيل لها ربوة لانها مرتفعة مشرفة على غوطتها ومياهها. وكل راب مرتفع على ما حوله يقال له ربوة ومنه تربية الصبي لترفعه في النفس والجسم. والمعين الماء الذي يخرج من الارض.

وقال ابن مطرف في ترتيبه: الربوة فيها ثماني لغات. رُبوة. ورَبوة. وربوة. ورُباوة. ورَباوة. ورِباوة. ورابية ورُبىً والجمع رُبى.

والربوة معارة لطيفة بسفح الجبل الغربي وبه صفة محراب يقال انه مهد عيسى عليه السلام يزار وينذر له. وبها جامع وخطبة ومدارس وعدة مساجد، وبها قاعات وأطباق وفيها عين ماء يقال لها (الملثم) ومرابط للدواب وبها سويقتان قاطع بينهما نهر (بردى) وبها صيادو السمك يصطادون، والقلايون على جبل النهر يقلونه ويذبح فيها كل يوم خمسة عشر رأسا من الغنم خلاف ما يجيئها من اللحم من المدينة، وبها عشرة شرايحية ليس لهم شغل غير الطبخ والغرف في الزبادي والصحون وكل ما تشتهيه الانفس فيها وبها فرنان وثلاثة حوانيت برسم عمل الخبز الشوري واما الفواكه فلا

قيمة لها فاني اشتريت الرطل بربع درهم[١٨]. وكذلك الرطل الدمشقي من المشمش مثله والتفاح كذلك وبها حمام ليس على وجه الارض نظيره لكثرة مائه ونظافته وله شبابيك تطل على النهر وهو مبني ما بين الانهر من فوقه ومن تحته. وبها طارمة المسجد الديلمي الذي جدده نور الدين الشهيد وله اوقاف على قراء ووعاظ وقراءة البخاري وغير ذلك كالمؤذن والفراش والبواب والوقاد وفيه يقول تاج الدين الكندي:

ان (نور الدين) لما أن رأى
في البساتين قصور الاغنياء
عمر (الربوة) قصرا شاهقا
نزهة مطلقة للفقراء

وقال الامير مجير الدين محمد بن تميم وأحسن رحمه الله:

يا حسن طارمة في الجو شاهقة
ما ان تمل بها العينان من نظر
نزّه لحاظك في طاقاتها لترى
اصناف ما خلق الرحمن للبشر
ترى محاسن واد يحتوي نزها
لذاذة السمح والابصار والفكر
وربوة قد سمت حتى تخال لها
سرا تحدثه للانجم الزهر
ما بين روض وأنهار مسلسلة
تجري وتحمل انواعا من الثمر
كم بتّ فيها وخدني شادن غنج
حلو التثني كغصن البانة النضر
اشكو اليه الذي ألقى ومقلته
تشكو اليّ الذي يلقى من السهر

---

(١٨) وزن الرطل الدمشقي ثمانمائة درهم

حتى رأيت نجوم الليل قد غربت
عنا وهبت علينا نسمة السحر
قمنا نجرّر أذيال العفاف بها
والله يعلم منها صحة الخبر
لا خير في لذة تمضي ويعقبها
خطيئة تسلك الانسان في سقر

ومن لطائفة قوله:

موضع القس جنة الخلد اضحت
مهجتي كل ساعة تشتهيها
طوقتني بفضلها فلهذا
كلما زرتها أغرّد فيها

وهذه القاعة التي بناها نور الدين الشهيد هي على شعب جبل جميعها متختة بالواح من خشب سقفها (نهر يزيد) وأساسها من تحتها (نهر ثورا) ومنظرها من الغايات التي لا تدرك وقبالها في الجبل الغربي ضريح العاشق والمعشوق وعليهما صومعتان مبيضتان وبينهما سبعة مقاصف كل مقصف فيه من الثريات والمصابيح والغطاء والوطاء ما لايحتاط به الوصف حتى ان بعض الناس يطلع اليها ليتنزه فيها يوما فيقيم بها شهرا، وجبلاها متقابلان متلاقيان عليها الجبل الغربي بذيله دف الزغفران والجبل الشرقي رأسه مثل الجنك. ولهذا اطنب الشعراء في وصفهما.

وقال الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة في وصفها:

بالجنك من مغنى دمشقي حمائم
في دف اشجار تشوق بلطفها
فاذا اشار لها الشجي بكاسه
غنت عليه بجنكها وبدفها

وقال الشيخ صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي:

انهض الى (الـربـوة) مـسـتـمـتـعـا
تجـد مـن الـلذات مـا يـكـفـي
فـالـطير قـد غـنى عـلى عـوده
في الـروض بـين الجـنـك والـدف

ومن محاسن الشيخ عمر بن الوردي قوله:

دمـشـق قـل مـا شئـت في وصـفـهـا
واحـك عـن (الـربـوة) مـا تحـكـي
فـالـطير قـد غـنى عـلى عـوده
في الـروض بـين الـدف والجـنـك

ومن لطائفه قوله وقد اغار الصفدي على بيت ابن الوردي:

يـا ربـوة أطـربـتـني   وحـسـنـت لي هـتـكـي
اذ لـسـت ابـرح فـيـهـا   مـا بـين دف وجـنـك

ونقلت من خط الشيخ شعبان الآثاري[١٩]:

كم تحت جنـك الـربـوة الفيحـاء من
دف زهـت اشـجـاره بـشـنـوفـهـا
سـقيـا لهـا مـن ربـوة مـن حـل فـيـ
ـهـا أطـربـتـه بجـنـكـهـا ودفـوفـهـا

ونقلت من خط الشرف القواس قوله:

بـربـوة الـشـام ربـتْ مـنـيـتي
وقـر قـلـبـي وهـي دار الـقـرار
وطـيـرهـا المـطرب في جـنـكـه
غـنى عـلى نـاي وعـود وطـار

ونقلت من خط الشرف القواس قوله:

(١٩) في الأصل (شيبان الاماري).

أود بـأني لـو أرى الجـنـك سـاعـة
وأنـفـق فـيـه كـل مـا أنـا أمـلك
فليس لنفسي في سـوى الجنك مـطلب
فـدعهم يقـولـوا فيـه لـلصب مـهلك

ونقلت أيضا من خطه:

سـر بي الى الـوادي وقـف متـنـزهـا
فـالجـنـك غـنـت فـوقـه الاطـيـار
لـو لم يـكـن هـو جـنـة المـأوى لـنـا
مـا كـان تجـري تحـتـهـا الانهار

ونقلت من تحرير الشيخ برهان الدين القيراطي قوله:

سقى الجنـك منهلّ الـربـاب فشـوقنـا
لـطيب مغـاني ارضـه مـالـه حـصـر
وحـيـا بـقـطر الـشـام انهارهـا الـتي
عـلى شهـدهـا للدمـع من مقلتي قـطر
وجـادت سمـاء الغيث ارضـا سمـاؤهـا
غصـون ريـاض الـزهـر آفـاقهـا زهـر
فـكـم جـاءني منهـا نـسـيـم ممـسـك
وعـرفـهـا لـلقـاربـين بهـا الـعـطر

وطلع الشيخ شمس الدين محمد بن الخياط الشهير بضفدع مع ابن خلكان الى الربوة فوجدا غلمانا يعومون ويلعبون في نهر (ثورا) الذي تحت التخوت المعروف بالمنيقية فانشد ضفدع قوله:

لـربـوتـنـا واد حـوى كـل بهـجـة
فـعيش الـورى يحلو لـديـه ويـعـذب
تـرق لـنـا الأنهار مـن تحت جـنـكـة
فـلا عـجـب أنّـا نـخـوض ونـلعـب

فانشد ابن خلكان رحمه الله :

وسرب ظباء في غدير تخالهم
بدورا بأفق الماء تبدو وتغرب

يقول خليلي والغرام مصاحبي
اما لك عن عهد الصبابة مذهب

وفي دمك المطلول خاضوا كما ترى
فقلت له دعهم يخوضوا ويلعبوا

ومن محاسن الشام (المقسم) الذي تنقسم منه السبعة أنهار وأصله من ينابيع (عيون التوت).

واليها يشير برهان الدين القيراطي بقوله:

عندي لأرض دمشق فرط صبابه
فسقى حماها الرحب صوب غيوث

وعيوننا لفراق مشمشها حكى
جريان ادمعها (عيون التوت)

ويمر (بردى) على قرية الزبداني كالبحر الى ان يلتقي على قرية (الفيجة) الفيحاء (بمياه ينبوعها).

وما احسن قول الشيخ برهان الدين القيراطي في وصف الزبداني:

دمشق وافي بطيب نسيمها المتداني
وصح قول البرايا من عاشر الزبداني

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى في (الملتقط) ان ماء العيون بارد رطب، وجيده من العيون الشرقية ينفع الكبد الحارة، وضرره احداث الترهل، ودفع ضرره بالحمام والرياضة. يصلح للامزجة الحارة.

وقال ابقراط الماء يحفظ على البدن رطوبته ويقمع الحرارة ولا يغذو ولكن يرقق

الغذاء وينفذ الى العروق، وهو يضر اصحاب الرطوبات والبلغم، الا انه اذا طبخ في اناء جديد كخزف أو قوارير قلت رطوبته ونفخه. وأفضل المياه مياه العيون الحارة الارض، التي تخرج من الاودية بشدة على مقابلة الشمال، وتجري على الطين الحر مكشوفة للشمس والرياح، ولا تمر على بطائح، ويكون ماؤه صافيا براقا، وأجوده أخفه وزنا، وأسرعه قبولا للسخونة والبرودة، وأعذبه طعما.

ويقال من ظاهر (باب السلام) الى ظاهر (باب توما) ثلاثمائة وستون عينا تجري الى القبلة. قلت: ورأيت غالبها وارتويت من عذبها. انتهى.

وتنقسم هذه الانهار السبعة منها (يزيد) و (ثورا) بذيل الجبل الشرقي. ويشق نهر (بردى) ببطن الوادي ونهر (بانياس) ونهر (القنوات) ونهر (القناية) ونهر (الداراني) بذيل الجبل الغربي.

وآخر ما يتصفى من هذه الانهار ويفضل منها هو نهر (بردى) وينزل في (المقسم) على نحو من عشرين درجة كالشادروان؛ فرؤيته تذهب الهم وتزيل الحزن.

وما ألطف قول القاضي صدر الدين بن الآدمي رحمه الله:

قالوا فؤادك بُرِّد عن محبتهم
فقلت نار الهوى لا تنطفي ابدا
بَرّدت قلبي عن الاحباب مذ رحلوا
بما (يزيد) على (ثورا) وما (بردا)

وقال صاحب دواوين الانشاء العلاء بن فضل الله:

انزل ببانياس ففي نهرها
سرّ به تجلى عروس السرور
واسمع حديث الماء في جريه
فانه يشفي عليل الصدور

وجمعها الشيخ شعبان الأثاري في قوله وأجاد:

شوقي (يزيد) وقلب الصب ما (بردا)
و (بان يأسي) من المعشوق حين غدا
ومدمعي (قنوات) والعذول حكى
(ثورا) يلوم الفتى في عشقه حسدا
على مغنية بالجنك جاوبها
شبّابةٌ كم بها من عاشق شهدا
فالبدر (جبهتها) والردف (ربوتها)
وخِلْها مات من خلخالها كمدا

ومن محاسن الامير ابن درياس قوله:

والنهر قد عشق الغصون ولم يزل
ابدا يمثل شخصها في قلبه
حتى اذا فطن النسيم فجاءها
من غيرة فأمالها عن قربه
وأتى عليه مهيمنا بعتابه
سرا فجعد وجهه من عتبه

ومن عقود ابن لؤلؤ الذهبي قوله:

ما فتح النُّور الا اشرف النُّور
فيها اشتغالك والمنثور منثور
يا حبذا ودروع الماء تنسخها
انامل الريح لولا انها زور

وقال ابن قرباص:

وتحدث الماء الزلال مع الحصى
فجرى النسيم عليه يسمع ما جرى
فكأن فوق الماء وشيا ظاهرا
وكأن تحت الماء درّا مضمرا

وقال:

أيا حسنها من رياض غدا
جنوني فنوناً بأفنانه
جشى الماء وفيها على رأسه
لتقبيل أقدام اغصانها

وقال القاسم بن علي في خيال الاغصان في الماء:

انظر الى الغدران كيف ترقرقت
فبدا بها شبح الغصون الميّس
معكوسة الاشكال تحسب أنها
قامت على الأيدي له والأرؤس

وأبدع منه قول المناذري:

وقانا لفحة الرمضاء واد
وقاه مضاعف النبت العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا
حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالاً
الذ من المدامة للنديم
يصد الشمس انَّى واجهتنا
فيحجبها ويأذن للنسيم
تروع حصاه حالية العذارى
فتلمس جانب العقد النظيم

وما احسن قول ابن المشد:

والروض بين تكبر وتواضع
شمخ القضيب به وخرّ الماء

ويعجبني قول ابن النبيه:

تبسم ثغر الزهر عن شنب القطر
ودبّ عذار الظل في وجنة النهر
فان رقَّ واعتلَّ النسيم صبابةً
اذا مر في تلك الرياض فعن عذر
توسوست الاغصان عند هبوبه
فما برئت الاّ على رقية القمري
يخادعني الورد الجني وانني
بوجنة من اهواه قد حرت في امري
ويبسم عن ثغر الاقاح بنفسج
فألثمه شوقا الى لَعَسِ الثغر

ومن محاسن ابن تميم قوله:

والنهر مذ علق الغصون محبة
اضحت تطيل صدوده وجفاه
فتراه يجري لاثما اقدامها
وخريره شكوى الذي يلقاه

ومن لطائفه قوله:

ونهر حالف الاهواء حتى
غدا طوعا لها في كل أمر
اذا سرقت حلى الاغصان القت
اليه بها فيأخذها ويجري

وقال ابن لؤلؤ رحمه الله تعالى:

وحديقة مطلولة باكرتها
والشمس ترشف ريق ازهار الربا

يتكسر الماء الزلال على الحصى
فاذا جرى بين الرياض تشعبا

وقال أيضاً:

والنهر كالمبرد يجلو الصدى
ببرده عن قلب ظمآنه

ومن نكته البديعة قوله:

ونهر يحب الدَّوح اصبح مغرما
يروح ويغدو هائما بوصالها
اذا بعدت عنه شكا بخريره
جفاها وامسى قانعا بخيالها

ومن اغراضه قوله:

ونهر اذا ما الشمس حان غروبها
عليه ولاحت في ملابسها الخضر
رأينا الذي أبقت به من شعاعها
كأنا أرقنا فيه كاسا من الخمر

ومن معانيه قوله:

وحديقة ينساب فيها جدول
طَرْفي برائق حسنه مدهوش
يبدو خيال غصونها في مائه
فكأنما هو معصم منقوش

ومن ملحه قوله:

يا حبذا النهر الذي أمواهه
تسبي العقول بحسن ما تبديه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هو في الحدائق غير أن عيوننا
ان لا حظته تر الحدائق فيه

وقال محيي الدين بن قرناص:

فديتك ائت روضتنا تجدها
تميل الى لقائك بالصدور
يعانقك القضيب بها سرورا
ويخفق فرحة قلب الغدير

ومن لطائفه قوله:

لما تبدى النهر عند عشية
والروض يخضع للصبا والشمأل
عاينته مثل الحسام، وطله
مثل الصدا، والريح مثل الصيقل

وقال ايضاً:

يا حسنه من جدول متدفق
يلهي برونق حسنه من ابصرا
ما زلت أنذره عيوننا حوله
خوفا عليه أن يصاب فيعثرا
فأبى وزاد تماديا في جريه
حتى هوى من شاهق فتكسرا

ابن قرناص الحموي:

سرق النسيم حلى الغصون بلطفه
لما أتاها وهي في اطرابها
ورمى بها نحو الغدير فضمها
من خوفه في صدره وجرى بها

وقال جالينوس: الماء الذي يجري في الأنهار، وتعلوه الأشجار؛ حار غليظ يعظم الطحال والكبد، ويقمح اللون ويفسد المعدة، ويولد الحميات. وكذلك ماء البئر لأنه يتحرك الى البروز حركة بطيئة ويطول تردده في الأرض العفنة. وجميع الماء العفن كماء الآجام والبطائح رديء؛ وارداً منه ماء البئر والقنا لانه لا يخلو من تعفن. وأرداً من الجميع الماء الذي يجري في مسالك من رصاص. واقوى الماء المعتدل البرودة فانه يقوي الشهوة والمعدة ويحسن اللون، ويمنع عفن الدم وصعود البخارات الى الدماغ، ويحفظ الصحة. ومن اعتاد شرب الماء المبرد في الهواء لم يحتج الى الثلج لأن مضرة الثلج تتبين بعد وقت فانها تتجمع قليلا قليلا واذا صار اصحابها الى سن الكهولة عرفوا شرها. على ان الماء المثلوج يمرىء، وينهض الشهوة، ويقوي المعدة؛ ويصلح الأمزجة الحارة، ويأمن الترهل إلا انه يضر الصدر والحنجرة والدماغ والأسنان والعصب. واصحاب الاحشاء الورمة تدفع مضرته بالرياضة والحميص. انتهى

حواكير دمشق ورياحينها

ومن محاسن الشام «الحواكير» وهي كالحدائق في سفح (جبل قاسيون) فان الفاصل بينه وبين (جبل الربوة) عقبة قرية (دمَّر) التي بحد (قبة سيار) يقال ان سياراً هذا وبشاراً كانا يتعبدان على رأس هذين الجبلين اللذين للربوة وكأنهما كانا من أصحاب الخطوة فاذا أراد احدهما الاجتماع بالآخر يضع قدمه على جانب الجبل والآخر عند صاحبه فكانهما كانا يمشيان في الهواء فبنوا لهما هاتين القبتين على هذين الجبلين.

رجع * وكان حكماء اليونان ازدرعوا هذه الرياحين والازهار في سفح (جبل قاسيون) لحكمة وهو أنه يقيها البرد كونها في داره، وان النسيم اذا مر بها يحمل منها [من طيب الريح] ما استطاع ويسري به الى من تحتها من أهل المدينة والسكان. ولهذا قال (ابقراط) ينبغي للمعتني بصالح بدنه ان لا يدع حظه من الاستمتاع بروائح الازهار والرياحين فانها تقوي الروح وتنعش الحرارة الغريزية التي بها قوام

الحياة، والعليل احوج اليها من الصحيح لانه قد عجز عن الأخذ من المطاعم والمشارب فهي تنوب عن فعلها في التقوية. انتهى

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ «من عرض بريحان فلا يرده، خفيف الحمل طيب الروح» يعني عليه السلام بالريحان كل ذي رائحة زكية من الازهار.

وقال ابن سينا: ينبغي للمرء ان لا يستعمل من المشمومات الا ما كان موافقا لمزاجه وطبعه فان كان مزاجه حارا يستعمل البارد وان كان باردا يستعمل الحار ويجعلها اصنافا مختلفة من حار وبارد فيعتدل لكل مزاج.

وينبغي ان لا يتناول المشموم الا غبّاً وعند توقان نفسه اليه فانه أشهى والذّ موقعا وكذلك جميع المحسوسات اذا احجم نفسه عنها ثم تناولها مشتهيا لها فانه يجد لذتها على الكمال. الا ترى العطارين تمل خياشيمهم من الروايح الطيبة وتكل فلا تجد لها رائحة وكذلك مدمنو الروائح القذرة المنتنة فان خياشيمهم تألف ذلك النتن حتى لا يكاد أحدهم يتأذى به. وينبغي ان لا يدني شيئا من المشمومات الى انفه فانه أشهى وابقى لزهرة الرياحين. انتهى

ورد دمشق

ومن محاسن الشام «الورد» وهو جنس تحته ستة أنواع بدمشق خلا الاسود، وهو بارد يابس قابض يقوي القلب والأسنان.

جيده «الجوري» يصلح للدماغ الحار والكبد، يسكّن الصداع ويضر أكله الباه وشرابه يبرد الدماغ؛ دفع مضرته خلطه بالكافور. واذا ربي بالعسل او بالسكر جلا ما في المعدة من البلغم؛ واذهب العفونات. وهذا يكون من الورد النصيبي؛ وماؤه بارد لطيف، والاكثار منه يبيض الشعر

ونقلت من (الفردوس) للامام الحافظ أبي شجاع شيرويه بسنده عن انس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «ان الله عز وجل خلق الورد من بهائه، وجعل

له ريح انبيائه؛ فمن أراد أن ينظر الى بهاء الله، ويشم رائحة انبيائه فلينظر الى الورد الاحمر ويشمه».

وكتب الشيخ جمال الدين محمد بن نباته ورقة: «سطرها المملوك ومنظر الروض قد شاق، ودمع الغيث قد رقا ووجه الارض قد راق، والغصون المتعطفة قد ارسلت أهواء القلوب بالاوراق، وحمائمها المترنمة قد جذبت القلوب بالاطواق. والورد قد احمر خده الوسيم، وفكت ازراره من أجياد القضب انامل النسيم، وخرجت اكفه من اكمامه تأخذ البيعة على الازهار بالتقديم. انتهى.

ومن محاسن الخوارزمي قوله:

أما ترى شجرات الورد مظهرة
لنا بدائع قد ركبن في قضب
كأنهن يواقيت أضيف بها
زبرجد وسطها شذر من ذهب

ومن لطائف محمد بن عبد الله بن طاهر قوله فيه:

اما ترى الورد يدعو للورودعلى
عذراء صافية في لونها صهب
ترى صداهن ياقوت مركبة
على الزمرد في أوساطها ذهب

ومن بديع ابن المعتز بالله قوله فيه:

ووردة في بنان معطار
حيّى بها في خفى اسرار
كأنها وجنة الحبيب وقد
نقطها عاشق بدينار

وأوضحه ابن خطيب داريا بقوله:

انظر الى الورد ما أحلى شمائله
سبحان خالقه من يابس الحطب
كأنه وجنة المحبوب نقطها
كف المحب بدينار من الذهب

صاغه اللغوي الاندلسي في انضمامه بعد الفتح فقال:

ورد تفتح ثم انضم منطقه
كما تجمعت الافواه للقبل

وما ألطف قوله القائل:

أهدىٰ إليّ معذبي ورداً ولم يك وقته
فسألته عنه فقا ل من الخدود قطفته
قبلته فكأنني في خده قبلته

أبو الوليد الشاطبي:

فوق خد الورد دمع
من عيون السحب يذرف
برداء الشمس أضحى
بعد ما سال يجفف

ومن التشابيه البديعة ما كتب اليّ بعض اللطفاء:

ودونك يا سيدي وردة
يذكرك المسكُ انفاسَها
كعذراء ابصرها مبصر
فغطت باكمامها راسها

وأنشدني فيه ذو الوزارتين صاحب الصناعتين أحمد الخلوف:

حكت شجرات الورد في الروض اذ غدا
يقبلها في خدها مبسم القطر
سقاة محل ابرزت في أكفها
كؤوس نضار قد ترصعن بالدر

ومن مقاصد أمير المؤمنين عبد الله بن المعتز بالله قوله:

وترى الغصون تميل في أوراقها
مثل الوصائف في صنوف حرير
والورد في خفر القموع كأنه
حمر الخدود بخضرة التعذير

واحسن القائل فيه:

الورد احسن منظراً تتمتع الألحاظ منه
فاذا انقضت أيامه ورد الخدود ينوب عنه

وقال ابن العفيف رحمه الله:

قامت حروب الزهر ما
بين لرياض السندسيه
وأتتْ باجمعها لتعـ
زو روضة الورد الجنيه
لكنها انكسرت لأنَّ
الورد شوكته قويه

نقلت من خط زين الدين عبد الرحمن الخراط في الورد على الماء:

عجبت وقد رأت عيناي ورداً
يسير بجدول عذب الشروع

فلم يـر نـاظـري ابـدا خـدوداً
جـرت مـن قبـلهـن مـع الـدمـوع

وما ألطف قول برهان الدين القيراطي:

ان لـلروح في دمـشـق لمـأوى
ذا قـرار وذا مـعـين وربـوة
وبـروضـاتهـا بـسـاتـين ورد
لي بـأزرارهـا صـبـابـة عـروه[٢٠]

وأبـدع الـشـريف الـرضي بقـولـه:

كـم وردة تحـكـي بـسـبـق الـورد
طـليـعـة تـسـرعـت مـن جـنـد
قـد ضمهـا في الغصـن قـرص البـرد
ضـم فـم لـقـبـلة مـن بُـعـد

دخل مجير الدين بن تميم الى حديقة هذه الوردة وجمعها:

سبقت اليـك من الحـدائق وردة
وأتـتـك قـبـل أوانها تـطفـيـلا
طـمعـت بلثمـك إذ رأتـك فجـمعـت
فـمهـا الـيـك كـطالب تـقـبـيـلا

ونقلت من خط ابن حجة له:

ارى الـورد عند الصبـح قد مـد لي فـما
يشـير الى التقبـيـل في سـاعـة اللمس
وبعـد زوال الصبـح يبـدو كـوجـنـة
وقـد أثـرت في وسـطهـا قبلة الشمس

ومن نكته البديعة قوله:

---

(٢٠) هو (عروة بن حزام)، الذي تضرب الأمثال ببكائه الديار.

قالوا لزهر الخلاف عرف
يضوع في ساعة القطاف
فضيع الورد قلت كلا
الورد أذكى بلا خلاف

وتلطف القائل:

كتب الورد الينا في قراطيس الخدود
يا بني اللهو صلوني قد دنا وقت ورودي

ونقل النواجي في كتابه (تأهيل الغريب) عن المتوكل أنه كان يقول «انا ملك السلاطين والورد ملك الرياحين فكل منا أحق وأولى بصاحبه» حتى حرمه على الناس واستبد به وقال «لا يصلح للعامة» فكان لا يرى الورد الا في مجلسه. ولهذا قال علي ابن الجهم في رثائه:

وبات اللهو وهو سخين عين
وصار الورد بعدك في انتهبا[٢١]

وكان لا يلبس في أيام الورد الا الثياب الموردة ويجلس على الفرش والاسانيد الموردة ويورد جمع الآلات وينشد قول جحظه.

عزيز عليّ بان يمسّك ساقط أو ان تراك نواظر البخلاء

ويقال أن كسرى مر بوردة ساقطة على الارض فقال «أضاع الله من اضاعك» ونزل وهو في موكبه ووضعها على رأسه.

قلت: وكل من تعرض الى وصف الورد وتشبيهه شغل عن علو رتبته وبديع حسنه، ولو سكتوا عن ذلك كان اليق بهم لانهم لم يتأدبوا معه مع علمهم بانه سلطان الرياحين. ومن هذا القول بعضهم:

للورد عندي محلٌ ورتبة لا تملُّ
كل الرياحين جند وهو الأمير الأجلّ

---

(٢١) لعله في «انتهاب».

ولعمري ان مثل هذا النظم السافل يمشي على كثير من الناس، وما احمرت وجنات الورد الا خجلا من نسبة هذا الشعر اليها بين الندماء والجلاس. انتهى كلامه.

ومن النكت اللطيفة ما يحكى عن الفضل قال: دخلتُ على الرشيد يوما وبين يديه طبق ورد عند جاريته ماردة ـ وكانت تحسن الشعر والادب مع الحسن والجمال ـ فقال يا فضل قل في هذا الورد شيئا، فانشدته بديهة:

كأنه خد محبوب يقبله
فم الحبيب وقد ابدى به خجلا

فقال الرشيد قم يا فضل فاخرج عنا فقد هيجتني هذه الماجنة، وقد ارخيت الستور عليهما.

ونقلت من خط المرحوم مجد الدين عبد الوهاب بن سحنون خطيب النيربين وطبيب بيمرستان الصالحية انشد في ضعف موته سنة اربع وتسعين وستمائة، وقد عاده بعض أصحابه، ومعه وردة بيضاء فقال:

وردا أبيضا قد زاد حسنا
فعند الضد للخجل احمرار
يمثله النديم اذا رآه
مداهن فضة فيها نضار

ونقلت من خط التقي ابن حجة قوله فيه:

كم وردة بيضاء قد حكت لنا مذ ازهرت
طلعة بدر كامل والشمس فيها كوّرت

وقد ولّده من قول السري الرفاء فيه:

بدا أبيض الورد الجنيّ كأنما
تنسمه الناشي بمسك وكافور
كان اصفراراً منه وسط ابيضاضه
برادة تبر في مداهن بلور

وقال سعيد بن حميد في الورد الاحمر والابيض معا :

يا حسنها من وردة　　بيضاء جاءت بالعجب

كجام بلور به　　قراضة من الذهب

وقال سعيد بن حميد فيه وما تقدمه ليس لسعيد بل للوأواء الدمشقي :

أتاك الورد محجوبا مصونا　　كمعشوق تكففه صدودُ

كأن عيونه لما توافت　　نجوم في مطالعها سعود

بياض في جوانبه احمرار　　كما احمرت من الخجل الخدود

ومن لطائف بلدينا ابن المعتز بالله قوله فيهما معا:

أهدت اليَّ يدٌ نفسي الفداء لها

الورد نوعين مجموعين في طبق

كأن أبيضه في وسط أحمره

كواكب أشرقت في حمرة الشفق

الشريف الرضي في وصف الورد الثالث وهو الاسود:

وورد أسود خلناه لما　　تضوع نشره ملك الزّمان

مداهن عنبر غض وفيها　　بقايا من سحيق الزعفران

وقال ابن عين بصل يصف الورد الأصفر:

شجرات ورد أصفر بعثت　　في قلب كل متيم طربا

يا من رأى قبلها شجرا　　وسقي اللجين فانبت الذهبا

ومن محاسن الطغرائي قوله فيه:

ألم تر أن جيش الورد وافي　　بخضر من مطارفه وصفر

أتى متلثما بالشوك أو في　　نصال زبرجد وتروس تبر

الرابع قال المطوعي في الورد القحابي الذي باطنه أحمر وظاهره أصفر:

ووردة جمعت لونين رائقة

خدي حبيب وخدي هائم عشقا

تعانقا فبدا واش فراعهما
فاحمرَّ ذا خجلا واصفر ذا فرقا
قحابي الورد في البستان يدعو
تبرجها الرجال الى الرحيق
لها نوعان ظاهرها كتبر
ولكن البواطن كالعقيق
تخال الجلَّنار على بهار
وتبريٌّ الرياض على شقيق

ابن المعتز:

وذي لونين نشر المسك فيه — يروق بحمرة فوق اصفرار
كمعشوقين ضمهما عناق — على حدثان عهد بالمزار

ومن لطائف أبي بكر الخالدي قوله فيه:

وردة بستان قحابية — زينت من الحسن بنوعين
باطنها من قشر ياقوتة — وظهرها من ذهب عين
قبلتها حبا لها اذ بها — حياني البدر على عين
كأنها خدي على خده — يوم اجتمعنا غدوة البين

والخامس الورد الجوري وفيه قال الشيخ عمر بن الوردي:

قالت اذا كنت ترجو — أنسي وتخشى نفوري
صف ورد خدي وإلا — أجور، ناديت جوري

والنوع السادس من الورد هو الأصفر المطبق

وقرية الزبداني هي قلعة الورد يستخرجون بها ماورد القاهرة المحروسة ومكة المشرفة وغيرهما من البلاد. وكذلك فاكهتها هي المنقولة الى القاهرة المحروسة وغيرها.

وفيه يقول نجم الدين صاحب ديوان الانشاء بحماه:

وورد أتينا النار تقبض روحه

ونبعثها نحو الحبيب تكرما

فلما رآها احمرّ واصفر قائلا

خذي نفسي يا ريح من جانب الحمى

وفيه يقول شهاب الدين بن الشبلي:

يا سيدي والذي خلائقه كالروض أيدي الصبا تدمثها

بعثت وردا اليك عسى تقبض لي روحه وتبعثها

وقال آخر:

لم أنس قول الورد حين جنيته

والنار لاستقطاره تتسعر

ناشدتكم نفسي خذوه وإنما

لا تعجلن بقبض روحي واصبروا

ومن رقيق شعر بلدينا محمد بن المزين الدمشقي قوله:

شاب ورد الرياض من ورد خديك وانفرك

فله الناس أثبتوا وانتفى الورد للكرك[22]

ومن محاسن الشام الورد النسريني وهو نوّار أبيض وأصله بري يمتد ويعرش كالكرم وله أغصان برؤوسها الورد كل غصن فيه مائة وردة وأكثر. قال ابن البيطار في مفرداته: وبعض الناس يسميه بالورد الصيني واكثر ما يوجد بالشام بعد انفراك الورد المتقدم.

وقال ابن سينا: الورد حار يابس في الثانية يقوي القلب اذا اديم اشتمامه، ويحلل الرياح الكائنة في الرأس والصدر ويخرجها بالعطاس، واذا تدلك به في الحمام مسحوقا بعد تنشيفه طيّب رائحة البشرة والعرق. انتهى.

---

(٢٢) الكرك بلدة في منطقة (شرقي الاردن) الان، وكان الحكام في القرون الوسطى قد اتخذوها منفى لمن يريدون ابعاده عن الشام أو مصر. وفي تلك المنطقة (الحميمة) التي كانت منفى ال العباس رضي الله عنه قبل قيام دولتهم.

وقال السامري : هو من خصوصيات الشام ، وبالديار المصرية نسرين ليس هو هذا ، انما هو ورد سياج بساتين الشام . وهو نوار ابيض شديد العرق يجمعونه بمصر ويبيعونه ولا يجمع في الشام ولا يباع لكثرته . وهو يطلع في الغالب من عندالله تعالى بدمشق وخروجه بالشام مع النسرين. انتهى.

ونقلت من خط الشيخ شمس الدين الدماميني :

أقول لصاحبي والروض زاهٍ
وقد ابدى الربيع بساط زهر
تعال نباكر الروض المفدّى
وقم نسعى الى ورد ونسري

ومن رقيق شعر ذي الوزارتين :

ابان لك النسرين أو خلت أنه
أكف سقاة حملت اكؤسا صفرا
مداهن عاج حشوها التبر اذ علت
رؤوس زنوج البست حللا خضرا

نرجس دمشق

ومن محاسن الشام النرجس وهو جنس تحته أنواع: الاول اليعفوري ، الثاني البري ، الثالث المضعف . قال ابن البيطار: في الرابعة ، وهو نبات له ورق مجوف وليس عليه ورق . طولها اكثر من شبر وعليها زهر ابيض مستدير ، في وسطه شيء لونه اصفر ومنه ما لونه اسود وثمرته سوداء كأنها في غشاء مستطيل . وهو طيب الرائحة واذا أكل أصل النرجس مسلوقا أو شرب هيج القيء فاذا شم زهره نفع من وجع الرأس ويفتح سدد الدماغ . وشمه ينفع الزكام الباردة ، وفيه تحليل قوى الرطوبات ويخفف ويلطف ويحلو.

وقال جالينوس: ان النرجس راعي الدماغ والدماغ راعي القلب .

وقال ابقراط: كل شيء يغذو الجسم والنرجس يغذو العقل.

والنرجس المحدق وهو البري اذا شق بصله وغرس صار مضعفا. ومن أدمن شم النرجس في الشتاء أمن البرسام في الصيف. وهو معتدل في الحرارة واليبس.

وفي (اسنى المطالب في مناقب علي بن ابي طالب رضي الله عنه) للحافظ شمس الدين ابي عبدالله محمد بن الجزري الشافعي رحمه الله تعالى حديث مسلسل بالقضاة الى القاضي شريح قال حدّثنا اقضى قضاة الأمة اميـر المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «شموا النرجس ولو في اليوم مرة ولو في الجمعة مرة ولو في الشهر مرة ولو في السنة مرة ولو في الدهر مرة فإن في القلب حبة من الجنون والجذام والبرص لا يقطعها إلّا شم النرجس» ورواه أيضا صاحب (الفردوس) مسلسلا بالقضاة الى اقضى الامة امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه ولقظه «شموا النرجس فانه ما منكم احد الا وله شعبة بين الصدر والفؤاد من الجنون والجذام والبرص لا يقطعها الا شم النرجس».

وقال ابن سينا: من كان له رغيفان فليجعل احدهما في ثمن النرجس، لان الخبز غذاء الابدان والنرجس غذاء الارواح».

وكان كسرى يقول: اني لاستحي ان اغازل من احب بمجلس فيه النرجس. أخذه بعضهم وقال:

غضي لحـاظـك يـا عـيـون النـرجس
فـعـسى افـوز بنـظرة من مـؤنـسـي
فـلقـد يحـير اذا رآك شـواخـصـا
تـرمـيـنـه بـلواحظ المـتـفـرس

ومن لطائف امير المؤمنين ابن المعتز قوله في النرجس :

عـيـون اذا عـايـنـتـهـا فـكـأنما
دمـوع النـدا من فـوق اجـفـانها در

محـاجـرهـا بـيض واحـداقهـا صـفـر
واجسـادهـا خضـر وانـفـاسهـا عـطر

مجير الدين بن تميم:

ولمـا أتى النـرجس المجتنى بقـرب الـربيـع وإينـاسـه
نثـرنـا عـلى رأسـه فضـة وتـبـرا فـراق لجـلاسـه
وأصبـح يخـطر مـا بيننـا وذاك الـنثـار عـلى رأسـه

ومن تشابيه ابن قلاقس قوله:

وشـادن اهـيـف حـيـا بـنـرجسـة
كـأنها اذ بـدت في غـايـة الـعـجـب
كف من الفضـة البيضـاء سـاعـدهـا
زبـرجـد حملت كـأسـا من الـذهـب

ومن مقاصد ابن وكيع قوله:

مـا نـظرت عينـاي في روضـة احسن من نـرجسة غضـه
كـزعـفـران وسط كـافـورة أو ذهـب أفـرغ في فضـه

ومن مقاصد عبدالله بن المعتز قوله:

نـرجسـة لاحـظني طرفهـا تلوح في بحـر دجى مـظلم
كـأنمـا صفـرتـه في الـدجى صفـرة دينـار عـلى درهم

ومن اغراضه قوله:

كـأنمـا جـفنـه بـالـغنـج منـفـتحـا
كـأس من التبـر في منـديـل كـافـور

ومن مداعبات أمين الدين جوبان قوله:

نـفش غـصـن الـبـان اذنـابـه
ومـاس عـنـد الـصبـح زهـوا وفـاح
وقـال هـل في الـروض مـثـلي وقـد
تـعـزى الى مـثـلي قـدود الـرمـاح

فحدّق النرجس يزهو به
وقال حقاً قلتَ ذا او مزاح
بل أنت بالطول تحامقت يا
مقصوف عمر بالدعاوي القباح
فقال غصن البان من تيهه
ما هذه الا عيون وقاح

ومن مداعبات ابن تميم قوله:

ولما اتى النرجس المجتنى
بشير الربيع بقرب المزار
نثرنا على رأسه فضة
ولم يخل في بعضها من نضار
فاصبح يخطر ما بيننا
وفي رأسه بعض ذاك النثار

ومن تضامينه قوله:

غدير دار نرجسه عليه
ورق نسيمه فصفا وراقا
تراه اذا حللت به لورد
«كأن عليه من حدق نطاقا»

ومن تضمين ابن حجة قوله:

الى الحمى نسمات الصبح مذ بعثت
ندى به ذيل ثوب الزهر مبلول
قالت نراجسه مذ حدقت ورنت
«مهما بعثتم على العينين محمول»

ابن الرومي واستحيى من هجوه للنرجس(٢٣)

انظر الى نرجس تبدَّت
صبحاً لعينيك منه طاقه

واكتب اسامي مشبهيه
بالعين في دفتر الحماقه

واي حسن لطرف شاك
من يرقان يحمل ماقه

كراثة ركبت عليها
صفرة بيض على رقاقه

وفي تصحيفه قول الميكالي:

اهلا بنرجس روض يزهو بحسن وطيبِ
يرنو بعيني غزال على قضيب رطيب
وفيه معنى خفي يزينه في القلوب
تصحيفه ان نسقت ال حروف بره حبيب

وقال ايدمر المحبوي وابدع:

وكأن نرجسه المضاعف خائض
في الماء لف ثيابه في رأسه

ومن غرائب ابي عبدالله الحداد الاندلسي قوله:

انظر الى النرجس الوضاح حين بدا
كأنه ناظر عن جفن مبهوت

كاذرع الغيد في خضر البرود حكت
على أناملها أصفى اليواقيت

ومن دقائق ابن وكيع قوله رحمه الله:

---

(٢٣) هذه الأبيات ليست لابن الرومي الذي اشتهر بمدح النرجس وذم الورد، بل هي لأبي العلاء السروري، وقد اوردها النواجبي في (حلبة الكميت). ص٢٠٣.

اشرب فلست على صحو بمعذور
واطرب على صوت نايات وطنبور
اما ترى النرجس الريان يلحظنا
كأن اجفانه اجفان مخمور
كأن اصفره في وسط ابيضه
قراضة أودعت احشاء بلور
اما تراه ومرُّ الريح يعطفه
كأنه زعفران وسط كافور
اذا بدا في اختلاف من تلونه
اراك كيف امتزاج النار بالنور

ومن تشابيه أمير المؤمنين المأمون قوله:

وياقوتة صفراء في رأس درة
مركبة في قائم من زبرجد
كأن جمان الطل في جنباتها
بقية دمع فوق خد مورَّد

ومن جيد السبك قول ظافر الحداد الاسكندري:

كأنما النرجس لما بدا
لناظر في ساحة (المأزمين)
زبرجد قد جعلوا فوقه
اقداح تبر في صواني لجين

وقال أيضا رحمه الله:

كأنما النرجس الطافي حين بدا
قعاب تبر على جامات بلور

كـأن أوراقـه والـشمس تـقـصـرهـا
أوراق شمـع فمن خـام ومقـصـور[٢٤]

ومن بديع ابن تميم قوله فيه:

شـبـهـت نـرجـسـة أهـدى اليَّ بهـا
خـلي وقـد جئت في التشبيـه بـالعجب
كفـا من الفضـة البيضـاء سـاعـدهـا
زمـرّد وسـطه كـأس مـن الـذهـب

ومن محاسنه قوله فيه:

كـيف الـسـبـيـل لأن أقـبـل خـدّ مـن
أهـوى اذا نـامـت عـيـون الحـرس
واصـابـع المـنـثـور تـومـيء نـحـونـا
حـسـدا وتغـمـزهـا عيـون الـنـرجس

ومن لطائفة قوله فيه:

لا تمش في أرض وفـيـهـا نـرجس
او أقـحـوان غـب كـل مـقـام
ان الـلواحظ والـثـغـور أجـلهـا
عـن وطئـهـا في الـروض بـالاقـدام

ومن نكته البديعة قوله:

اني لأشـهـد لـلحـمـى بـفـضـيـلة
من أجلهـا قـد صـرت من عشـاقـه
مـا زاره أيـام نـرجـسـه فـتى
الا واجـلسـه عـلى أحـداقـه

---

(٢٤) الخام قماش ابيض ويكون مقصوراً اذا غسله القصار ودقه.

ومن أغراض الشبلي قوله:

ونرجس قابل في مجلس
وردا غلا في نعته الناعت
فخدُّ ذا يخجل من لحظ ذا
وطرف ذا في خد ذا باهت

ومن تضامين ابن حجة قوله:

حدائق الروضة الغناء نرجسها
عيونه بدموع الطل مذ رمقت
همنا الى رشف ثغر الكاس من فرح
«فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت»

وألطف ما سمعت، قول القائل:

يغض من فرط الحيا طرفه
ما أحسن الغض من النرجس

ومن عقود ابن لؤلؤ قوله:

باكر الى الروضة تستجلها فثغرها الاشنب بسام
وبلبل الدوح فصيحا غدا في الأيك والشحرور تمتام
والغصن فيه الف قد بدا والنهر في أرجائها لام
والنرجس الغض اعتراه الحيا فغض طرفا فيه أسقام

ويعجبني قول ابن مكانس:

وجدول الماء يجري بين نرجسه
لدى البصائر جري الطيف في المقل

ومن المعاني التي اقتنصها ابن قرناص قوله:

من لي بروضة نرجس فاقت على
انواع أزهار الربيع المبهج

كـقــواعــد مــن فــضــة قــد ذهـبــت
تــعـلو عــلى عــمــد مـن الــفـيــروزج

وقال علي بن سعيد صاحب (المرقص) في تفضيل الورد عليه:

مــن فــضـــل الــنــرجس وهــو الــذي
يــرضــى بــحــكــم الــورد اذ يــرأس
امــا تــرى الــورد غــدا قــاعــداً
وقــام في خــدمــتــه الــنــرجس

بنفسج دمشق

ومن محاسن الشام البنفسج وهو العراقي وقلبجي وأبيض. وهذا النبات له ورق قابل التدوير له ساق يخرج من اصله عليه زغب أصفر وعلى طرف ساقه زهر طيب الرائحة جداً ولونه لون الفيروز ينبت في المواضع الظليلة الحسنة.

وهو بارد رطب ينفع الدماغ الحار ويسكن صداعه واذا ربي مع السكر ينفع من السعال الكائن من حرارة.

وقال جالينوس: في السادسة ورق هذا النبات جوْهَرُه جوهر ماء بارد قليلا ولذلك صار متى صنع ورقه كالضماد إما مفردا وإما مع دقيق الشعير سكن الاورام الحارة وقد يوضع على العين اذا كان فيها لهيب وينفع من التهاب المعدة والاورام الحارة وفتق المعدة ويقال ان زهره اذا تشرب بالماء نفع من الخناق العارض للصبيان وهو المسمى «ام الصبيان» وينوم نوما معتدلا ويسكن الصداع العارض من المرة الصفراء والدم. والبنفسج الناشف يسهل المرة الصفراء المحتبسة في المعدة والامعاء أيضا. والشربة منه ثلاثة دراهم الى سبعة دراهم مدقوقا منخولا مع مثله بالسكر ويشرب بالماء الحار والله اعلم. انتهى.

ومن لطائف ابن تميم:

عـايـنـت ورد الـروض يـلطم خـده

ويـقـول وهـو عـلى البنفسـج محنق

لا تـقـربـوه وان تـضـوّع نـشـره

مـا بـينـكـم فـهـو الـعـدو الازرق

ومن عقود ابن لؤلؤ الذهبي قوله:

ان البـنفسـج تـرتـاح الـنفـوس لـه

ويعجـز الـوصف عن تحـديـد معجبـه

اوراقـه شـعـل الكبـريت مـنـظرهـا

وريحـه عـنبـر تحـيـا الـنـفـوس بـه

والاصل فيه قول عبد الله بن المعتز:

بـنـفسـج جمـعـت اوراقـه فـحـكـت

كـحـلا تشـرب دمـعـا يـوم تشـتيـت

كـأنـه فـوق قـامـات يـلوح بهـا

اوائـل الـنـار في اطـراف كـبـريـت

قال النواجي في كتابه (تأهيل العريب) رأيت لبعض صيارفة الادب على هذا التشبيه نقدا حسنا فانه قال «ان كانت النار في اوائل الكبريت قد وافقته في اللون فقد خالفته في الرائحة، وشرط المشبه ان يكون اعلى رتبة في التشبيه، والبنفسج يجل علو قدره عن ذلك، فانه من اهل الجنة والكبريت من اهل النار.

وقد زاحمه عليه ابو العلاء عطاء بن يعقوب في رسالته فقال «وحديقة سماوية اللباس، مسكية الانفاس، كبقايا النقش في بنان الكاعب، أو النقش في اصابع الكاتب. لازوردية فاقت بزرقتهااليواقيت، كأوائل النار في اطراف الكبريت»

قال وقد قل من وفاه حقه من المتأدبين حسنا، واتى في تشبيهه بما يلائمه صورة ومعنى. وقلت:

ويـاسـمـين قـد بـدت ازهـاره لمـن يـصـف

كـمـثـل ثـوب اخـضـر عـليـه قـطن قـد نـدف

خليلّي هبا ينقض عنكما الهوى
وقوما الى روض وكأس رحيق
فقد لاح زهر الياسمين منورا
كاقراط در قمعت بعقيق

لدينا العلاء بن ايبك الدمشقي في الياسمين الاصفر قوله:

كأنما الياسمين حين بدا اصفره في جوانب الكثب
عساكر الروم نازلت بلدا وكل صلبانها من الذهب

وقال الزحاري:

ولفاء خلناها سماء زبرجد
لها انجم زهر من الزهر الغض
تناولها الجاني من الارض قاعدا
ولم ار من يجني السماء من الارض

ونقلت من خط ابن حجة قوله فيه:

الياسمين يقول مذ ولىّ الشتا
ومضى الربيع بأعين ومباسم
دين المصيف عليّ آن أوانهُ
وقد استحق اليوم قبض دراهمي

منثور دمشق

ومن محاسن الشام المنثور. وهو أصفر وأبيض وبنفسجي وازرق. والازرق فيه حراقة، وطعمه يشبه طعم الفجل يدشيء ويهضم. انتهى.

ومن لطائف الامير مجير الدين محمد بن تميم قوله:

ومذ قلت للمنثور اني مفضل
على حسنك الورد الجليل عن الشبه

تـلون مـن قـولي وزاد اصـفـراره
وفـتـح كـفـيـه ومـال الى وجـهـي

ومن محاسنه قوله فيه:

انعم على المنشـورمنك بـزورة فلقـد أراه والسقام حليفـه

مـا اصفـرّ الا حين غبـت ولم يـزل
يـدعـو بـان يـأتي الـيـك كـفـوفـه

ومن مقاصده قوله:

من قـال ان الـورد كـالمنشور في عظم المكانـة جد فيـه تعنيفه
مـا احمرَّ وجـه الورد الا اذ غـدا المنشور يلطم خده بكفـوفـه

ومن اغراضه قوله فيه:

يشـير بتوبـة الندمـاء جهـلا وللمنشـور عنـدهم نصـيب
وكيف وقد عقدنـا كل كف بكف منـه انـا لا نتـوب

ومن محاسنه قوله فيه:

مـولاي لـلمـنـشـور حـق وهـو أن
تـلقـاه اذ يلقـى بكـأس رحـيـقـه
اكـرمـه أو فـاعـلم بـان كـفـوفـه
تـدعـو عـلى من لم يـقـم بحـقـوقـه

ونقلت من خط الشيخ بدر الدين الدماميني فيه:

لله مـنـشـور بـروضـك نـشـره
يـطوي عـبـير المسـك والـكـافـور
قـطر الـنـدى فيـه جـواهـر نـظمـت
يـا حـبـذا المـنـظوم في المـنـشـور

ونقلت من خط القاضي زين الدين عبد الرحمن بن الخراط فيه:

دع المنثور شمسُ الور د غشت نوره نورا

ألم تره اذا يبدو هباء فيه منثورا

وقال عرقلة في المنثور الاحمر واجاد:

انظر الى المنثور ما بيننا

وقد كساه الطل قمصانا

كأنما صاغته أيدي الحيا

من أحمر الياقوت صلبانا

ومن نكته البديعة قوله فيه:

حاذر أصابع من ظلمت فانها

تدعو بقلب في الدجى مكسور

فالورد ما ألقاه في حجر القضا

الا دعاء اصابع المنثور

ومن لطائفة قوله فيه:

مذ لاحظ المنثور طرف النرجس الـ

مزوَرٌ قال وقوله لا يدفع

فتح عيونك في سواي فانما

عندي قبالة كل عين اصبع

ومن محاسنه قوله فيه:

لما ادّعى المنثور ان الورد لا

يأتي وان يصلى بنار سعير

ودّت ثغور الاقحوان لو انها

كانت تعض اصابع المنثور

ونقلت من خط التقوى ابن حجة قوله فيه رحمه الله:

رأيـت مـع المنـشـور بـعض وقـاحـة
ولم ادر مـا بـين الـغـديـر وبـيـنـه
تـلوّن مـنـه ثـم مـدّ أصـابـعـا
الى وجـهـه عـمـدا وخـضّـر عـيـنـه

ومن بدائعه قوله فيه:

صـافـح مـنـشـور الـربـا وردة
فـلامـه الـقـمـري في الأيـكـه
قـالـت ورود الـروض في غـيـضـة
هـل جـاز في اصـبـعـه شـوكـه

ويعجبني قول الحاجبي وابدع:

ولـقـد نثـرت مـدامـعي ودمي مـعـا
يـوم الـوداع وخـاطـري مـكـسـور
لا تـعـجـبـوا لـتـلوّن مـن ادمـعـي
لا بـدع ان يـتـلوّن المـنـشـور

صاعد اللغوي قوله فيه وابدع:

قـد اقبـل المنشور ياسيـدي   كـالدر والياقوت في نـظمـه
ثنـاك لا زال كـأنفـاسـه   ورأس من عاداك مثل اسمه

سوسن دمشق

ومن محاسن الشام السوسن، وهو ابيض واصفر وازرق.

قال العلامة ابن الجوزي في كتابه (لقط المنافع) هو ضرب من الرياحين وجيده الاسما نجوني الطري، حار يابس، يلين قصبة الرئة وينقيها، وينفع الحلق ووجع الطحال، ويصفي الصوت وينفع التهاب المعدة وحرقة البول وقروح الكلى والمثانة،

ويزيد في المني، ويقوي الذكر، وينفع جميع علل السودا والبلغم. والشربة منه ثلاثة دراهم.

وقال ابن سينا: في الرابعة ومن الناس من سماه اسيرس ومنهم من سماه ايرس[٢٥] اخربا وأهل رومية يسمونه غلاديون وهو نبات له ورق شبيه بالخناجر في عرضها محدد الطرف، وله ساق خارج من وسط الورق وطوله ذراع. غليظ جدا عليه غلف ذات ثلاث زوايا وعلى الغلف زهر لونه الى الفرقين ولون وسط الزهر احمر قان وله ثمر في غلف شبيه في شكله بالقثاء والثمر مستدير اسود وحريف وله أصل كثير العقد طويل احمر. يصلح للخراجات العارضة في الرأس والكسر العارض بقحف الرأس. واذا تضمد به مع الخل ابرأ الاورام البلغمية والاورام الحارة وقد شرب بالشراب الحلو المعمول بماء البحر للشدخ وعرق النساء وتقطير البول والاسهال واذا شرب بالخل حلل ورم الطحال.

ومنه البري وفيه يقول ابن المعتز بالله في الابيض:

والسوسن الابيض منثور الحلل
كقطن قد مسه بعض البلل

وقال ابن تميم وابدع:

وكأن سوسنة بدت في روضها
بيضاء ضاعف نشرها وقع الندا
نوّارة برد النسيم وهب في
وقت الصباح بثوبها فتجردا

ومن التشبيه المقلوب قوله فيه:

يا حسن نوفرة بدت في بركة
ابدا يفيض الماء فيها ديدنا

(٢٥) يسمى زهر السوسن Iris بالافرنسية والانكليزية

مـــا ان بـــدت الا وظـــلتُ مـــفـــكـــرا
في نـــوفـــر وراح يـــنـــبـــت ســـوســـنـــا

ومن محاسن القاضي الفاضل قوله فيه:

وأبيض السوسن في رياضـه يسبي قلوب الزهر بـالتجرد
يـــظل مســرورا بـــه كـأنـــه اقـداح بلور عـلى زبـــرجـد

وقال ابن تميم فيه وكأنه تلميح الى معنى ابن المعتز:

يا حسنها من روضة ازهارها ابدت لعيني لؤلؤا وزبرجدا
والسوسن المبيض في ارجائها كـالقطن بلله النـدى فتلبدا

وقال ابن المطرزي في السوسن الاصفر:

يـــا رب ســـوســـنـــة قـبّـلتـهـا كـــلفـــاً
ومـــالهـا غـــير نشـر المســـك في الســـوق
مـصـفـــرّة الـــوسط مـبيضّ جـــوانـبـهـــا
كـــأنها عـــاشـــق في حـــجـــر مـــعـشـــوق

وقال ابن المعتز في السوسن المشرب بالحمرة:

سـقـيـــا لأرض اذا مـــا نـبـهـت بـنهـــى
عـــلى الـهـــدوّ بهـــا قـــرع الـــنـــواقـــيس
كـــأن ســـوســـنهـــا في كـــل شـــارفـــة
عـــلى المـــيـــاديـــن اذنـــاب الـــطواويس

وقال ابن حجة فيه مضمنا:

بـــدا ســوسن الـــروض المـــدبـــج ازرقـــا
وأصـــفـــر يـعـلو طـــولـــه فـــوق مـبـيض
كـــأن الـــربـــا ارخـــت ذيـــول غـــلائـــل
مـصبـغـــة والبـعـض اقـصـــر مـــن بـعض

زنبق دمشق

ومن محاسن الشام الزنبق وهو من خصوصياتها. وهو قضبان خضر دون الذراعين عليها ورق عرض ورق الطرخون واطول منه وفي رأسه زهر ابيض شبيه قبل تفتحه بالمكاحل فاذا انفتح تلفيه مسدسا وبوسطه شيء كالابر في رفعها واطول منها وعلى رؤوسها نقط صفر تصبغ كالزعفران، عطر الرائحة شديد العرف وله دهن حار.

شعر

قد نشر الزنبق اعلامه ... وقال كل الزهر في خدمتي
لو لم اكن في الزهر سلطانها ... ما رفعت من دونها رايتي
فقهقه الورد به هازئاً ... وقال ما تحرز من سطوتي
وقال للازهار ماذا الذي ... يقول ذا الاشيب في حضرتي
فانفتح الزنبق من قوله ... وقال للازهار يا عصبتي
يكون هذا الجيش بي محدقا ... ويضحك الورد على شيبتي

معين الدين عصرون قوله فيه:

وزهراء هيفاء القوام رشيقة ... منعمة شقت عليها الغلائل
كأن اعاليها قناديل فضة ... وقد اوقدت منهن تلك الفتائل

المنقول من خط ابن حجة الحموي قوله فيه رحمه الله:

اصابع المنثور لما مدها ... لقرص خد الورد من بعد القبل
هزّ له الزنبق رمحا عالياً ... فالراية البيضا عليه لم تزل

بهار دمشق

ومن محاسن الشام البهار. قال ابن البيطار وهو الاقحوان الاصفر عند بعض الناس في الثالثة وهو نبات له ساق رخصة وورق شبيه بورق الرازبانج وزهره أكبر من زهر البابونج أصفر اللون اسود الوسط شبيه بالعيون ولهذا يسميه بعض المغاربة بعين

البقرة وينبت في الدمن وله حدة وحراقة وتحليل ويشفي من الاورام الصلبة اذا خلط بشمع مذاب ودهن.

وقال التميمي في كتابه (المرشد) ومنه نوع صغير الشكل جدا يسمى في الشام «عين الحجل» اذا جمع نوّاره وجففف وسحق وجعل في بعض أكحال العين جلا ظلمة البصر العارضة له وجلا البياض الكائن من الماء المنصب اليها المفسد لحسن البصر وأحدّ نورها

وفيه يقول ابن اسرافيل

حكاني بهار الروض حين ألفته
وكل مشوق للمشوق يصاحب
فقلت له ما بال لونك أصفرا
فقال لأني حين أعكس راهب

اقحوان دمشق

ويضارعه الاقاح:

ولو كنتَ حيث الروض قد مده الثرى
بسلطان امواه الجداول معلما
ومن فوقه زهر الاقاح منوّرا
رأيت السما كالارض والارض كالسما

ومنه الاقحوان:

وقد لاح زهر الاقحوان كأنه
يميس به خضر ارق من العضب
رؤوس مسامير من التبر رصّعت
دوائرها الصوّاغ باللؤلؤ الرطب

ظافر الحداد قوله فيه:

والاقحوانة تحكي ثغر غانية
تبسمت فيه من عجب ومن عجب
في القد والبرد والريق الشهي وطيـ
ـب الريح واللون والتغنيج والشنب
كشمسة من لجين في زبرجدة
قد أشرقت تحت مسمار من الذهب

ومن مرقص ابن حمديس الصقلي قوله فيه:

من قبل أن ترشف شمس الضحى
ريق الغوادي من ثغور الاقاح
باكر الى اللذات واركب لها
سوابق اللهو ذوات المراح

ومن لطائف الخالدي قوله فيه:

يا رب ربع مقفر موحش
خال نزلناه قبيل العشي
كأنما نور الاقاحي به
ثغر فم عض على مشمش

ومن محاسن ابن عباد الاسكندري:

والاقحوانة تجلو وهي ضاحكة
عن واضح غير ذي ظلم ولا شنب
كأنها شمسة من فضة حرست
خوف الوقوع بمسمار من الذهب

أذريون دمشق

ومن محاسن الشام الأذريون. هو صنف من الاقحوان ومنه ما نوّاره اصفر ومنه ما

نواره احمر فالاصفر ذهبي وفي وسطه رأس صغير اسود.

وقال الغافقي هو نبات يدور مع الشمس، وينضم نوّاره بالليل. وزعم قوم ان المرأة الحامل اذا امسكته بيديها مطبقة احداهما على الاخرى نال الجنين ضرر عظيم شديد وان أدامت امساكه واشتمامه اسقطت.

وقال صاحب (الفلاحة) ان دخانه يهرب منه الفأر والوزغ وهو نبات حار رديء الكيفية، اذا شرب من مائه اربعة دراهم قيأ بقوة وان جعل زهره في موضع هرب منه الذباب وان دق وضمد به أسفل الظهر أنعظ انعاظا موسطا.

وقال هرمس: الأذريون حار في الثالثة يابس فيها، ويقال المرأة العاقر اذا احتملته حبلت. انتهى.

وما ابلغ قول ابن المعتز فيه:

وأذَرِيْون شبهه ... والشمس فيه كاليه
مداهن من ذهب ... فيها بقايا غاليه

وما احسن قول الصنوبري فيه:

كأن أذْرَيونها ... من فوق تلك القصب
خيام مسك فوقها ... سرادق من ذهب

وقال ابن حجة فيه:

كأن اذريونها ... ونوره قد ابهجا
وميض برق لامع ... في جنح ليل قد دجا

وقال ابن تميم:

وكأن اذريونها في روضة
سرج تضيء على صفا انهارها
والسرج تخفيها الشموس وهذه
سرج تزيد الشمس في انوارها

بابونج دمشق

ويلحق به البابونج. قال ابن الجوزي في (لقط المنافع) افضله ما كان أصفر طريا طيب الرائحة، وهو حار يابس يحلل الاخلاط الرديئة ويقوي الاعصاب وينفع الصداع والوسواس واليرقان. واذا جلست المرأة في مائه المطبوخ أدرّ الطمث وأخرج الأجنة ويدر البول ويفتت الحصى الذي في الكلى والشربة منه ثمانية دراهم.

وكذلك زهر الكركيش قال الشاعر:

انـظر الى الـكـركـيش وهـو محـدق
كـالـتـبـر محـتـاط عـليـه يـدار
فـكـأنـه فـم شـادن مـتـبـسـم
مـن فـوق رأس لـسـانـه ديـنـار

آس دمشق

ومن محاسن الشام الآس. قال ابو حنيفة خواصه عظيمة وخضرته دائمة وله زهرة بيضاء طيبة الرائحة وثمرته سوداء ومنها ما هو أبيض كاللؤلؤ بين ورق كالزبرجد يباع مجموعا بالرطل وباغصانه من غير ميزان ويحلو اذا اينع وعصارة ثمره رطبة تفعل فعل الثمرة وهي جيدة للمعدة مدرة للبول موافقة اذا خلطت بشراب لمن عضته الرتيلاء وللسع العقرب وطبخ الثمر يصبغ الشعر.

وقال (ديسقوروس): الآس اذا دق ورقه وسحق وصب عليه ماء وخلط به شيء يسير من دهن ورد وتضمد به وافق القروح الرطبة والمواضع التي يسيل اليها الفضول والاسهال المزمن والنملة والجمرة والاورام الحارة العارضة للانثيين والثدي والبواسير واذا دق يابسا ودر على الداحس نفع منه وقد يجعل في الآباط وهو بارد يابس.

وقال جالينوس: في السابعة هذا النبات من قوى متضادة والأكثر فيها الجوهر الارضي وفيها مع هذا شيء حار لطيف فهو لهذا يجفف تجفيفا قويا وورقه وقضبانه

وثمرته وعصارته ليس بينها في القبض كثير خلاف لكنه يولد السهر، ورفع مضرته بالبنفسج الطري ويصلح الامزجة الباردة والله اعلم.

وما احسن قول ابن طباطبا فيه:

الآس فرد بديع في محاسنه — ما مثله في معانيه بموجود
يبدو باغصانه خضراء تلبسه — كألسن الطير تشوى بالسفافيد

وانشدني فيه شيخنا المرحوم العلامة برهان الدين الباعوني الشافعي:

وروضة بانها يهتز من طرب
شبيه مرتشف من خمرة الكاس
يثني النسيم على الآس النضير بها
فهو العليل الذي يثني على الآسي

قال بعض المفسرين في قوله تعالى «روح وريحان» انه الآس. وهو باليونانية المرسين.

عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال اهبط آدم من الجنة بثلاثة اشياء الآسة وهي سيدة الرياحين الجنية.

وتلطف سليمان بن محمد الطرابلسي بقوله:

احبب بقضبان آس — في سائر الدهر توجد
كأنها حين تبدو — سلاسل من زبرجد

وقال ابن حجة: تتبعت ما قيل في وصف الآس فلم اقف على ما أرضاني الا قول القائل رحمه الله واجاد:

خليلي ما للآس يعبق نشره
اذا شم أنفاس الرياح الهوا
حكى لونه اصداغ ريم معذر
وصوّرته الآذان قبل النوا

وقال:

عــوارض الآس ابــدت في مــوشــحهــا
نــظمًا بــاغــصــانــه للنبـت خــرجــات
وقــد حــلا لي بــأوراق مــلوّزة
ولـــلمــلوّز في الــدنــيــا حــلاوات

ونقل الحافظ أبو القاسم خلف بن عبد الملك بسنده عن الحسن رضي الله عنه قال حياني رسول الله ﷺ بكلتا يديه بورد فلما أدنيته من أنفي قال ﷺ «انه سيد رياحين الجنة بعد الآس». انتهى.

ويلحق به الريحان وهو جنس تحته انواع ترنجي وحماحمي وطترى وطراطر وحمام. ونقل الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة في كتابه (سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون) عند ذكر كسرى انو شروان انه كان جالسا واذا بحية قد دنت من عش حمامة في بعض شرف الايوان لتأكل فراخها فرمى الحية بسهم قتلها وقال «هكذا نفعل بعدوّ من استجار بنا» فلما كان بعد ايام جاءت الحمامة بحب في منقادها فالقته اليه فأخذه وقال «ازرعوه» فنبت ريحانا لم يكن رآه ولا عرفه فقال «نعم ما كافأتنا الحمامة. نسأل الله تعالى الذي الهمها ان يلهمنا الاحسان الى رعيته والشكر على نعمته». انتهى.

قال ابن وكيع في الريحان الترنجي:

لم ادر مــن قــبــل ريحــان مــررت بــه
ان الــزمــرد اغــصــان واوراق
مــن طــيــبــه ســرق الاتــرجُّ نــكــهــتــه
يــا قــوم حــتى مــن الاشــجــار ســراق

ومن محاسن ابي القاسم بن العطار في الحماحمي قوله:

اما ترى الريحان أهــدى لنا حــمــامــا مــنــه فــأحيــانــا
نحسبــه في طله والــنــدى زمــردا يحمــل مــرجــانــا

وأنشدني ذو الوزارتين الشهابي أحمد بن الخلوف في الريحان الطراطري:

وريحان نضير غض جفنا
وأسبل فوق قامات ذوائب
حكت قضب الزمرد في اخضرار
وآثار الخضاب بكف كاعب

ومن غزل السري الرفا قوله في الريحان الحمام:

قضيب من الريحان شاكل لونه
اذا ما بدا للعين لون الزبرجد
تشبّهته لما بدا متجعّدا
عذاراً تبدى في سوالف أغيد

ومن مطرب أبي القاسم بن العطار قوله:

أعددت محتفلا ليوم فراغي
روضا غدا انسان عين الباغي
روض يروض هموم قلبي حسنه
فيه لكاس اللهو أي مساغ
واذا انثنت قضبان ريحان به
جاءت بمثل سلاسل الاصداغ

وقال ابن عبد ربه:

وريحان يميس على غصون
يطيب بشمه شرب الكؤوس
كسودان لبسن ثياب خز
وقد شطحوا بها شيب الرؤوس

ونقلت فيه من خط ابن حجة قوله:

بقول ريحان روضي للنسيم وقد
تعطر الكون منه حين وافاني

سرقت نشري وهاديت الأنام به

وليس تحمل مني عود ريحان

وريحان هذا الذي استعمله ابن حجة أخذه ابن المعمار وهو:

لما تبدى عذار الحب قلت له

رفقا ومهلا عليه أيها الجاني

لا تخش شيئا فما في الخد محتمل

بأن يحط عليه عرق ريحان

ويضارعه النمام. قال ابن الجوزي انه حار يابس قوي التحليل لما في الدماغ من الفضول البلغمية والصداع البارد.

ونقلت من خط البدر البشتكي قوله فيه:

اني أرى البستان فيه ثلاثة

عندي بها حسناته آثام

العين صافية به ونسيمه

واش وزهر رياضه نمام

ومن لطائف الصفي الحلي قوله فيه:

ومجلس راق من واش يكدره

ومن رقيب له باللوم ايلام

ما فيه ساع سوى الساقي وليس به

بين الندامى سوى الريحان نمام

ويعجبني قول ابن تميم:

ولم أنس اذ زار الحبيب بروضة

وقد غفلت عنا وشاة ولوام

أقول وطرف النرجس الغض شاخص

الينا وللنمام حولي إلمام

أيـا رب حـتى في الحـدائـق أعـين
عـلينـا وحـتى في الـريـاحـين نمـام

شقائق النعمان

ومن محاسن الشام شقائق النعمان. قال صاحب المفردات: في الثانية وهو صنفان: برى وبستاني. ومن البستاني ما زهره أحمر ومنه ما زهره الى البياض وله ورق شبيه ورق الكزبرة الا انه أدق تشريفا وساقه أخضر رقيق ورقه منبسط على الأرض وأغصانه شبيهة بشظايا ألقصب رقاق على أطرافها الزهر مثل زهر الخشخاش وفي وسط الزهر رؤوس لونها أسود وكحلي الى السواد وأصله في عظم زيتونة أو أعظم. وأما البري منه فإنه أعظم من البستاني وأعرض ورقا وأصلب ورؤوسه أطول وله زهر أحمر قان وفيه ما بعضه أحمر وبعضه أصفر وله أصول دقاق كثيرة وهو أشد حرافة من غيره.

ومن الناس من لم يفرق بين شقائق النعمان البري وبين النبات الذي يقال له «ارغماموني» وزهر الصنف من الخشخاش الذي يقال له رواس. وهو رمان السعال لتشابه لون زهرهما في الحمرة. وهذا غلط فان زهر الارغماموني وزهر الصنف من الخشخاش المسمى بالرواس اقل اصباغا في الحمرة من شقائق النعمان. غير ان ظهورها في الزهر كظهور الشقيق. وقوى الشقيق حارة جاذبة فتاحة. وكذلك الشقيق اذا مضغ اجتذب البلغم. وعصارته تجلو الآثار الحادثة في العين عن القرحة، والاكتحال بها يسود الحدقة ويمنع الماء النازل ويحدر الطمث اذا احتملت به المرأة ويدر اللبن. واذا خلط زهره مع قشور الجوز الرطب صبغ الشعر وقلع القوباء والله اعلم. انتهى.

وفيه يقول الشريف الرضي:

جـام تـكـوّن مـن عـقـيـق احمـر
مـلـئـت دوائـره بمـسـك أذفـر

خط الـربـيـع قـوامـه فـأقـامـه
بـين الـريـاض عـلى قضيـب اخضـر

بلدينا العلاء بن ايبك الدمشقي قوله فيه:

وشـقـيـقـة حمـراء ذات تـوقـد
مـطويـة في الـيـوم تـنـشـر في غـد
فـكـأن حمـرتهـا وحـسـن سـوادهـا
خـد الحـبـيـب زهـا بـخـال أسـود

وانشدني فيه ذو الوزارتين صاحب الصناعتين الشهاب الخلوف:

خـلت الشـقـيـق وقـد يـرى في زرعـه
شـقـقـا تـقـطع في سـمـاء زمـرد
وكـأن اسـوده اذا لاحـظتـه
آثـار كـحـل في لـواحظ أرمـد

ونقلت من خطه وانشدنيه:

مـا للشقـائق اذ ابـدى الـربـا زهـرا
يـفـترّ عن مبسـم كـالـدر منـتـضـد
اسـودّ بـاطـنهـا مـن نـوره حـسـداً
حتى الشـقـائق لا تخلو من الحسـد

وانشدني ونقلت من خطه:

وروضـة أنُـف ابـدى الـغـمـام بهـا
شـقـائقـا شـكلهـا يـبـدى لمن رمـقـا
غـيـرى بـكـت وأبـانـت شـعـرهـا وذوت
فضـل النقـاب وأدمت خـدهـا حنقـا

ونقلت من كتاب (خمائل العطار) للدنيسري احمد العطار قوله:

كفى الروض حسنا ان بين زهوره
شقيقة نعمان تلوح وتبتدي
كجام عقيق وسطه قرص عنبر
وخد به خال ومقلة أرمد

ونقلت من خط ابن حجة قوله:

سألت الشقيق الغض عن نقطة بدت
على خده والروض منها تعطرا
فقال سواد المسك هام بوجنتي
وقد اكثر التقبيل فيها فأثرا

وقال أيضا التقوى ابن حجة:

انهض الى جنة روض زاهر
لا يعتريك في مقالي شك
وانظر الى كأس شقيق ملئت
رحيق طل والختام مسك

ونقلت من خط القاضي بدر الدين الدماميني المالكي الاسكندري:

سوادك يا زهر الشقائق قد زها
بحمرة أوراق يروق سناؤها
يحاكي قلوبا بالصدود تسودت
وجرّحها لحظ فسالت دماؤها

ومن بديع اكتفائه قوله:

شقائق النعمان ألهو بها
ان غاب من أهوى وعز اللقا
والخد في القرب نعيمي وان
خاب فإني أكتفي بالشقا

ومن غزل ابن منقذ قوله:

الا عجب صاغ الربيع من الزهر
مداهن تبر لم يصغن من التبر
شقائق في اغصان تبر كأنها
خدود بدت فيها عوارض من شعر

ومن غزل ابن وكيع:

شقيقة جاءتك من روضة
يقصر عنها كل مشموم
سوادها في صبغ محمرّها
كشامة في خد ملطوم

وقال بعضهم:

وبين الرياض الجون زهر شقائق
مطاردها حمر أسافلها سحم
كما طرحت في الفحم نار ضعيفة
فمن جانب جمر ومن جانب فحم

اخذه ظافر الحداد الاسكندري:

وللشقائق جمر في جوانبه
بقية الفحم لم يستره باللهب

وما ارشق قول ابن رشيق:

رأيت شقيقة حمراء باد
على اطرافها لطخ السواد
يلوح بها كأحسن ما تراه
على شفة الصبي من المداد

وقال آخر:

شامتك السوداء يا قاتلي
في خدك الاحمر تحكي الشقيق
شقت قليبي مع سويدائه
فصار قلبي في هواها شقيق

وقال الميكالي وابدع:

تصوغ لنا كف الربيع حدائقا
كعقد عقيق بين سمط لآلي
وفيهن نوّار الشقيق وقد حكى
خدود عذارى نقطت بغوالي

ومن محاسن ابن حمديس الصقلي قوله:

ولم تر عيني بينها كشقائق
تبلبلها الارواح في الورق الخضر
كما مشطت غيد القيان شعورها
وقامت لرقص في غلائلها الحمر

قوله:

وترى شقائقه خلال رياضها
اوفت مطاردها على أزهارها
فكأنها والريح يصقل خدها
والسحب تملأها بماء نضارها
أقداح ياقوت لطاف اترعت
راحاً فبات المسك حشو قرارها
وكأنها وجنات غيد أحدقت
بخدودها حمرا خطوط عذارها

ونقلت من خط الجمالي علي بن الكمالي ظافر الخزرجي من كتابه (التشبيهات):

انظر الى حسن شقيق الربا
تنظر الى ما يحمل الزهرا
من كل حمراء بها نقطة
سوداء طابت بيننا نشرا
كمثل خد فوقه شامة
مسودة قد انبتت شعرا
او قطعة المسك اذا القيت
في وسط كأس ملئت خمرا

ومن مخترعاته قوله:

ولاح لنا زهر الشقائق تابعا
كمثل زنوج ضرجتها دماؤها

ومن دقائق ابن وكيع قوله:

قم فاسقني يا رفيقي — من السلاف الرحيق
اما ترى الطل يحكي — على احمرار الشقيق
لآلئا ضمنتها — مداهن من عقيق

واحسن منه:

والشمس لا تشرب خمر الندى
في الروض الا بكؤوس الشقيق

ومن أهاجي جمال الدين الخزرجي قوله:

اني لابغض في الشقائق منظراً
سمجاً لان اديمه لون الدم
فكأنما هي جرح طعنة اسمر
قد شد اوسطها بقطعة مرهم

وقال أبو النصر سالم بن سعاد الحمصي في الشقيق والنرجس:

وروض اريض من شقيق ونرجس
لنوريهما من تحت قضب الزبرجد
خدود عقيق تحت خيلان عنبر
واجفان در تحت أحداق عسجد

ومن بليغ الارجاني قوله:

لما تباشر اصباحا شقائقها
بانت وكانت قمصها حمرا
ردت على رأسها الأذيال من طرب
لجعلهن على من بلغ الخبرا

وقال الصنوبري في الورد والشقيق:

قد أحدق الورد بالشقيق   فاشرب عقيقا على عقيق
كأنه حوله وجوه   مستشرفات على حريق

وقال ابو نصر في الشقيق والسوسن:

وروضة زهرها عند الصباح غدا
يدعو الندامى الى شرب بتغليس
شقائق مثل أعراف الديوك بها
وسوسن مثل اعراف الطواويس

وقال القاضي عياض رحمه الله تعالى:

انظر الى الزرع وجماته
تحكي وقد هبت عليها الرياح
كتيبة خضراء مهزومة
شقائق النعمان فيها جراح

ومن محاسنه قوله فيه:

شقيقة شق على الورد ما
قد كسيت من خالص الصبغ
كأنها لما بدت وجنة
قد بان فيها طرف الصدغ

نيلوفر دمشق

ومن محاسن الشام النيلوفر. وهو أصفر وازرق وبنفسجي واحمر. قال ابن الاثير في عجائبه يسمى «حب العروس». وهو نبات هندي واكثر ما ينبت بنفسه في مستنقعات الماء وراكدها ولا ينبت الا في الماء العذب الواقف من أرض طيبة ومن شأنه أنه يحول وجهه الى الشمس اذا طلعت، ويزيد انفتاحه بزيادة علو الشمس، فاذا اخذت الشمس في الهبوط اخذ في الانضمام حتى يكمل انضمامه عند غيبوبة الشمس ويغطس في الماء. ويقال ان طائرا لطيفا يدخل في الزهر وينضم عليه ويغيب في الماء ليله فاذا أصبح طلع وتفتح فيخرج الطير.

وهو بارد رطب مسكن للصداع الحار ويكسر شهوة الجماع وينفع من الاحتلام اذا شرب منه درهم بشراب الخشخاش ويجمد المني. قال ابن البيطار: في الرابعة هو نبات له ورق شبيه بورق القلقاس الا أنه أرق واسمه فارسي معناه النيل له اجنحة تنبت في المياه الراكدة والآجام وورقه من أصل واحد. وقال ابن الجوزي: شبه البنفسج في قوته ومنفعته إلا انه ابرد وأرطب يذهب وجع الاسنان اذا استعمل مضغه وينقي السواد والبلغم وانفعه الأصفر وهو من خواص الشام. انتهى.
وفيه يقول المطوعي وابدع:

وبركة حفت بنيلوفر
قد جمعت من كل لون عجيب

كأن نيلوفرها عاشق
نهاره يرقب وجه الحبيب
حتى إذا الليل دنا وقته
وانصرف المحبوب خوف الرقيب
اطبق جفنيه عسى في الكرى
ينظر من فارقه عن قريب

وقال فيه:

خناجر من حناجر ترعت
وهي على الماء من دم حمر

ومن لطائف الباخرزي قوله فيه:

اشرب على بركة نيلوفر
مخضرة الاوراق حمراء
كأنما ازهارها اخرجت
السنة النار من الماء

ومن تشابيه ابن حمديس الصقلي قوله:

ونيلوفر أوراقه مستديرة
تفتح فيما بينهن له زهر
كما اعترضت خضر الفراش وبينها
عوامل ارماح أسنتها حمر

ومن مقاصده قوله فيه:

لا تغفلن عن الصبوح وقم بنا
ننعم بطيب لذاذة للأنفس

في بـركـة تـبـدي لـنـا نـيـلوفـرا
خضـلا تضـاحـكـه عيـون الـنـرجس
كـأسـنـة مـن فـضـة قـد خضـبـت
بـدم ولـفـت في عـصـائـب سـنـدس

ومن محاسن ابن سحنون خطيب النيربين قوله:

يـا حـسـنـه نـيـلوفـرا في مـائـه
طـاف وفي احـشـاه نـار تـشْـعَـر
يحـكـي أنـامـل غـادة مـضـمـومـة
جـمـعـت وزيـنـهـا خـضـاب أخـضـر

ومن غراميات عبد الجليل بن دهبول قوله:

وبـركـة تـزهـو بنيـلوفـر نسيمـه أشبـه ريـح الحبيب
حتى اذا الليـل دنـا وقتـه ومالت الشمس لحين المغيب
اطبق جفنيـه عـلى إلفـه وغاص في الماء حذار الرقيب

ومن تشابيه ابن تميم قوله:

ونـيلوفـر كـالـزهـر شـكـلا ومـنـظرا
محـاسـنـه فـيـهـا الـلواحظ تـرتـع
وكـلٌّ نـجـوم لـكـنِ الـفـرق انها
تغيبُ صبـاحـا وهي في الصبـح تـطلع

وقال فيه:

ونـاظـر نحـو عـين الشمس يـرقبهـا
حـتى اذا غـربـت اغـضـى بـتـنـكـيس
كـأنـه ودروع المـاء تـشـمـلـه
تحـت الـشـعـاع اكـالـيـل الـطواويس

ومن بدائعه قوله:

نيلوفر النيل قد ابدى تلونه
واحمر وازرق من شامينا وشكا
قلنا له ذاك لون واحد وبه
يسمو وانت بليد وهو فيه ذكا

وقال فيه:

ونيلوفر حاكى النجوم جهالة
ولم يدر أن الزُّهر يعنو لها الزَّهر
فلما بدا في الليل نكس رأسه
حياً واختفى في الماء حتى بدا الفجر

ومن بدائعه قوله:

ونيلوفر يحكي النجوم وماؤه
يحاكي سماء لا يغايرها وصفا
يغيب كما غابت ويبدو كما بدت
ويشبهها شكلا ويفضلها عرفا

ومن مقاصده قوله فيه:

يا حسن نوفرة (٢٦) صفراء حين بدت
ابدت محاسنها عن منظر عجب
كأنها حية في الماء سابحة
يبدو على رأسها تاج من الذهب

احمد بن الخلوف رحمه الله تعالى:

ونيلوفر شبهته في غديره
بقايا سلاف في كؤوس زجاج

---

(٢٦) قال الزبيدي في التاج ان العوام يسمون النيلوفر «نوفر» كجوهر.

تمثل أذناب الطواويس اذ غدا
يموّه بالياقوت صفحة عاج

بلدينا العلاء بن ايبك الدمشقي قوله:

يا حسنه في بركة قد أصبحت
محشوّة مسكا يشاب بندّه
وكأنه اذ غاب عند مسائه
في الماء واحتجبت نضارة قده
صبّ تهدده الحبيب بهجره
ظلما فغرّق نفسه من وجده

وقال الامير مجير الدين محمد بن تميم فيه:

لما حكى زهر الكواكب نوفر
واقام وهو على المطال حريص
خاف الحريق وقد رمته بشهبها
فلذاك امسى في المياه يغوص

وقال فيه:

نيلوفر غضّ تلبّس ماءه يوماً وتاه على النجوم بذوبه
لحظته أعينها فنكس رأسه خجلا وغاص من الحيا في ثوبه

بان دمشق

ومن محاسن الشام البان. قال ابن البيطار: شجره يسمو ويطول في استواء، وخشبه خوّار خفيف وقضبانه سمجة خضر وهدبه ينبت في القصب وهو طويل أخضر شديد الخضرة وثمرته تشبه قرون اللوبيا الا ان خضرتها شديدة وفيها حب فاذا انتهى انفتق وانتثر حبه، وهو ابيض أغبر نحو الفستق ومنه يستخرج دهن ويقال لثمره الشوع (٢٧) وهو مربع ويكثر على الجذب واذا أرادوا طبخه رض على الصلابة

---

(٢٧) في مفردات ابن البيطار «الشوع» وفي كتب اللغة «السياع» كسحاب.

وغربل حتى ينعزل قشره ثم يطحن ويعتصر وهو كثير الدهن ودهنه ينفع من الكلف والنمش ومن الجرب والحكة والعلة التي يتقشر معها الجلد، ويلطف صلابة الكبد والطحال وماؤه يستخرج في شهر كانون الثاني، يشد القلب وخشبه يعمل منه الخلالات وهو عطر الرائحة.

الشاب الظريف محمد بن العفيف التلمساني رحمه الله:

تبسم زهر البان عن طيب نشره
وأقبل في حسن يجل عن الوصف
هلموا اليه بين قصف ولذة
فان غصون البان تصلح للقصف

ومن لطائف ابن قرناص قوله:

مذ اقبل الصيف وولى الشتا ... اذهب عني البرد والقرّا
أما ترى البان على غصنه ... قد قلب الفرو الى برا

ومن اغراض ابن تميم قوله:

يا هاجرا روضا لاجل البان اذ ... ولى به والورد فيه مصان
أرأيت روضا شب فيه ورده ... ينسى اذا ما شاخ فيه البان

قف وانظر وتمر الحنا

ومن محاسن الشام «قف وانظر» قال ابن البيطار: هذا من خواص (دمشق) وما والاها من أرض الشام، ويعرف بالآس البري. وهو نبات له ورق شبيه بورق الآس البستاني الا انه اعرض منه وفي طرفه حد شبيه بطرف سنان الرمح وله ثمرة مستديرة في وسط الورقة بعرف اخضر يشبه الشريط واذا انضجت كان لونها احمر كالمرجان وفي جوفه حب صلب وله قضبان شبيهة بقضبان النبات الذي يقال له لوقس كثيرة مخرجها من اصل واحد طولها نحو من ذراع بواحد مملوءة ورقا [وأصله شبيه بأصل النبات الذي يقال له اعرسطس، اذا ذيق كان اعفصا مائلا الى المرارة وورق هذا

النبات وثمره اذا شربا بالشراب ادرا البول وفتتا الحصاة وادرا الطمث وقد يبريء اليرقان وتقطير [البول] والصداع وينبت في مواضع خشنة واجراف قائمة. انتهى.

وأما تمر الحنا فانه يطلع خارج البلد في الغور وفي الارض الحارة من قرى الشام ويعمل منه دهن. وفيه يقول السراج الوراق:

ودوحة تامر لما تبدت   كأذناب الثعالب في المثال
عليه دق كافور سحيق   تضمخ بالمسوك وبالغوالي

ومن تشابيه تاج الدين الكندي فيه:

ودوح رياض كلما استقطر الندى
اعار بسيط الارض ثوب ظلال
ترى تمر الحناء فيه كأنه
اكف عذارى في شباك لآلي

وانشدني فيه الشيخ علاء الدين علي البلاطنسى الشافعي:

سابق الى رشف الطلا بحديقة
فيها خدود قد زهت وثغور
قد خلت فيها تمر حناء غدا
شبه الكفوف الى المدام يشير

الحيلاني

ومن محاسن الشام الحيلاني وهو شجر يشبه الصفصاف غير انه في اوائل الربيع تصبغ جميع أغصانه بالاحمر كقضبان المرجان وله رؤية بديعة.

وفيه يقول الشيخ صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي:

لنا حيلانة قد حالفتنا
تسر بها الخواطر والعيون

فـقـلـت لـصـاحـبـي لمـا تـبـدت
متى نـبـتـت مـن الـشـفـق الـغـصـون

شجر الزنزلخت

ويلحق به شجر الزنزلخت وله زهر طيب الرائحة يخرج في أيام الورد. وفيه يقول مؤلفه البدري:

وزنـزلخـت أبـيـض مـع أحمـر في غـصـن
كـالـدر واليـاقـوت أو ثـيـاب خـام يمـني

شجر السرو

وكذلك شجر السرو فان رؤيته حسنة وأكثر ما يوجد بدمشق
وفيه يقول احمد بن وضاح:

ايـا سـرو لا يجـتزْ مـنـابتـك الحيـا
ولا بُـزَّ عن اغصـانـك الـورق النضـر
وقـد كـسـيـت اعـطافـك المـلد مثـلما
تـلـف عـلى الخـطّي رايـاتـه الخضـر

وانشدني ذو الوزارتين احمد الخلوف التونسي المالكي:

وسـروة شـق الـنـسـيـم رداءهـا
فـابدت فصـوص التبـر في الحلل الخضـر
كـزنـجيـة مـاسـت بغـنـج وشـمـرت
عن الـسـاق ذيـلا واكتست حلة الشعـر
اذا سقيت كـأس الهنا قضب سـوقهـا
امـالـت رؤوسـا لا تمـل من الـسكـر

ونقلت من خطه وانشدنيه:

وسـرو كـزنـج شمـروا الـذيـل اذ غـدوا
يهـزم خـفـق الـربـابـة لـلطرب
اذا مشـطت ايـدي النسيم فـروعهـا
تـرى حللا خضـرا تـزرّر بـالـذهـب

وفيه من رسالة القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر قوله «والاغصان قد اخضر نبت عارضها، ودنانير الازهار ودراهمها تهيأت لتسليم قابضها. والحور قد حاور السهى بالتباشير، والسرو قد كشفت عن سوقها وقالت لها الغدران بهديرها انه صرح ممرد من قوارير»

وانشدني شيخنا العلامة بقية السلف ابراهيم الملاح:

ولـمـا رأيت السـرو في الـروض مـائسـا
وايـدي الهـوا فـيـه تـزيـد وتـنـقص
حـسـبـت رفـاعـيـا اتى قـاعـة الهـنـا
واسـبـل فـيـهـا شـعـره وهـو يـرقص

دواليب دمشق

قلت: وجميع هذه المحاسن بالحواكير، غير ان الماء لا يصل اليها الا بجهد كبير. لعلوها عن (نهر يزيد)، فاصطنعوا لها الدولاب ودورانه بكل بهيم شديد. وفيه يقول ابن لؤلؤ الذهبي:

حـاكـورة دولابهـا الى الغصـون قـد شـكـا
من حـين ضـاع زهـرهـا دار عـلـيـه وبـكـى

ودار في دولابه الصلاح الصفدي حيث قال:

ابـدى لـنـا الـدولاب قـولا معـجبـا
لمـا رآنـا قـادمـين الـيـه

اني من العجب العجيب كما ترى
قلبي معي وانا ادور عليه

والاصل فيه قول ابن تميم فيه:

تأمل الى الدولاب والنهر اذ جرى
ودمعهما بين الرياض غزير
وضاع النسيم الرطب والروض منهما
فاصبح ذا يجري وذاك يدور

ومن معاني ابن دمرداش قوله فيه:

وَلَرُبَّ دولاب سقى دوح الحمى
فاعادها سكرى على الاطلاق
وجدتْ كوجدي بالهوى فخمارها
مثلي وحقك من عيون الساقي

ومنه قول الشهاب الخفاجي:

حالة الدولاب دلت انه في فرط حزن
كان يسقى ويغنى صار يسقي ويغني

ونقلت من خط احمد بن صالح قوله:

دولابنا صب طليق دمعه
مأسور حب قلبه وضلوعه
يبكي على فقد الاحبة نائرا
من بعدهم جهد المقل دموعه

ومن لطائف ابن تميم قوله:

ودولاب روض كان من قبل اغصنا
تميس. فلما فرقتها يد الدهر

تــذكــر عــهــدا بــالــريــاض فــكــلــه
عيــون عــلى أيــام عهـد الصبــا تجــري

ومن معاني الأسعدي قوله:

شــاهــدت دولابــا لــه ادمــع
تــكــفــلــت لــلــروض بــالــري
فــاعــجــب لــه مــن فــلــك دائــر
مــا فــيــه بــرج غــيــر مــائــي

أرض المزّة واللوان

ومن محاسن الشام ارض (المزة واللوان) فان حكماء اليونان لما رأوا الجانب الشمالي يصلح لزراعة الازهار ورأوا طيبة ارض الجانب القبلي اختاروها لغرس الاشجار.

مشمش دمشق

فمنه المشمش وهو أحد وعشرون صنفا بدمشق: حموي، سندياني، اويسي، عربيلي، خراساني، كافوري، بعلبكي، لقّيس، لوزي، دغمشي، وزيري، كلابي، سلطاني، حازمي، ايدمري، سنيني، بردى، ملوح، فراط، النجاتي، جلاجل القلوع.

قال جالينوس في السابعة وهي ثمرة باردة أحسن من الخوخ وأجود منه لكونه لا يفسد كما يفسد الخوخ في المعدة ولا يحمض. واذا اكل المشمش بعد الطعام فسد وطفا في رأس المعدة وان كان فيها فضل رديء استحال الى طبيعة ذلك الفضل فلا يؤكل الا قبل الطعام ويشرب فوقه السكنجبين.

وقال ديسقوريدوس: في الاولى له طعم أحسن من طعم الخوخ وأجود للمعدة ويسهل الصفراء ويولد خلطا عظيما غليظا.

وقال الرازي في (الحاوي) اتاني رجل أبخر فحدست أن المشمش يذهب بخره، فاطعمته من رطبه فذهب البخر. ثم كان يستعمل نقيعه دائما فلا أحسب أنه يوجد شيء أشد للتبريد منه. وقال أيضا في كتابه (دفع المضار) انه يبردالمعدة جدا ويورث الجشأ الحامض ويقمع الصفراء والدم- ولا سيما ان كانت معه ادنى مرارة- وينبغي أن يجتنبه من تكثر به الرياح ومن يسرع اليه الجشأ الحامض واذا اخذ عليه الشراب الصرف والجوارشن الكموني والكندري نفعه. فاما اصحاب المعدة الحارة والجشأ الدخاني والعطش الدائم فكثيرا ما ينتفعون به ولا سيما في يوم بعديوم ،ويوم يمسهم فيه حر وعطش ولا ينبغي ان يشرب عليه ماء الثلج. ويؤخذ لمن يكثر من أكله الاهليلج ثم بزر الرازيانج والسكر ليؤمن بذلك من المائية التي تتولد عنه في الدم فانها تتعفن على الايام وتهيج الحميات ان لم تتدارك بما قلناه الا أن يكثر من التعب حتى يجري منه العرق الكثير وتصيبه هيضة قوية أو يدُمن شرابا قويا يغزر عليه بوله وعرقه وأقل ضررا من جميع اصناف المشمش الحموي لرقة حاشيته وحسن طعمه وحلاوته وعطر رائحة نواره.

وفيه يقول جحظة:

ومشمش زهره كالزُّهر مشرقة
بحسن ما فيه من نَور ومن نُور
كأن محمرّه في وسط أبيضه
حكى عقيقا على جامات بلور

وقال ابن سينا: المشمش له نوار ابيض مسدس مخضب بالحمرة عطر الرائحة، ثم يعقد مع اخراج الورق كاللوز الاخضر بقلب ابيض ويخشب ويطبخ منه الطعام المعروف بالمشمشية ثم يصفر ويأخذ في الانضاج حتى ينتهي فينشف ويحمل منه الى البلاد.

وفيه يقول محمد بن عطية بن حنان الكاتب القيرواني:

ومشمش ما بدا يوما لذي بصر
الا وأصبح بين العجب والعجب

كــأن مخــبــره وصــفــا ومــنــظره
شــهــد تــكـنـفـه قـشــر مــن الــذهــب

ومن تشابيه ابن وكيع قوله:

بــدا مشمش الاشـجـار فيـهـا كـأنــه
يـلوح عــلى تـلك الـغـصـون المـوائــل
قـبــاب بمحـمـر الـذبـائـح ضـرجت
وقــد زيـنت مــن عسـجــد بجــلاجــل

ونقلت من خط الشرف القواس الدمشقي:

خلت في الــروض مشمشـا جـاء في الحمـل بــالعجب
كـــسـما مـــن زبـــرجـد بـنـجـوم مــن الــذهــب

ومن محاسن بلدينا العلائي بن ايبك:

ومـشمش جــاءني من أعجـب العـجـب
اشــهـى إلّي مــن الــلذات والــطرب
كـأنــه في هـبــوب الـريــح تـنـشــره
بنــائق خــرطـت من خــالص الــذهــب

ومن تشابيه الصلاح الصفدي قوله:

بــدا مشمش الاشجـار يــذكى شهـابــه
عــلى حسن أغصــان من الــدوح مُيّــدِ
حكى وحكت اشجــاره في اخضــرارهــا
جــلاجــل تــبــر في قــبــاب زبــرجــد

ومن لطائف ابن تميم قوله وقد اهداه لبعض أصحابه:

امــولاي عــز الــديـن يــا مــن جمـيله
الى قــاصــديــه مــا عــليــه عــيــار

جسـرت وقـد اهـديت نحـوك مشمشـا
وذلـك شـيء مـا عـليـه غـبـار
ومـا كـان هـذا لـونـه غـير أنـه
عـلاه لخـوف الـردّ مـنـك صـفـار

قراصيا دمشق

ومن محاسن الشام القراصيا: وهي سبعة اصناف. رشيدية، بعلبكية، افرنجية رومية، طعامية، بزرة، وفيجية- نسبة لقرية عين الفيجة، وهي تحمل منها الى السلطان بالديار المصرية- وأحسنها البلدية المنسوبة لواد مكرم وهو بين الربوة الى تحت صحن المزة.

قال ضياء الدين بن البيطار: القراصيا أنواع، فمنها الحلو والمر والعفص والحامض. فالحلو منه حار رطب في الدرجة الثانية ينحدر عن المعدة سريعا ويثير التخم ويرخي المعدة ويستحيل مع كل طبع واذا أكل اسهل البطن ولين الطبيعة ولا سيما اذا ابتلع بنواه وهو مع ذلك يزيد في الانعاظ.

وقال اسحاق بن عمران: خلط القراصيا غليظ مزلق فاسد الغذاء يولد السوداء، وحامضه الذي لم يطب قاطع للعطش عاقل للبطن.

وقال ديسقوريدوس: في الاندلس حب الملوك وفي بلاد الروم الكراز. وهي شجرة معروفة أغصانها سبطة مشوبة بحمرة ولها ورق أطول من ورق المشمش ولها ثمرة شبيهة بحب العنب في التدوير، تتدلى في شيء شبه الخيوط الخضر اثنان اثنان في الغالب وازيد من ذلك، ولونها أحمر ومنها ما يكون اسود وأشقر، وفيها ما هو منصبغ ببعض حمرة.

وهو في الاولى، وان استعمل رطبا لين البطن، وان استعمل يابسا أمسك البطن، وصمغه- اذا خلط بشراب ممزوج بماء- يبرىء السعال ويحسن اللون ويحد البصر وينهض الشهوة وينفع من به حصاة.

وقال جالينوس: في السابعة وفيه قبض ولكن ليس هو سواء والحامض اكثر قبضا وينفع المعدة البلغمية المملوءة فضولا لان الحامض يجفف اكثر من تجفيف العفص والحلو. وصبغ هذه الشجرة فيه من القوة العامة الموجودة في جميع الادوية اللزجة التي لا تلذع معها فهي كذلك نافعة من الخشونة الكائنة في قصبة الرئة. واذا شربت بشراب نفعت صاحب الحصاة لان فيها قوة لطيفة.

وطعام القراصيا نافع ولذيذ ومسهل والله أعلم. وفيه يقول مؤلفه رحمه الله:

كأنما القراصيا لما بدت للنظر
حبة مرجان ترى في رأس خيط أخضر

وله أيضا:

تحكي القراصيا وقد لاحت بعرق نضر
كنجمة في شفق بدت بذيل أخضر

وله أيضا:

ان القراصية التي زهت بلون مورد
كعقيقة حمرا بدت بعلاقة تحكي الزبرجد

كمثري دمشق

ومن محاسن الشام الكمثري. وهو باليونانية الانجاص وهو أصناف: عثماني، عيلاني. خلاني. سمر قندي. صيني. ملكي. صقلاني. مغاربي. يبرودي. رحبي. درسي. قناديلي. خنافسي. معنق. دهمروري. عريب. بعلبكي. ماوردي. عقرباني. شتوي. صيفي. سكري. قهلي.

قال ابن سينا: وفي بلادنا نوع من الكمثري يقال له شاه امرود كبير الحجم شديد الاستدارة رقيق القشرة حسن اللون وكأنه ماء سكر منعقد جامد يميل الى الصفرة

يتكسر للجمود لا لغلظ الجوهر، طيب الرائحة جدا اذا سقط عن شجره اضمحل وهذا مما لا مضرة فيه ولا يحمل من بلده وهو معتدل رطب.

وقال جالينوس: ورق الكمثري واطرافها قابضة فاما ثمرتها ففيها مع قبضها حلاوة ومائية. واجزاء هذه الثمرة ليست متساوية المزاج وان منها ما هو أرضي ومنها ما هو مائي. وان شئت قلت من وجه آخر بعضها بارد وبعضها معتدل المزاج. من اجل ذلك متى اكل الكمثري قوى المعدة وسكن العطش، ومتى وضع كالضماد جفف وجلا جلاء يسيرا، وبهذا السبب أعلم اني قد ادملت به جراحات عندما كنت لا أقدر على دواء آخر.

والكمثري البري اكثر قبضا وتجفيفا من سائر الكمثري فهو لذلك يدمل ما هو من الجراحات ويمنع المواد من التحلب.

وقال (ديسقوريدوس): في الاولى الكمثري وهي اصناف كثيرة وكلها قابض، ولذلك يستعمل في الضمادات المانعة من مصير المواد الى الاعضاء. واذا أخذ أو شرب طبيخه بعد أن يجفف عقل البطن، واذا اكل الكمثري والمعدة خالية اضر بآكله وورقه ايضا قابض، ورماد خشبه قوي المنفعة للذين يعرض لهم خنق من اكل الفطر وهو ما يظهر بارض الشام على ضرب الكمأة. وقد قال قوم انه اذا طبخ الكمثري البري مع الفطر يمرض آكله.

واعترض اسحق بن عمران على قوله في ان الكمثري اذا اكلت على الريق تضر بآكلها ولم يخبر بالسبب في ذلك ولا أي الكمثري يفعل ذلك. فأقول انه ذم الكمثري على الريق اذا اخذ على سبيل اللذة والغذاء لا على سبيل الحاجة والدواء، وخاصة اذا كان عفصا او قابضا وان كان العفص أخص بذلك لان من خاصيته ان الاكثار منه يولد النفخ فاذا اخذ على خلاء المعدة تمكن من جرمها وقام فعله فيها ولم يؤمن على صاحبه مع الادمان عليه أن يورثه قولنجا يعسر انحلاله. فأما على سبيل الحاجة للدواء فان استعماله على الريق لا محالة أفضل لان استعماله بعد الطعام مطلق وزائد في ضعف المعدة لانه بافراط قبضه يجمع أعلى المعدة وتقهر القوة الممسكة التي في

أسفلها. وأما العفص من الكمثري فهو أقل غذاء واقطعها للاسهال والقيء المراري وأشدها مئونة للمعدة والامعاء، لانه لافراط خشونته وغلظ جسمه وبعد انقياده مضر بعصب المعدة جدا. ولذلك وجب ان يتلطف له بما يرخي جسمه ويزيد غلظه ويلين خشونته مثل سلقه في الماء أو تعليقه على بخار الماء حتى ينضج أو يلبس عجينا ويشوى ويربى بسكر الطبرزد أو عسل على حسب مزاج المستعمل له.

وقال البصري: الكمثري الحلو بارد في الاولى يابس في الثانية والصيني منه بارد في الدرجة الثانية رطب في الدرجة الاولى وفيه عطرية وقبض وتقوية القلب والتفاح خير منه.

وقال اسحق بن عمران: الحامض منه دابغ للمعدة مدر للبول مشهٍّ للأكل.

وقال ابقراط: ما كان من الكمثري صلبا فهو يبرد ويجفف ويعقل البطن وما كان لينا نضيجا حلوا فهو يسخن ويرطب ويطلق البطن.

قلت وخالف البصري في قوله «والكمثري ألذ من التفاح وما يتولد منه في البدن احمد مما يتولد من التفاح وهو أسرع انهضاما»

وقال الرازي في (الحاوي): الخالص من الحلاوة من الكمثري لا يبرد، وأكله يعقل البطن الا أن يؤكل بعد الطعام فيسرع باحدار الثقل ثم تكون عاقبته عقل البطن. والصيني أقل ماء وأقوى فعلا وأشدها عقلا وأكثرها في تسكين العطش.

وقال في كتابه المسمى بدفع مضار الاغذية: الكمثري كثير النفخ بطيء الانهضام. وينبغي أن يحذره من يعتريه القولنج ولا يشرب عليه ماء باردا ولا يأكل بعده طعاما غليظا، واذا أكل منه فليكن على جوع صادق، وليطل النوم بعده ويشرب عقيبه شرابا عقيقا صرفا أو يأخذ عليه زنجبيلا مربى ثم يجعل ادامه في ذلك اليوم مرقة اسفيدباجة أو مرق مطجنة ويدع لحمها ولا يتعرض للمشوي وان اكل مع السمين المهري بالطبخ لم يضره ذلك والكمثري مقو للمعدة ضار للمبرودين ومن يعتريه القولنج وشره أفجه واقله حلاوة ونوار الكمثري ابيض مستدير مشرق اكبر من نوار الخوخ واعظم رائحة. انتهى والله اعلم.

وفيه يقول عبدالله بن برغش:

وكمثري تراه حين يبدو
على الاغصان مخضر الثياب
كثدي خريدة ابدته تيها
له طعم الذ من الشراب

وما ارشق قول ابن رشيق فيه:

نظرت الى البستان احسن منظر
وقد حجب الاغصان شمس المشارق
به زوج رمان يلوح كأنه
قناديل تبر محكمات العلايق

ومن تشابيه صرَّ درّ قوله فيه:

حي بكمثراية لونها
لون محب زائد الصفره
تشبه نهد البكر ان اقعدت
وهي لها ان قلبت سره

تفاح دمشق

ومن محاسن الشام التفاح. وهو بدمشق اصناف كثيرة فلنذكر بعضها: سكري. مسكي. فتحي. صيني. شتوي. بلدي. صيفي. قاسمي. فاطمي. قحابي. فضي. حديثي. جناني. حرستاني. لبناني. حلواني. دهشاوي. اخلاطي. بربري. نبطي. ماوردي. بطيخي. مجهول.

قال البصري: نواره اشبه شيء بازرار الورد عند ظهوره ثم يفتح مع اخراج ورقه برائحة طيبة الشذا

وفيه يقول ابن عمار:

وزهـــر تفـــاح اضحـى الغـصن منتــظما
كـأنــه لــؤلــؤ يــبــدو ويــاقــوت
ولــلريــاض عــلى ارجــائــهــا ارج
كــان فــيــه ذكــي المــســك مـفــتــوت

قالت الحكماء: جسم التفاح صديق الجسم، وريحه صديق الروح

وقال جالينوس: في السابعة ومنه حلو ومنه ما فيه عفوصة ومنه ما فيه قبض ومنه حامض ومنه ما بين الحموضة والحلاوة مسيخ الطعم وما كان منه على هذه الاوصاف فالاغلب عليه طبيعة الماء يكون مزاجه ابرد وارطب معا، وأما الذي فيه عفوصة فالاغلب عليه المزاج الارضي البارد وأما القابض منه ففيه هذا الجوهر المائي البارد كما أن في الحلو منه جوهرا مائيا معتدل المزاج. وكذلك يمكنك أن تستعمل منه ما هو أشد قبضا واكثر حموضة في ادمال الجراحات وفي موضع ما يتحلب في ابتداء حدوث الاورام الحارة الى موضع الورم وفي تقوية فم المعدة عند استرخائها ويستعمل منه ما هو مسيخ الطعم ولا طعم له ـ كالماء ـ في مداواة الاورام التي هي في ابتدائها أو التي في تزايدها وفي جميع التفاح رطوبة كثيرة باردة، ومما يدلك على ذلك انه ليس منه ولا واحد تبقى عصارته، بل جميعه اذا عصر فسد عصيره خلا السفرجل فان عصارته تبقى. واليونانيون يدخلونه في عداد التفاح المسمى نيطروما فان هذين النوعين لشدة قبضهما ليس فيهما من الرطوبة الا اليسير، وأما تلك الانواع من التفاح فكلها ان طبخت عصارتها مع العسل صار منها رب يبقى وان تركت وحدها لم يبق.

وقال الرازي: التفاح مقو لفم المعدة موافق للمحرورين الا انه بطيء الهضم وينفخ ولا سيما الفج الحامض وكذلك ينبغي ان لا يشرب عليه من يجد منه ثقلا في معدته ماء باردا ولا يأكل عليه طعاما حامضا بل يشرب عليه الشراب ويأكل امراق المطجنات.

وقال الحكماء ان من خاصيته توليد النسيان ويكسل واذا اخذ اليسير منه نفع من الوسواس السوداوي وأكل التفاح يحدث الخلط في البراز وشمه يقوي الدماغ والنفس. والله أعلم بالصواب.

وفيه يقول الزين الخراط في جارية أهدى اليها تفاحة:

وعذراء أهديت تفاحة اليها فقالت تفكه بشاني

حديثي تفاحه سكري كفتحي وتفاح خدي جناني

واحسن منه قول صلاح الدين بن شاكر الكتبى:

وغادة تيمني حبها تقول صف خدّيّ بالاحمر

فقلت فضي غدا مخضبا قالت حديثي قلت ذا سكري

ومنه قول جلال الدين بن خطيب داريا:

قالت العذراء لما شاءت المنع بمنحي

هاك تفاح حديثي حلو لا تطمع بفتحي

ومن محاسن صاعد اللغوي قوله:

تفاحة اذكرني نصفها خد حبيبي يوم عانقته

ونصفه الآخر شبهته بلون وجهي حين فارقته

ومن نفثات ابن حبيب قوله:

وتفاحة فيها احمرار وخضرة

مضمخة بالطيب من كل جانب

تكامل فيها الحسن حتى كأنها

تورّد خد فوق خضرة شارب

ومن مقاصد ابن نباته قوله:

كرات عقيق في غصون زبرجد

بكف نسيم الريح منها صوالج

نقلبها طورا وطورا نشمها

فهن خدود بيننا ونوافج

وما أرشق قول ابن رشيق القيرواني:

تفاحة شامية من كف ظبي اكحل
ما خلقت مذ خلقت تلك لغير القبل
كأنما حمرتها حمرة خد خجل

ومن لطائفه قوله:

تفاحة من كف ظبى أخذتها
جناها من الغصن الذي شبه قده
لها لمس ردفيه وطيب نسيمه
وطعم لَما فيه وحمرة خده

ومن لطائف بشار بن برد:

وتفاحة من خالص التبر نصفها
ومن جلنار نصفها وشقائق
كأن الهوى قد رد بعد تفرق
لها خد معشوق الى خد عاشق

ومن أغراض الصاحب بن عباد قوله:

ولما بدا التفاح أحمر مشرقا
دعوت بكأس وهي ملأى من الشفق
وقلت لساقيها أدرها فانها
خدود عذارى قد جمعن على طبق

ونقلت من خط جمال الدين ابي حسن علي الخزرجي قوله:

تفاحة محمرة قد بدت
يميّلها الريح على غصن
كأنها خدان قد جمعا
يلوح فيها طابع الحسن

خوخ دمشق

ومن محاسن الشام الدراقن وهو أصناف بدمشق ويسمى في القاهرة الخوخ ولم يكن بها سوى الزهري والمشعر فنذكر من أصنافه ما يحصرنا الآن بدمشق: خواجكي، رصاصي، حمصي، نيرباني، لوزي، لزيق، لقيس، كلابي، صالحي، ختمي، مظفري، مسافري، صوري، زهري، لحم الجمل، مجهول.

قال أبو حنيفة: شجره سريع الأخذ في الارض، قصير المدة، أنهى مكثه عشر سنين، ويضمحل ثمره، وتنشف شجره، وله نوّار احمر ينور من أصله الى آخر فرعه، زهي المنظر.

وفي زهره يقول محيي الدين بن قرناص الحموي:

مررت باشجار الدراقن سحرة
وقد رنحت اعطافه نسمة الفجر
فشبهته لما رأيت احمراره
عيون مخامير أفاقوا من السكر

قال جالينوس: في السابعة وفي نفس شجرة الخوخ المسمى بالدراقن بدمشق وقضبانها وورقها مرارة ولذلك متى سحق وضمد به السرة قتل الديدان التي بالجوف وهو مع هذا يحلل. واما ثمرتها فمزاجها رطب يبرد.

وقال في كتاب اغذيته: ان الرطوبة المستكنة في هذه الثمرة وجرمها نفسه سريعا الفساد رديئان في جميع الخصال، ولذلك لا ينبغي أن يؤكل الخوخ بعد الطعام كما جرت عادة بعض الناس لانه اذا طفا في المعدة فسد.

وقال ابن ماسوية: يولد بلغما غليظا سريع الفساد والعفونة في المعدة.

وقال الرازي في (الحاوي): الخوخ يشهي الطعام جيد للمعدة الحارة والعطش واللهب منها ويزيد في الباه ويطفي الحرارة.

وقال ابن سينا يشبه ان يكون زيادته في الباه للابدان الحارة اليابسة.

وقال ابن الجوزي في (لقط المنافع): الخوخ بارد رطب نضيجه ينفع المعدة ويشهي الطعام، غير أنه رديء الخلط سريع السلوك في فساد المعدة يصلح للشباب في البلاد الجنوبية ويؤكل بعده الزنجبيل المربى

وقال الرازي في (دفع مضار الاغذية): الخوخ ينفع المحموم وقت صعود الحمى الحادة اذا كانت غبا خالصة ويولد في الدم مائية يكمل استحالتها الى الدم يعفن ويهيج الحميات بعد شهر أو شهرين كما يفعل المشمش الا ان الحميات المتولدة من الخوخ اقوى نافضا واطول مدة والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفي الخوخ الزهري يقول القيراطي:

حللنا ببستان به الدوح واقف
وجدول صافي الماء من تحته يجري
كان النجوم الزهر زهري خوخه
ولم أر مثلي شبه الزُّهر بالزَّهر

ومن محاسن العلائي الوداعي:

وخوخه قد حكت لونين خلتهما
خدّي محب ومحبوب قد التصقا
تعانقا فبدا واش فراعهما
فاحمر ذا خجلا واصفر ذا فرقا

ومن لطائف النصر الحمامي قوله:

وخوخة يحكي لنا نصفها
وجنة معشوق رآها الكئيب
ونصفه الآخر شبهته
بلون صب غاب عنه الحبيب

آجاص دمشق

ومن محاسن الشام الآجاص ويسميه اهلها الخوخ وهو أصناف: صيفي، زجاجي، قبرصي، اسود، عين البقر، خوخ الدب، خوخ الطعام، اغبر، شقير، جايكي، برقوق، مجهول، بزرة. وله نوار ابيض صغير دون نوار الكمثري.

قال ابن ماسويه الآجاص يغذي غذاء يسيرا ويرطب المعدة بلزوجة ويبردها ويلين الطبيعة ويسهل المرة الصفراء ويسكن العطش. وهو صنفان ابيض واسود فالاسود هو الآجاص على الحقيقة، والأبيض هو المعروف بالشاهلوج وهو بطيء الانهضام وليس بمسهل كغيره وكلاهما بالشام.

وقال ابن زهر: الآجاص رديء للمعدة ملين للبطن وأحسنه ما كان بدمشق فانه اذا خف كان جيدا للمعدة ممسكا للبطن ويختار منه ما كان لحميا رقيق البشرة والكبير الرخو القليل القبوضة وأرداه الصغير الصلب الشديد العفوصة الابيض وغالب عليه الزرقة المعروف عند أهل مصر بشقير.
والبرقوق نوع منه صغير لكنه اذا نضج حلا.

وقال ابن الجوزي: الآجاص بارد رطب المختار منه الاسود الحلو الكبير يلين الطبيعة لكن خلطه غليظ بطيء الانهضام يطلق الصفراء والحامض أشد اطلاقا وينفع الصداع والشقيقة وينقص اليرقان وينفع الشباب في الصيف بالبلاد الحارة. دفع مضرته معجون الورد أو العسل. انتهى والله أعلم.
وفيه يقول مصنفه البدري:

يا حسن آجاص اتى　　يحكي لعين البصر
اكراً بدت من فضة　　قد ضمخت بعنبر

وقال ابن المعتز فيه:

لقد شاقني الآجاص لما رأيته
يميل مع الاغصان مع كل مائل

تطلعن من بين الغصون كأنها
فقاح زنوج تحت خضر الغلائل

وكل هذه الاصناف والالوان بالمزة وارض اللوان. وبها الدور الوسيعة الفناء، المليحة الاساس والبناء. وفيها أعيان الناس، وهي الجامعة بين حسن الانواع والاجناس مع الهواء الصحيح، والاعتدال بالترجيح. وبها سويقتان، فيهما سائر ما يشتهى من الالوان. ومصلى بخطبة وخطبة بجامع جديد، وفيها ضريح الولي المعتقد الشيخ سعيد. أعاد الله علينا من بركاته، وأمدنا بصالح دعواته.

ويتوصل منها الى قرية (كفر سوسة) وبها معصرة زيت وأشجار زيتون من زمن عيسى عليه السلام، مع الفواكه الكبيرة بطريق الانضمام.

زيتون دمشق

قال ابن البيطار: الزيتون في السادسة وورق هذه الشجرة وعيدانها الطرية فيهما من البرودة بمقدار ما فيهما من القبض واما ثمرتها فما كان منها مدركا نضيجا فهو حار حرارة معتدلة وما كان منها غير نضيج فهو أشد قبضا وبردا .

وقال اسحق بن عمران: الزيتون الاخضر دابغ للمعدة مقو للشهوة بطيء الانهضام رديء الغذاء. واذا رمي في الخل كان أسرع انهضاما وأكثر عقلا للبطن. واذا عمل بالملح اكتسب منه حرارة وكان ألطف من المنقع في الماء. والزيتون اذا تمضمض به شد اللثة والاسنان المتحركة. أما الزيتون الاسود النضيج فانه سريع الفساد رديء للمعدة غير موافق للعين واذا تضمد به منع القروح الخبيثة من أن تسعى في البدن والاسود ينقلب الى المرة الصفراء وهو أسرع انهضاما من الاخضر وورقة قابض اذا دق وسحق وتضمد به نفع من النار الفراسية ومنع الحمرة ان تسعى في البدن ومنع النملة والقروح الخبيثة وينفع من الداحس والله أعلم. انتهى.
وفيه يقول محمد بن دانيال:

كـأنمـا الـزيـتـون حـول الـنهـر
بـين ريـاض زخـرفـت بـالـزهـر
عـقـد زمـرد هـوى مـن نـحـر
أو خـرز خـرطـن مـن بـازهـر

رمان دمشق

ومنها الى أرض المزاز والشويكة وهي من محاسن الشام واليها ينسب الرمان الشويكي.

والرمان أصناف: شويكي، بردي، ماوردي، مليسي، كوفي، برجنيقي، سحاقي، شويخي، مصري، سلطاني، محجر، مطوق، تدمري، لقيط، حصوي، طقاطقي، قطى، مشبه، حامض للطعام، لفان، رأس البغل، مجهول.

قال أبو حنيفة الدينوري: شجر الرمان معروف وله نوار أحمر كالازرار ثم يكبر ويفتح كقوالب السكر مشرقة الرؤوس بعضها ما هو مثمن والبعض مسدس وداخل هذا القمع نوار اصفر يعلوها ورق أحمر أرق بشرة من الحرير. وعند السامرة وعباد النار وغيرهم يسمى بالمليح المهجور لكون الناس لم يعتنوا بزهره ولا يحتفلون به كغيره وفيه يقول الامير ابو فراس:

وجـلـنـار مـشـرق ... عـلى اعـالي شـجـره
كـان في رؤوسـه ... احمـره واصـفـره
قـراضـة مـن ذهـب ... في خـرق مـعـصـفـره

وقال ابن وكيع:

وجـلـنـار بهـي ... ضـرامـه يـتـوقـد
بـدا لـنـا في غـصـون ... خضـر من الـرى ميّـد
يحكي فـصـوص عقيق ... في قـبـة من زبـرجـد

اخذه الصفدي:

وجــلـنــار تــبـــدى في غصنــه يـتــوقـد
كــأنــجـم مـن عـقــيـق سمــاؤهـا من زبــرجـد

ومن محاسن ابن دمرداش قوله:

لمــا بــدا الجــلـنــار في الــقــضــب
والــطل يـبــدو عــليـه كــالحــبــب
كــأنمــا أكــؤس الــعــقـــيــق بــه
قــد مـلـئــت مــن بــرادة الــذهــب

قال ابن البيطار: الرمان في الثامنة وكله قابض الا اليسير، لان الرمان منه حامض ومنه حلو ومنه قابض فيجب ضرورة ان تكون منفعة كل نوع بحسب الطعم الغالب عليه. وحب الرمان اشد قبضا من عصارته واشد تجفيفا وقشره اكثر في الامرين جميعا وحينئذ الرمان الذي تساقط عن الشجر اذا عقد كان اجود.

وقال ابن زهر الرمان في الاولى كله جيد الكيموس جيد للمعدة قليل الغذاء والحلو منه اطيب من غيره غير أنه يولد حرارة ليست بكثيرة في المعدة ونفخا، ولذلك لا ينفع المحمومين، والحامض انفع للمعدة الملتهبة، وهو اكثر ادرارا للبول من غيره.

وقال ابن الجوزي الحلو حار رطب وقيل بارد معتدل جيده الكبار منفعته يلين الصدر والحلق ويصلح للسعال والباه ويوافق للمعدة ويحدث نفخا. دفع مضرته بالرمان الحامض يتولد منه غذاء صالح للامزاج المعتدلة وللكهول في الخريف.

والرمان الحامض بارد يابس لطيف قابض جيده الكثير الماء ينفع للكبد ويقمع الصفراء ويمنع سيلان الفضول الى الحشا، خصوصا شرابه، ويدر البول اكثر من الحلو لكنه يضر الصدر والصوت والمعدة ودفع مضرته بالحلواء العسلية يصلح للامزاج الملتهبة وللشباب في الصيف ومن أكل ثلاثة اقماع من الرمان بشحمه فانه دباغ للمعدة وفيه فائدتان: الاولى انك اذا اردت معرفة الرمانة هل حبها فرد أم

ازواج تنظر الى تشريح قمعها ان كان فردا فهي بالفرد وان كان الزوج فهي بالزوج.
الثانية انك تطعم انسانا يبغض انسانا مائتي حبة واربعا وثمانين حبة رمان حلو
وتطعم المبغوض في ذلك الوقت بعينه مائتين وعشرين حبة فانهما يتحابان الى الممات.
نقلته ممن جربه فصح والله اعلم.

ومن لطائف جمال الدين الشواء قوله:

من رام للرمان وصفا يقل   مثل الذي قد قلت اعلانا
حق نضار لم يزل مودعا   فيه يواقيتا ومرجانا

وما أبدع كلام أمير المؤمنين المأمون فيه:

رمانة ما زلت مستخرجا   في الجام من حقتها جوهرا
فالجام أرض وبناني حيا   يمطر ياقوتا بها أحمرا

ومن تشابيه ابي الحسن الجوهري فيه:

وحبات رمان لطاف كأنها
شوارد ياقوت لطفن عن الثقب
اشبهها في لونها وصفائها
بقطرات دمع وردت من دم القلب

ومن محاسن كشاجم قوله:

ومحمرة من بنات الغصون   ويمنعها ثقلها أن تميدا
منكسة التاج في رأسها   تفوق الخدود وتحكي النهودا
تغض فتفتر من مبسم   كأن به من عقيق عقودا

ومن محاسن ابن الرومي قوله:

ولما فضضت الختم عنهن لاح لي
فصوص عقيق في بيوت من التبر
فدرّ ولكن ليس يدنيه غائص
وماء ولكن في مخازن من جمر

ومن معاني ابن حمديس قوله:

قد لاح رماننا بروضته   بين صحيح وبين مفتوت
من كل مصفرة مزعفرة   تفوق في الحسن كل منعوت
كأنها حقة فان فتحت   فصرّة من فصوص ياقوت

ومن عقود ابن لؤلؤ الذهبي قوله:

ورمان رقيق القشر يحكي   نهود الغيد في اثواب لاد
اذا قشرته طلعت لدينا   فصوص من عقيق أو نجاد

ومن مخترعات علي بن سعيد الخيري الانصاري في رمان معشوقه:

وساكنة في ظلال الغصو   ن بخدر تروقك افنانه
تضاحك أترابها عندما   غدا الجوّ تدمع أجفانه
كما فتح الليث فاه وقد   تضرج بالدم أسنانه

ومن محاسن الشام قرية (داريّا) وهي قبلى (الشويكة) وبها السيدان الجليلان (ابو سليمان الداراني) و (ابو مسلم الخولاني) اعاد الله تعالى علينا من بركاتها المتواترة وافاض علينا من بحار علومها الزاخرة.

واليها يتشوق خطيب محاسنها الشيخ جلال الدين ابو المعالي محمد بن احمد سليمان المعروف بابن خطيب داريا من القاهرة المحروسة بقوله:

سقى الله من شرقيّ جامع جلّق
منازل لا يهوى سواها غريبها
منازل لولا الساكنون بها لما
تذكرتها يوما ولو فاح طيبها
وما قل منها اذ رضيت ببعدها
نصيبي ولكن قل مني نصيبها

ومـا لي الى الاوطـان شـوق وانمـا
هـوى كـل نـفس اين حـل حبيبهـا

واليها ينسب البطيخ الداراني.

بطيخ دمشق

قال الرازي) البطيخ الهندي وهو الاخضر يقوي الترطيب مستعد لان يصير بلغما حلوا ولذلك صار نافعا لاصحاب حميات الغب والمحرفة.

وقال (ديسقوزيدوس) الخلط المتولد من البطيخ خلط رديء وكثيرا ما تعرض منه الهيضة ويعين على القيء وقشر البطيخ اذا استعمل عوضا عن الاشنان كفا الزهومة وذهب برائحة الزفر واذا جفف قشره والقى في القدر مع اللحم الغليظ أسرع نضجه وهراه.

وقال (ابن الجوزي): البطيخ الهندي رطب جيده المائي الحلو ينفع الامراض الحارة ويسكن العطش ويسيء الهضم دفع مضرته بالسكر يصلح للامزاج الحارة الصفراوية والشباب في الصيف واذا اخذ من مائه في سكر اوسكنجبين ادر البول وغسل المثانة والكلى وكان اكثر في التبريد وينفع اصحاب اليرقان الحادث عن حرارة الكبد اذا شرب مع الطباشير والسكر وهو مصحح للاخلاط يضر المشايخ والكبد والطحال اذا كانت وارمة والاكثار منه يولد الهيصة وسوء الهضم وينبغي ان يتوقاه اصحاب المزاج البارد فان تناولوه أتبعوه بالعسل. انتهى والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفيه يقول تاج الدين الكندي وأجاد:

انـظر الى الـبـطيـخ في تـشـقـيـقـه
يحـكـي لـدى الـتـشـبـيـه كـل أنـيـق
صـفـائـح بـلـور بـدت في زمـرد
مـركـبـة فيـهـا فـصـوص عـقـيـق

ومن ألغاز الصلاح الصفدي قوله:

ما رباعيّ حروف وهي خمس في البناء
كله نبت ولكن نصفه طائر ماء

ومن لطائف بلدينا الوأواء الدمشقي قوله:

وذات ريق ان ترشفته وجدته احلى من المن
اذا بدت في كف جلابها رأيتها في غاية الحسن
كسلة خضراء مختومة على الفصوص الحمر في القطن

وقال صاحب (مطالع البدور) البطيخ يغسل الطعام غسلا، ويذهب بالاذى اصلا. وكانت ملوك الفرس تأمر برفع الحلوى ايام الرطب الاشنان ايام البطيخ والبطيخ الاخضر بدمشق اصناف. وهو داراني، ومرجي نسبة الى المرج، ودومي نسبة لقرية دوما، وحبشى، وقبلي، وعواميدي، وهو المسمى بالنموس. انتهى.

ومن محاسن الشام قرية (يَلْدا) وهي من القبلة الى شرقي قرية (عربيل) وما بينهما من القرى الجميع برسم زراعة كروم العنب وعرائشه.

وقال صاحب (معاياة العقل في معاناة النقل) التعريش الرفعة لقوله تعالى «وهو الذي أنشأ جنات معروشات» والعرش ارفع من السماء. انتهى.

عنب دمشق

والعنب صنوف بدمشق. فمنها البلدي، خناصري، عاصمي، زيني، بيتموني، قناديلي، افرنجي، مكاحلي، بيض الحمام، حلواني، بوارشي، جبلي، قصيف، ابزاز الكلبة، قشلميش، كوتاني، عبيدي، شحماني، جوزاني، دراقني، مخ العصفور، عرايشي، رومي، شبيهي، نيطاني، عصيري، رناطي، ورق الطير، سماقي، حرصي، بجزع، شعراوي، دربلي، قاري، علوي، عينوني، مورق، مشعر، مسمط، مرصص، محضر، مقوس، حمادي، تفاحي، رهباني، زردي، مبرد، مخصل، مغاربي، شحمة القرظ.

وقال (ديسقور يدوس): الكرم في الخامسة وهو الذي يعتصر منه الشراب وورقه وخيوطه اذا سحقا وتضمد بهما سكنا الصداع. والورق اذا كان باردا قابضا فانه اذا تضمد به وحده او مع سويق الشعير سكن الورم الحار العارض للمعدة والالتهاب العارض لها. وعصارة الورق تنفع الذين بهم قرحة الامعاء والذين يتقيؤون الدم والذين يشكون معدهم والحوامل من النساء. وخيوط الكرم اذا انتقعت بالماء وشربت فعلت ذلك. ودمعة الكرم وهي شبيهة بالصمغ تجمد على القضبان اذا شربت مع الشراب اخرجت الحصى واذا تلطخ بها ابرأت القوابي والجرب المتقرح والذي ليس بمتقرح. وينبغي اذا احتيج الى التلطيخ بها ان يتقدم بغسل العضو بالنطرون واذا تمسح بها مع الزيت دائما حلقت الشعر، وخاصة الدمعة المجموعة من قضبان الكرم الطرية واذا احرقت ورشحت منها الدمعة كما يرشح العرق وهي التي اذا لطخت على الثآليل المسماة مرميقيا(٢٨) ذهبت بها. ورماد قضبان الكرم ورماد شجير العنب اذا تضمد به مع الخل ابرأ المقعدة التي قد قلع منها البواسير وابرأ من التواء العصب وقد ينفع من نهشة الافعى واذا تضمد به مع دهن ورد وسذاب وخل خمر نفع من الورم الحار العارض في الطحال.

وقال ابن الجوزي في لفظة «العنب»: حار رطب والابيض احمد من الاسود والاكثار منه يصدع الرأس ومنفعته يسهل البطن ويسمن، وهو قريب من التين في فضيله على سائر الفواكه. مضرته يعطش ويرخي المثانة. دفع مضرته بالرمان الحامض يتولد منه دم جيد يصلح للمشايخ والامزاج الباردة في الخريف وفي البلاد الشمالية والحصرم ينفع المحرورين ويطبخ منه طعام لذيذ.

وفي اللغة قال الحصرم ثمر الكرم قبل الحلاوة والميم فيه زائدة مأخوذ من الحصر وهو العجز عن النطق، أو من الحصر الذي هو احتباس الباطن وبه سمي الرجل البخيل لمنعه ما في يده وتشديده. والحصير الملك سمي بذلك لامتناعه عن الاعين أو عن الضيم. قال الشاعر:

---

(٢٨) في مفردات ابن البيطار «مرمعا»

وقماقم غلب الرقاب كأنهم
جند لدى باب الحصير قيام

وسميت جهنم «للكافرين حصيرا» لمنعها من فيها أو لتمنعها هي في نفسها قال تعالى «وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا»

فالحصرم طبعه البرد واليبس ولذلك قبض الاجسام ومنع المسام من اخراج ما فيها من الفضل. انتهى كلام (معاياة العقل).

وفيه يقول الطغرائي وابدع:

ترى الثريا من عناقيدها تلوح في أخضر كالغيهب
كم درة فيها وكم لؤلؤ صحيحة التدوير لم تثقب

واستعار هذه الثريا لعرشه ابن تميم فقال:

نفى عني الهجير ظلالٌ كرم
وأمتعني ونزه ناظريا
ولاحت عرشة فرأيت منها
سماء كل أنجمها ثريا

ومن لطائف الصاحب ابن عباد:

وحبة من عنب قطفتها
تحسدها العقود في الترائب
كأنها من بعد تمييزي لها
لؤلؤة مثقوبة من جانب

ومن تشابيه ابن المعتز قوله:

وحبة من عنب من جنة متخذة
كأنها لؤلؤة في وسطها زمردة

ومن محاسنه قوله في العنب الابيض:

شربت حميا الكرم تحت ظلاله
على حسن محبوب الشمائل أغيد
كأن عناقيد الكروم وظلها
كواكب در في سماء زبرجد

ومن أغراضه قوله في العنب الاسود:

حتى اذا حرمريٌّ جاء مرحلة
بفاتر من هجير الجو مستعر
طلت عناقيدها يخرجن من ورق
كما اختفى الزنج في خضر من الازر

وقال ابن الصائغ في العنب العاصمي:

وعاصميّ قد غدا طعمه
أروى من الماء لدى الحائم
أورث خلي أكله هيضة
فاعجب له من مسهل عاصمي

وقال ابن الرومي في العنب الرّازقي:

كأن الرازقي وقد تناهى　　وباهت بالعناقيد الكرومُ
قوارير بماء الورد ملأى　　تشف ولؤلؤ فيها يعوم
وتحسبه من الشهد المصفى　　اذا اختلفت عليك به الطعوم
فكل مجمع منه ثريا　　وكل مفرق منه نجوم

وقال محمد بن عبدالله المحسن الكفر طابي في الاسود:

جاءنا منك تحفة نحن منها　　أبدا في تضاعف السراء
عنب اسود كأن عليه　　حللا من حنادس الظلماء
خلته في خلال أوراقه الخضـ　　ـر ولون اسوداده للصفاء
كقموع على أنامل خود　　لحنّ من كم غادة خضراء

ونقلت من خط التقوى ابن حجة ملغزا في الكرمة:

عناقيد على قضب تدلت
حكى منظومها عقد اللآلي
اذا عصرت ترى في الكأس منها
دواء قد تركب من دوالي

البرهان البهنسي قوله:

اخبروني عن فاضل بأصول
وفروع يسمو على كل فاضل
اسبغ الله ظله فهو ظل
سابغ وافر مديد وكامل
وأبو محجن يقول ادفنوني
تحته ان أتانيّ الموت عاجل
كم الينا قد مد كفا نديا
صير العيش أخضرا في المنازل
نقطة الطل فوقه أوضحته
عند توقيعها به وهو عاطل
ما تبدى لنا بعين ولكن
حرّفته وصحفته الافاضل
فرأينا للترك فيه اسم عين
بفتور الاجفان جاء يغازل
ان تذكره حرف الكل يبدي
كرما والندى من الكف هاطل
أوتؤنثه يقبل الهاء في الحا
ل ومن بعد ذا يرى هو حامل

ويقل شطره لمن عاب منه
لك هم بالعكس عندي حاصل
فيه حلو وفيه مرٌّ ويبدو
عند تحريف عكسه المتماثل
وبلا أول يرى فعل أمر
واقلب الفعل منه فالامر حاصل
هو خشب مسندات ولكن
حال يجلى يبدو رقيق الغلائل

ومن الغمر جسمه الغض يدمى
وتراه من بعد ذا وهو ذابل
واذا ما فرطت فيه تراه
لم يحل عنك وهي نعم الخصائل
ذو بياض وحمرة وكذا لي
فرحا من راحٍ سرت في المفاصل
فتراه يوما عقود عقيق
نظمت سلكها بغير أنامل

وتراه يبدو عقود جمان
ما لها غير ثغر حبي مماثل
وتراه طورا سلافة راح
ولدرّ الحباب فيها حواصل
وعلى عوده يغني علينا
اعجمي به تهيج البلابل
لك منه فواكه وشراب
كل عصر اليك تلقاه واصل

وحلاواته بها كل قلب
كسروه والقلب للكسر حامل
وصله في مصر قليل ولكن
هو بالشام لا يزال مواصل
وتراه بذات عرق مقيما
في نعيم وظله غير زائل
واذا قلت في المخيم بالغو
ر رأيناك فيه أصدق قائل
ولقد جاءنا بعتب لطيف
عند تصحيفه لمن هو هازل
كيف لا والكتاب عن حبتيه
قد أتى مخبرا بتلك الفضائل
فتفكه من حبه في قطوف
دانيات لكل آت وراحل
واقم تحت ظله فهو لغز
ظله ظاهر على كل قائل
ثم دم في الالغاز بالحل والعقد
غنيا اذا اتى اللغز سائل

وزبيبه حار والحامض منه بارد. قال أبو حنيفة الدينوري الزبيب جفيف العنب خاصة، ثم قيل لما جفف من سائر الثمر قد زبب الا التمر فانه يقال تمر الرطب ولا يقال زبب والزبيب هو العنجر.

وقال جالينوس تنضج وتحلل تحليلا معتدلا وهو في السادسة. وعجم الزبيب يجفف في الدرجة الثانية ويبرد في الدرجة الاولى وجوهره جوهر غليظ ارضي كما قد تعلم ذلك من طعمه اذ كان يوجد عيانا وهو يسكن ما يكون في فم المعدة من التلذيع اليسير.

وأفضل أنواع الزبيب اكثره لحما وارقه قشرا وبعض الناس يميل الى الزبيب الكبار الحلو فيخرج عنه عجمه قبل أن يأكله والفاعل لذلك محسن في فعله والكشمش هو الزبيب الصغير الذي لا عجم له وهو اجود.

وقال صاحب (لقط المنافع) الزبيب صديق المعدة والكبد ينفع الكلي والمثانة ووجع الامعاء ويحد الذهن وينفع من قد اجتمعت في بدنه اخلاط بلغمية فاسدة الا أن مضرته احراق الدم، ودفعها بالخيار الاخضر، ينفع الامزاج الباردة والقابض منه قليل اللحم يقوي المعدة ومن أراد حبسه اكل الزبيب القابض بعجمه.

وبالاسناد الى النبي ﷺ قال «نعم الطعام الزبيب يطيب النكهة ويذهب البلغم». قال امير المؤمنين المنصور «كلوا الزبيب واطرحوا عجمه فان في عجمه داء وفي شحمه دواء» هكذا حدثني ابي عن أبيه عن جده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه أمره بذلك. فتنبه والله أعلم.

ويعمل من ماء العنب الدبس والملبن. قال الرازي في (دفع مضار الاغذية) الملبن غليظ مولد للسدد والقولنج بطيء الحركة والنزول رديء في أكثر أحواله واجتنابه اصلح، اللهم الا ان يكون الانسان جائعا. واصلاحه بالفانيذ. ويسرع نزوله. وينبغي ان يحذره من به غلظ في كبده وطحاله ويعتريه الحصا في كلاه، وليس بضار للصدر والرئة. انتهى.

لوز دمشق وزهره

قلت وبين هذه الكروم المذكورة قطع اراض جميعها أصول (لوز) ليس لها نظير في أيام تنويرها وهي من محاسن الشام.

قال ابن زهر: اللوز نوار ابيض وأحمر يقال ان الاحمر ثمرته مرة. وفيه يقول الامير مجير الدين محمد بن تميم:

خرجنا للتنزه في بقاع
يعود الطرف عنها وهو راض

ولاح الزهر من بعد فخلنا
ضبابا قد تقطع في اراض

ومن محاسنه قوله:

يا حسنها دوحة باللوز حالية
يبدو لعينيك منها منظر عجب
كأنها قبة بيضاء قائمة
على عمود ولكن مالها طنب

ومن لطائفه قوله:

بروحيَ من ابصرته متنزها
بروض نضير وشّعته الغمائم
وقد نثرت من فوقه الدوح زهرها
كما نثرت فوق العروس الدراهم

ومن مقاصده قوله:

روض تحلى بالنبات فماله   ولحسنه الاّ السماء نظير
والزهر مثل الزهر تحسب أنها   فيه إذا هب النسيم تنير

ومن بدائعه قوله في الزهر على النهر:

ولما نثرنا الزهر في النهر وانبرت
تجعده أيدي الصبا والجنائب
حسبنا سماء قد تجعد غيمها
ولاحت خلال الغيم زهر الكواكب

وقال:

ابدت غصون اللوز من زهرها
ما كان في الاكمام مستورا

ظـللت يـومـي كـله مـفـكـرا
في عـنـبـر أعـشـب كـافـورا

ومن مخترعاته:

يـا حسن منعطف الحـديقة اذ بـدت
تجـلو لـزائـرهـا سـنى نـوارهـا
وكأنما حـسـد الـنـسـيم ريـاضـهـا
فـاذاع مـا كـتـمـتـه مـن أسـرارهـا

ومن أغراضه البديعة قوله:

لمـا أتـيـنـا الـلوز لم يـبـعـث لـنـا
نـشـرا وطـال مخـافـة ان يجـتـنى
فـشـكـوتـه لـلريـح فـاستـلبـتـه من
اعـلى الـغـصـون وفـرقـتـه بـيـنـنـا

ومن مجونه قوله:

فـديـتـك زهـر الـلوز جـاء مـبـشـرا
بـفـضـل عـلى شـرب المـدام مـعـين
فـقم نـجتـلي بـنـت الـكـروم ونـجـتـني
كـواكـب زهـر مـن سـمـاء غـصـون

وقال ابن فضل الله فيه مع ورقه:

ويـا رب زهـر أبـيض بـين أخـضـر
تـتيـه عـلى كـل الـريـاض ريـاضـه
كـالقـاب نقش اخـضـر فـوق معـصم
صـقـيـل تجـلى بـيـنـهـن بـيـاضـه

ومن النكت البديعة قول ابن نباتة:

أهـلا بـبـشائـرة الصبـا من نـحـوكم
وبمـا عـهـدنـا من تـعـاهـد طـولهـا
أملت عـلى الـزهـر المقـطب ذكـركم
حتى تبـسم ضـاحـكـا مـن قـولهـا

ونقلت من خط الزيني ابن الخراط قوله:

وروض بـه ثـغـر الازاهـر بـاسـم
وطـرف الحيـا من ضحـك نـواره بـاكي
فـلا تحـسبـوا بـرق الـغـمـامـة بـاسـما
هـو المبسم الحـالي ولكـنـه الحـاكي

ومن لطائفه قوله:

مـررت عـلى دوح يـنـوح حمـامـه
ودولابـه يـبكـي عـلى شـاطئ الـنهـر
فـقـلـت عـلى مـا أنـت بـاك ودائـر
فقـال عـلى مـا ضـاع من نشـر الـزهـر

ومن ملحه قوله:

وروضـة قـال لنـا نهرهـا   معـاتبـا إذ رقّ لـلشـارب
أكـون في خـدمتكم جـاريا   ويضحك الزهر على شارب

وأنشدني شيخ الادب العلائي المليك:

بـاكـر الى زهـر الـريـاض واسـقـني
كـاس الـطلا والـراح روح الانـفس
أو مـا تـرى نصب الـربيـع خيـامـه
في الـروض فـوق مـطارف من سنـدس

وأنشدني أيضا:

بادر الى الزهر في عرس الرياض ضحى
فالورق غنت على العيدان في الورق
والريح شبب والاغصان راقصة
والزهر تنثر اوراقا من الورق

ويعجبني في الزهر على النهر:

لم لا أهيم الى الرياض وطيبها
وأظل منها تحت ظل صافي
والزهر يلحظني بثغر باسم
والماء يلقاني بقلب صافي

ومن تحرير القيراطي قوله:

سقيا لاقطار الشآم فكم | من أنجم في روضها نجمت
واذا السماء بارضها نزلت | طلعت زهور نجومها وسمت

وقال محيي الدين بن قرناص:

قد أتينا الرياض لما تجلت | وتحلت من الندى بجمان
ورأينا خواتم الزهر لما | سقطت من أنامل الاغصان

وقال أيضا:

مال القضيب بروضة من سكره
لما سقاه عقاره آذار
حتى اذا سرق النسيم دراهما
من كمه صاحت به الاطيار

وقال أيضا:

هلم يا صاح الى روضة | قد نمقت ازهارها السحب
الزهر فيها شيق مغرم | وجدول الماء بها صب

وقال بدر الدين بن لؤلؤ الذهبي:

هلم يا صاح الى روضة يجلو بها العاني صدا همه
نسيمها يعثر في ذيله وزهرها يضحك في كمه

منه قول أحمد بن أبي صالح فيه:

بادر اليها يا نديمي روضة قد وشحتها انمل الغمام
غنت على العود مطوقاتها فزهرها يرقص بالاكمام

وما أبدع قول يحيى بن هذيل:

نام طفل الزهر في حجر النعاما لاعتزاز الظل في زهر الخزامى
وسقى الوسمي اغضان النقا فهوت تلثم افواه الندامى

وقال ابن قرناص:

لقد عقد الربيع نطاق الزهر يضم لغصنه خصرا نحيلا
ودب مع العشي عذار طل على نهر حكى خدا اسيلا

وقال ابن مليك الحموي:

كأن زهر الربى والطل بلله
ثغر بدا باسما يفتر عن شنب
أو لا فكأس لجين ملؤه ذهب
مكلل من عقود الدر بالحبب

وقال المعوج الشامي في ازراره قبل تفتيحه:

حقاق من النوار مزرورة العرى
على قطع الياقوت واللؤلؤ الغض
فتحن على الاغصان اجفان فضة
وبالآس كانت مطبقات على الغمض

وقال الشيخ ادريس وقد طلع باخوانه الى الزهر:

واخوان صدق قد أناخوا بروضة
وليس لهم الا النبات فراش

فخلتهم والنور يسقط فوقهم
مصابيح تسري نحوهن فراش

وقال العلائي بن أسد في غلام يتفرج في النزهة :

سلطان حسن أفتديه بناظري وأعيذه من نزعة الشيطان
يوما بزهر اللوز لما زارني قضيت ذاك اليوم بالسلطاني

وقال عفيف الدين بن محبوب المغربي في غلام بات تحت شجرة :

وليلة بات بدري [تحت] انجمها
من العشاء نديما لي الى السحر
يحبو بوَرد ووِرد طول ليلته
من خده ولماه العاطر الخضر
حتى اذا اسكرتني خمر ريقته
غنى فاغنى عن المزمار والوتر
ما العيش الا ارتشاف الراح من شنب
يغني عن الراح من سلسال ذي أثر
فأنشأت بنجوم الليل ترجمنا
سماؤها غيرة منها على القمر
فظلت من وجه من أهوى ودارتها
وثغره والذي يهوى من الزهر
ما بين بدرين مكتوم ومشتهر
وبين دربين منظوم ومنتثر

ومن المعاني البديعة قول السلامي :

نسبُ الرياض الى الغمام شريفُ
ومحلها عند النسيم لطيف
والارض طرس والرياض سطوره
والزهر شكل بينها وحروف

وكـأنمـا الـدولاب ضـل طـريـقـه
فـتـراه لـيس يـزول وهـو يـطوف

وقال ابن لؤلؤ الذهبي في مشيب الزهر:

مـا نـظرت مقلتي عجيبـا كـالـلوز لمـا بـدا نـواره
اشتعـل الـرأس منـه شيبـا واخضـرّ من بعد ذا عـذاره

وقال الشاب الظريف محمد بن العفيف:

لئـن شـاب زهـر الـلوز طـفـلا وقلتمُ
بـأن مـشيـب الـطفـل لـيس يجـوز
فـلا تعجبـوا أن شـاب في غـير وقتـه
فـكم نـفـخـت يـومـا عـليـه عـجـوز

واللوز بدمشق أصناف: منه الجبلي، قسطاسي، عربيلي، عقابي، بندقي، شحمي.

قال مسيح [بن الحكم]: اذا أكل اللوز العاقد بقشره الاخضر الطري دبغ اللثة والفم وسكن ما فيهما من الحرارة بالبرودة والعفاصة والحموضة التي في قشرة الخارج قبل أن يصلب ويشتد. واذا اكل اللوز القلب الاخضر من غير قشر وهو طري اصلح المعدة وجلا الاعضاء الباطنة ونقاهاواعان على قذف الرطوبات.

وقال جالينوس: في السادسة والمر في الدرجة الثالثة فالحلو قوته قوة ملطفة يفتح السدد الحادثة في الكبد عن الاخلاط الغليظة، ويجلو النمش، ويعين على نفث الدم والاخلاط الغليظة اللزجة في الصدر والرئة، ويشفي الاوجاع الحادثة في الاضلاع وفي الطحال وفي الكليتين والقولنج، ويؤخذ من أصل شجرة اللوز فيطبخ ويوضع من خارج على الكلف فيدهنه.

وقال ابن الجوزي: اللوز الحلو حار رطب يسمن ويقوي البصر ويفتح السدد

خصوصاً المر. واذا اكل بالعسل أو السكر أسرع الانحدار، وخلطه لطيف، وينفع أصحاب السعال، وسويقه ثقيل. واللوز المرّ حار يابس يزيل الكلف والآثار والنمش وفي اللوز الاخضر يقول ظافر الحداد:

جاء بلوز أخضر أصغره ملء اليد
كأنما زبيره نبت عذار الامرد
جواهر لكنها الـ أصداف من زبرجد

وقال القاضي السعيد هبة الله بن سنا الملك في اللوز الذي بقلبين:

ومُهدٍ الينا لوزة قد تضمنت
لناظرها قلبين فيها تلاصقا
كأنهما حِبان فازا بخلوة
على غفلة من حاسد فتعانقا

ونقلت من خط الرضي المرتضى محب الدين الزرعي قوله:

قم زوّج الصهباء يا ابن السما ولو لحاك العاذل الفاسد
أما ترى الورد أتى شاهدا واللوز في أغصانه عاقد

ونقلت من خط ابن حبيب الحلبي قوله وهو المقدم:

تزويج بنت الكرم بابن المزن قد
نظمت قلائده فقم ياراقد
فالطير يخطب والزهور شهوده
واللوز ما بين الكمائم عاقد

ومن محاسن الشام (مرج الشيخ رسلان) أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته، واجرى علينا من صالح كراماته وفيه أقول:

يا من غدا قلبيه قاسيا قم لولي صادق البرهان
وقف بذل وانكسار وقل بمدمع يا سيدي رسلان

وهو يشتمل على أنهار واشجار ونواعير لها مع النسيم رشاش، وغالب تلك الاراضي تزرع الخشخاش.

الخشخاش

وفيه يقول الموصلي:

وزهر خشخاش بدا احمرا　　كأنه في رونق وابتهاج
اقداح بلور وقد اترعت　　من خمرة لم تختلط بالمزاج

ومن تشابيه ابن دمرداش قوله:

ولما بدا الخشخاش في الروض مزهرا
وقد نظرت شزرا اليه الحدائق
حكى قلعة ابراجها مستديرة
مشرفة دارت عليها الصناجق

وقال منشئه البدري:

خشخاشنا الناشف في　　قشر له لما حضر
حكى دبابيساً أتت　　حملا بايد للتتر

والخشخاش بارد يابس ابيضه اصلح من اسوده يجلب النوم ويمنع النزلة وينفع السعال الحار والنوازل الى الصدر ومن نفث الدم ورطوبات المعدة خلطه غليظ وانفع ما اكل بالسكر أو العسل والاسود رديء مخدر يورث السبات الا ان اجود الاسود المصري وهو ينقي الصدر. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومن محاسن الشام (الوادي التحتاني) وهو شرقي (مرج الشيخ) وهو يشتمل على غياض ورياض، فالرياض هي رياض السفرجل وفيه يقول القيراطي:

فؤادي الى بانات جلق مائل　　ودمعي على انهارها يتحدر
فوائي الى زهر السفرجل شيقا　　اذا ما بدا مثل الدراهم ينثر

غياض يفيض الماء في عرصاتها فتزهو جمالا عند ذاك وتزهر
ترى بردى فيها يجول كأنه وحصباؤه سيف صقيل مجوهر

ومن رقيق شعر يحيى الخباز قوله:

زهـر السفـرجـل بـالجـميـل رأيتـه
قـد فـاق زهـر الـلوز في الاوصـاف
هـذاك يـنـثر لـلنـديـم دراهمـا
ونـثـار ذا بـخـفـايـف الانـصـاف

وهنا نكتة لطيفة وهو ان الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة قدم الى دمشق في ايام السفرجل فاضافه الشيخ جمال الدين يوسف بن غانم في (الوادي التحتاني) لأجل رؤية زهر السفرجل فصادف نهار حر وقيظ شديد فانشد الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة المصري:

قد اشبه الحمام منزل هـونا فالماء يسخن والازاهـر تحلق
فلذاك جسمي منشد ومصحف عرق على عرق ومثلي يعرق

فأجابه الشيخ جمال الدين يوسف بن غانم يقول:

ما اشبه الحمام منزلُ لهونا الا لمعنى راق فيـه المنـطق
فالدوح مثل قبابه والزهر كال جـامات فيـه وماؤه يتـدفق

سفرجل دمشق

ومن الفوائد ان ازهار الفواكه لم يؤكل منها سوى زهر السفرجل لحلاوته وعطريته. وهو اصناف بدمشق: برزي. قصبي. سالمي. صيني. رقي. عباسي. تفاحي. ابو فروة. مجهول.

قال ابن الجوزي: السفرجل بارد يابس ويقال رطب جيده البالغ الكبار، يسر النفس ويدبغ المعدة ويقبض ويقوي ويمنع سيلان الفضول الى الاحشاء ويدر البول

غير انه يحرك القولنج ان اكل قبل الطعام وان اكل بعده لين. ودفع مضرته بالرطب المعسل. والسفرجل المشوي اخف وانفع وطريقته ان يقور ويخرج حبه ويجعل فيه العسل ويطين خرمه ويودع الرماد. يتولد عنه خلط بارد وتوافقه الامزاج الصفراوية وأما السفرجل فأشد تقوية للمعدة وأقل حبسا للطبيعة وكثرة أكله تولد وجع العصب وحبه ينفع من خشونة الحلق ويلين قصبة الرئة ولعابه يرطب يبسها.

وبالاسناد عن طلحة بن عبيدالله قال: اتيت النبي ﷺ وهو في جماعة من أصحابه وبيده سفرجلة يقبلها أو قال يقبلها[٢٩] فلما جلست اليه وجاء بها نحوي قال «دونكها ابا محمد فانه يشد القلب ويطيب النفس ويذهب بطخاء الصدر» وقال ابو عبيد الطخاء أي سحاب وظلمة.

وفي حديث آخر انه قال عليه الصلاة والسلام «اذا وجد احدكم طخاء على قلبه فليأكل السفرجل».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «كلوا السفرجل على الريق». انتهى.

وفيه يقول ابن تميم وأحسن:

حاز السفرجل أوصاف الورى فغدا
على الفواكه بالتفضيل مشكورا
كالراح طعما وشم المسك رائحة
والتبر لونا وشكل البدر تدويرا

ومن أوصاف الطغرائي قوله فيه:

وسفرجل عني المصيف بحفظه
فكساه قبل البرد خزا أصفرا
يحكي نهود الغانيات وتحتها
سرر لهن حشين مسكا أذفرا

(٢٩) لعله «يقلبها»

ومن تشابيه الصنوبري قوله:

لــك في السفــرجــل منظر تحــظى بــه
وتــفــوز مــنــه بــشــمــه ومــذاقــه
يحـكي لـنــا الــذهب المصـفى لــونــه
وتــزيــد بهــجــتــه عــلى اشــرافــه
والـشـكــل مـن أعــلاه يحـكي سـفــله
ثــدي الــكــعــاب الى مــدار نــطاقــه
والـشـكــل مـن سـفــلاه يحـكي ســرة
مــن شــادن يــزهــو عــلى عــشــاقــه

وقال بعضهم:

حــكى ســفــرجــل دوح حــوى جمــيــع المــعــاني
كــأنــه حــين يــبــدو عــلى ذرى الاغــصــان
رؤوس أطــفــال روم لــطخــن بــالــزغــفــران

وأما الغياض فهي غياض الحور، وهو في علو السواري خالص الاعتدال ورقه بوجهين أخضر وأبيض له مع النسيم حفيف لطيف بساق أبيض صقيل ترتاح الانفس اليه.

وفيه يقول شهاب الدين المنصوري:

كــأن الــغــصــون المــائــلات عــرائس
تــثــنــين عــجــبــا في مــلابس اطــلس
كــأن قــدود الحــور حــور وقــد غــدت
تشمــر عن ســاق لــدى الحـوض املس

وبه (غيضة السلطان) وحورها لا يستطيع الانسان أن يدخل فيها بينه لانضمامه ولئلا يضل عن الطريق كأنه سكب بقوالب من الشمع.

متنزه ست الشام

وبهذا الوادي متنزه يقال له (ست الشام) وهو مرجة خضراء ما بين هذه الغياض وبها عين تجري بماء بارد عذب.

ابن حجة:

نقول (ست الشام) لما غازلت بعينها فأنعشت حياتي
وانشقت بمرجها وأبرزت نشرا حلا لانه نباتي
خذني بغير ضرة فانني بديعة في الحسن والصفات
واستجلني عروسة يتيمة شامية وعش بلا حماة

ومن محاسن الشام... وأوله منتهى (الوادي التحتاني) وآخره (البحرة) يقال انه يشتمل على ثلاثمائة وستين قرية تزرع الغلة والحبوبات وفي الغالب الشعير.

وفيه يقول ابن ظافر الحداد:

كأن سنابل حب الحصيد وقد شارفت حين إبانها
كنابيس مظفورة ربعت وارخيَّ فاضل خيطانها

ومن محاسن السلامي قوله:

يا حبذا سنبلة تبدو لعين المبصر
كأنها سلسلة مظفورة من عنبر

و (البحرة) اليها ينصبّ ما يفضل من مياه أنهار دمشق ومنها صيدها من السماء والماء من الطيور والاسماك صيفا وشتاء.

ضمير وبطيخها الاصفر

ومن محاسن الشام (ضمير) وهي من القرى القديمة اتخذها اليونان.

واليها ينسب البطيخ الضميري الاصفر ومن اصنافه السمرقندي، والسلطاني، والشمام.

والبطيخ مشتق من التبطخ واسترخاء الجلد ولين الجسم تحت يد الغامز. ويقال فيه طبيخ وهي لغة فصيحة لانه من الطبخ وهو النضج الذي يتهيج له التماسك وقد يكون لافراط الرطوبة المفسدة لجوهر الجسم، قاله صاحب (معاياة العقل في معاناة النقل). انتهى.

وقال (جالينوس) البطيخ الاصفر في الثانية النضيج وجوهره جوهر لطيف وغير النضيج جوهره جوهر غليظ وفيهما جميعا قوة تقطع وتجلو ويدران البول ويصفيان ظاهر البدن وخاصة ان عمد الانسان الى بزرها فجففه ودقه ونخله واستعمله في الحمام ومعك به بدنه.

وقال (ديسقور يدوس) قشره اذا وضع على العين سكن ورمها وان وضع على نوافيخ الصبيان نفعهم من الورم العارض في ادمغتهم. وبزر البطيخ اجلى من لحمه حتى انه ينفع الكلى التي يتولد فيها الحصى. والخلط المتولد من البطيخ خلط رديء.

وقال (ابن الجوزي) في لفظة (رطب» يفتت الحصى وهل هو حار ام بارد فيه قولان، جيده السمرقندي، منفعته يجلو البشرة ويقطع الكلف والبهق الرقيق عن الجلد. وبزره اقوى جلاء من جلده. مضرته يرخي الجسد ويولد الريح، رفعها بالسكنجبين الصرف. يصلح للامزاج المعتدلة والكهول في الخريف. وأضر ما اكل على الجوع لا سيما اذا نام الانسان عقبه على الجنب الايمن والمشي بعده صالح، واذا اكثر منه ولد هيضة لانه سريع الفساد في المعدة سريع الاستحالة الى ما يصادفها.

وقال (أرسطو): اذا فسد في المعدة البطيخ كان شبيه السم فليتقاياه، وبزره الشربة منه ثلاثة دراهم، فانه يزيد في الباه.

وبالاسناد عن امية بن زيد العبسي ان النبي ﷺ كان يحب من الفواكه العنب والبطيخ.

(فائدة) عن ابي مسهر قال: كان ابي اذا بعثني أشتري البطيخ قال يا بني اعدد الخطوط التي فيها فان تك فردا فخليق بها أن تكون حلوة.

وفيه يقول المشد:

يا حسن اصفر بطيخ مذاقته كالشهد ضيف بما ورد وكافور
مثل الدنانير في لون وفي زنة وفي خشونة حبات وتدوير

ومن بديع الابيوردي قوله فيه:

من رأى اشباح تبر ملئت من ريق نحله
فاجتليناها بدورا وقطعناها اهله

من تفنن ابي طالب بن عبد السلام بن أكبر المأموني:

مخططة مثل الاكف كأنها
من الجزع كبرى لم ترض بنظام
لها حلة من جلنار وسوسن
مغمدة بالآس غب غمام
تمازج فيها لون حب وعاشق
كساه الهوى والبين ثوب سقام
وابدى لها التحزيز تخضيب كاعب
غلامية ذات اعتدال قوام
رياضية مسكية عسلية
لها لون ديباج وعرف مدام
اذا فصلت للأكل كانت أهلة
وان لم تفصل فهي بدر تمام

والبطيخ المخطط الاصفر وهو المسمى في الشام بالشمام وفي مصر يسمونه اللفاح وهو نوع صغير مستدير مخطط بحمرة وصفرة على شكل الثياب العتابي وهو في طبعه ومزاجه متوسط بين البطيخين الا أنه أقل رطوبة من البطيخ الهندي وأغلظ من البطيخ الخفيقي ورائحته باردة طيبة مسكنة للحرارة جالبة للنوم، ولأجل ذلك ظنت عامة المصريين انه نوع من اللفاح الذي هو ثمر اليربوح. والله تعالى أعلم.

وفيه يقول كشاجم:

للأنف والعينين في يربوحه — لون المحب وعطرة المعشوق
صفراء طيبة النسيم كأنها — بلورة محشوة بخلوق

ولأبي طالب فيه:

ومصفرة فيها طرائق خضرة
كما اخضر مجرى السيل من صيب المزن
كحقة عاج زينت بزبرجد
حكت قطع الياقوت في غلف القطن

وقال ابن المعتز في اللفاح:

انظر الى اللفاح في شكله — وحسنه المبدع النقش
مثل عروس خضبت كفها — لم تعلق الحناء بالغش

وقال فيه ظافر الحداد:

اهدى اليّ الظبي لفاحة — قد ضمخت بالمسك والعنبر
كأنما اللفاح في كفه — سبيكة من ذهب أحمر

ومن محاسن الشام (بَرزَة) وهي من متنزهات دمشق التي يرحل اليها وهي شمال ضمير وبها مقام نبي الله ابراهيم الخليل عليه السلام وقدتقدم سبب تسميتها برزة[٣٠] وما أحسن قول الشيخ محمد بن نباتة:

طاب مقام المرء مع شادن — برِّزتِ العيش به برزه
وساعدتني الراح لما انثني — ولان بعد المنع والعزه
فيالها من ربوة خلفه — قد أطلعتني فوقها المزه

(٣٠) انظر ص٢٠.

تين دمشق

واليها ينسب التين البرزي. والتين أصناف: وهو مزي، برزي، ماسوني، رومي، بعلبكي، كعب الغزال، غريب، طيفور؛ شتوي، جبلي، حفيراني، ملكي، عسيلي، مكتّب، مجهول، ورق الطير.

قال (ديسقور يدوس): التين يجلب العرق ويقطع العطش ويسكن الحرارة. واليابس منه مغذ مسخن ومعطش ملين للبطن، ليس بموافق لسيلان المواد الى المعدة والامعاء وموافق للحلق وقصبة الرئة والمثانة والكلى ومن به ربو والذين تغيرت ألوانهم من أمراض مزمنة والذين يصرعون والمجانين.

وقال (جالينوس) في الثامنة وأما التين اليابس فقوته حارة في الدرجة الاولى عند انقضائها وفي الثانية عند مبدئها وله لطافة وبهاتين الخصلتين صار يفي بانضاج الاورام الصلبة ويحللها وقد ينبغي اذا قصدت في استعمالك اياه أن تخلط معه الحنطة في الانضاج ودقيق الشعير للتحليل. والتين اللحيم أكثر انضاجا والماء الذي يطبخ فيه التين طبخا كثيرا فانه يصير شبيها بالعسل في قوامه وقوته معا والتين الطري قوته ضعيفة بسبب ما يخالطه من الرطوبات والنوعان جميعا من اليابس والطري يطلقان البطن. وأما التين البري فقوته حارة محلله، وكذلك التين البستاني اذا لم ينضج، ومزاج شجرة التين حار كما يدل عليه عصارة ورقه فان كل واحد من هذين يسخن اسخانا شديدا وكل واحد منهما يلذع ويجلو جلاء قويا ويحدث في البدن قروحا ويفتح أفواه العروق التي في المقعده ويقلع الثآليل وينثرها نثرا وهو مع هذا يسهل البطن. وقضيب شجر التين له حراقة ولطافة مزاج بحيث انك اذا وضعته على اللحم اليابس في القدر يهريه.

وقال صاحب (اللقط): التين حار رطب منفعته انه يجلو دمل الكلى والمثانة ويؤمن من السموم وهو أغذى من جميع الفواكه. ومضرته أن يحدث نفخا وغلظا دفع مضرته بشراب السكنجبين واستعماله على الريق منفعته عجيبة في تفتيحه مجاري الغذاء خصوصا مع الجوز واللوز. والتين اليابس ينفع الصدر ويجلو. وشراب التين يدر

البول وينفع السعال المزمن وأوجاع الصدر وأورام القصبة والرئة ويفتح السدد والكبد والطحال. وورق التين الاسود بماء المطر يسوّد الشعر.

وبالاسناد الى النبي ﷺ انه اهدي اليه طبق من تين فأكل منه وقال لاصحابه: كلوا فلو قلت ان فاكهة نزلت من الجنة قلت هذه لان فاكهة الجنة بلا عجم فكلوها فانها تقطع البواسير وتنفع من النقرس. انتهى.

وما أحسن قول ابن خفاجة:

وسود الوجوه كلون الصدود ... تبسمن تحت عبوس الغبش
اذا ما تجلى بياض الضحى ... تطلعن في وجهه كالنمش
كأني أقطف منها ضحى ... ثدي صغار بنات الحبش

ومن تشابيه ابن المعتز قوله فيه:

أهلا بتين جاءنا ... مبتسما على طبق
يحكي الصباح بعضه ... وبعضه يحكي الشفق
كسفرة مضمومة ... قد جمعت بلا حلق

وقال مؤلفه البدري رحمه الله تعالى:

نوافج المسك حكى ... تينا تراه في الغلس
أو فم ظبي سال منه ... الريق لما ان نعس

ومن الغاز الصلاح الصفدي قوله:

أي شيء طاب أكلا ... ناعم في الحلق لين
كيف يخفى عنك يوما ... وهو في التصحيف بين

ومن محاسن الشام (القابون) وهي حسنة الماء والهواء وهما قابونان فوقاني وتحتاني وبها ارض (مصطبة السلطان) وهي مصطبة في قدر فدان يصعد اليها في نيف وعشرين درجة من جهاتها الاربع وفيها قصر حسن البناء ينزل به الملوك والسلاطين عند توجههم الى الاسفار.

والى هذا القابون ينسب الخيار.

خيار دمشق

قال اسحق بن سليمان: الخيار ابرد وأثقل واغلظ من القثاء لانه في آخر الدرجة لثانية وبرودة القثاء في وسطها ولذلك صار الخيار أشد تبريدا وتطفئة ومن قبل ذلك صار فعله في توليد البلغم الغليظ والاضرار بعصب المعدة ويفججها أكثر من فعل لقثاء لانه أثقل وأبعد انهضاما وأكثر اتعابا للمعدة، فاذا عسر انهضامه، وبعدت استحالته، تولد عنه الخلط البارد الغليظ، لان سائر الفواكه اذا عسر انهضامها وبعدت استحالتها تعفنت وولدت خلطا رديئا مذموما شبيها بكيفية الادوية المسمومة، واسبقها الى ذلك وأخصها به الخيار لانه اعسر انهضاما بالطبع. والمختار منه ما كان جسمه صغيرا وحبه رقيقا غزيرا متكاثفا. وأفضل ما يؤكل منه لبه فقط لانه أسرع انهضاما وأسهل انحدارا.

وقال الغافقي: يوافق الكبد والمعدة الملتهبتين. ولبه ألطف من لب القثاء واذا أكل اليسير منه طيب النفس.

وقال أمين الدولة بزر الخيار بارد في الثالثة نافع من احتراق الصفراء ومن الورم في الكبد والطحال ومن أوجاع الرئة الحارة وقروحها.

وقال ابن الجوزي: أبرد مزاجا من القثاء وهو رديء للمعدة يهيج القيء ويحدث وجع الخاصرة وينبغي لآكله أن يتبعه بالعسل.

وقال الرازي: الخيار المخلل مبرد مطف جدا بمقدار حموضته وعتقه الا انه طويل الوقوف في المعدة وينبغي أن لا يؤكل مع الالوان الغليظة ويؤكل مع الاسفيذباجات وان سقيت امرأة من قشر الخيار اليابس وزن أربعة دراهم نفع من عسر الولادة. والله أعلم.

وما أحسن قول عسى العالية فيه:

خيـــارة أهـــديت الـينــا ... من كف من يجلب السرورا

كـــأنها اذ قـطعــتُ منهـا ... كـافــورة ألبست حـريـرا

قثاء دمشق

القثاء بارد رطب ينفع الحميات المحرقة ويسكن الحرارة والصفراء والعطش ويدر البول ويحدث وجع الخواصر رديء الكيموس يهيج لمن داوم عليه الحميات.

وقال الرازي في كتابه (دفع مضار الاغذية): القثاء اخف من الخيار واسرع نزولا وهو أيضا يبرد ويرطب وليس يسخن البدن بل كثيرا ما يبرد اصحاب الامزجة الحارة ولا يحتاج المحرورون الى اصلاحه الا ان يكثروا منه. وقد يصلح ما تولد منه في البطن من الثقل والنفخ الجوارش الكموني والسفرجلي ونحوهما. والقثاء والخيار والقرع من طعام المحرورين ويضر المبرودين وينبغي ان لا يكثروا منه ويتلاحقوا ضرره بالشراب القوي.

وفيه يقول ابن المعتز بالله:

انظر اليه انابيبا منضدة ... من الزبرجد خضرا ما لها ورق

اذا قلبت اسمه بانت محاسنه ... وصار مقلوبه اني بكم أثق

ومن لطائف السلامي قوله:

وقثاءة مثل هلال السماء ... ولكنها البست سندسا

عراقية لم يذب جسمها ... هزالا ولم تحس فيمن حسا

زبرجدة حسنت منظرا ... وكافورة بردت ملمسا

على رأسها زهرة غضة ... كنجم الظلام اذا عسعسا

جاء بها مغرس طيب ... من الارض اكرم به مغرسا

لها اخوات لطاف القدود ... اذا ما تبرجن خضر الكسا

محجبة عن شموس النهار ... بأردية كنسيم المسا

تقوس في حين ميلادها ... ولم ار ذا صغر قوسا

يطول اللسان باطرائها ... ويصبح من ذمها اخرسا

ومن محاسن ابن خطيب داريا قوله في الفقوس:

شبهت حين بدا الفقوس مبتهجا
على الرياض وحب فيه ماسور
مخازن من لجين لف ظاهرها
بسندس حشوها حبات كافور

مواطن آدم وحواء

ومن محاسن الشام (بيت لهيا والعنابة) ومن الناس من يقول (بيت الآلهة) وهو مكان مبارك يزار ويقال ان حواء عليها السلام كانت مقيمة بهذا المكان. ونقل بعض المؤرخين قال: كانت حواء عليها السلام في (بيت لهيا) وآدم عليه السلام في (بيت أبيات) وهابيل في (سطرا) وقابيل في (قينية).

فائدة عن عبد الرحمن بن يحيى بن اسماعيل بن عبدالله بن ابي المهاجر قال كان خارج باب الساعات صخرة يوضع عليها القربان فما تقبل منه جاءت نار فاحرقته ومالم يتقبل بقي على حاله وكان هابيل صاحب غنم وكان منزله في (سطرا) وكان قابيل صاحب زرع وكان منزله في (قينية) وكان آدم في (بيت ابيات) وكانت حواء في (بيت لهيا) فجاء هابيل بكبش سمين من غنمه فجعله على الصخرة فاخذته النار وجاء قابيل بقمح غلته فوضعه على الصخرة فبقي على حاله فحسد قابيل وتبعه في هذا الجبل يريد قتله حتى صار من أمره ما صار.

قال بعض المؤرخين وهذه الصخرة هي الآن في الجامع عند باب جيرون بالقرب من(حاصل الزيت) وهي صخرة سوداء [(٣١)] مقرورة. انتهى.

واما (العنابة) فهي محلة الآن تشتمل على دور وقصور والسبب في تسميتها ان كاهنا في زمن الروم كان يتعبد في صومعة بتلك الارض فحصل له علة اشرف منها على الهلاك فنزل عنده تاجر من تجار الروم ومن جملة متجره خمسة احمال عناب،

(٣١) لا يزال هذه الصخرة موجودة في مسجد دمشق على هذه الصفة الى اليوم، والناس يذكرون انها صخرة القربان

فحلها ونشرها، وكانت دمشق ممحلة من العناب وليس يوجد بها حبة عناب، فصار هذا الكاهن يتناول منه وقد طاب له. فلما أصبح جاء اليه الطبيب فوجده قد نصل من تلك العلة ووجد الكاهن في نفسه نشاطا فقال له ما الذي استعملت البارحة قال الشيء الفلاني ونسي ان يذكر له العناب فقال الطبيب ولعلك استعملت عنابا قال نعم ومن اخبرك بذلك قال لعلمي ان علتك هذه لا يبرئها سواه وهو معدوم واختشيت ان اعلق خاطرك به. فزرع الكاهن الارض التي حول صومعته جميعها عنابا وتقرب بها في كل من احتاج منها الى شيء يأخذه حتى يقال ان في الاسلام وجد من ذلك العناب فرد شجرة وبنى ما حولها فسميت تلك المحلة بها والله تعالى أعلم.

عناب دمشق

العنّاب حار رطب في وسط الدرجة الاولى والحرارة فيه اغلب من الرطوبة ويولد خلطا محمودا اذا أكل او شرب ماؤه ويسكّن حدة الدم وحراقته وهو نافع من السعال ومن الربو ووجع الكليتين والمثانة ووجع الصدر. والمختار منه ما عظم حبه وان اكل قبل الطعام فهو اجود.

وقال الاسرائيلي رطبه يتولد عنه دم بلغمي وهو أفضل من يابسه واذا كان نضيجا لين الطبيعة ولا سيما اليابس منه واذا كان غضا عفصا حبس الطبيعة وسكن هيجان الدم وحدته وليس بمسكن للدم الغالب عليه الرطوبة.

وقال الشريف: العناب اذا جفف ورقه وسحق ونثر على الاكلة نفع من ذلك نفعا لا يبلغه غيره من الدواء وشرابه بارد رطب يصلح مزاج الدم ويلطفه من احتراق وينفع من احتراق الكبد وخشونة الصدر ووجعه والسعال اليابس والحصبة والجدري. وصفته يؤخذ مائة حبة يترك عليها خمسة ارطال ماء يغلي حتى ينضج العناب ويصفى من الماء ثلاثة أرطال ويضاف اليه ثلاثة اسنان سكر وبياض بيضتين مضروبة بالماء ويرفع على النار ويحرك حتى ينحلّ السكر فاذا صار له قوام حط. انتهى.

وفيه ألغز الامير سيف الدين المشد:

وأحمر اللون قان يعزى اليه الخضاب
ما فيه عين وناب وفيه عين وناب

ومن معاني ديك الجن قوله بقافيتين:

كأنما العناب في دوحه لما تناهى حسنه وابتسم
اقراط ياقوت تبدت لنا أو أنمل قد قرطت بالعنم

ابن سهل الاشبيلي قبل اسلامه في العناب الاخضر:

هات اسقني القهوة في سبتنا
فان يوم السبت يوم السرور
أما ترى العناب في دوحه
كأنه رطب قلوب الطيور(٣٢)

أراضي سطرا ومقرى

ومن محاسن الشام ارض (سطرا ومقرى) وهما من الاراضي الطيبة الفيحاء.
وفيها يقول جلال الدين بن خطيب داريا:

خليليَّ ان وافيتما الشام بكرة
وعاينتما الشقراء والغوطة الخضرا
قفا واقرءا عني كتاباً كتبته
بدمعي لكم مقرى ولا تنسيا سطرا

وفيها يقول ابن عنين:

(٣٢) يشير الى البيت المشهور:
كأن قلوب الطير رطباً ويابساً
لدى وكرها العناب والحشف البالي

الا ليت شعري هل ابيتن ليلة
وظلك يا (مقرى) علّي ظليل
(دمشق) فلي شوق اليها مبرح
وان لج واش أو الحّ عذول
بلاد بها الحصباء در وتربها
عبير وأنفاس الشمال شمول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق
وصح نسيم الروض وهو عليل

وتلطف شيخ الشيوخ بقوله:

قالوا اما في جلق نزهة   تنسيك من أنت به مغرى
يا عاذلي دونك من لحظة   سهما ومن عارضه سطرا

متنزه اليلك

وبينها متنزه يسمى باليلكي، يجتمع فيه الناس ايام زهر السفرجل ويسيبون الماء تحت اشجاره ويوقدون في ظلمة الشهر قشور البيض ويطلقونها في الماء ويعلقون قشور النارنج موقدة في الاشجار ويضربون الخيام في بستان الحاجب ويقطعون فيه أوقاتا من اللذة والانشراح يعجز الوصف عنها.

وفيها يقول الشيخ علاء الدين بن المشرف المارديني:

انظر الى يلك زهت ازهاره   وزره فالزورة قد تعينت
اشرقت الارض بنور ربها   وأخذت زخرفها وازينت

وأنشدني بدر الدين محمد الازهري الناسخ المعروف بفليفل فيه:

لله من يلك بديع حسنه   قد ضم شملي بالذي اهواه
ما زال يفرش لي بساطا أخضرا   فرعى الاله رياضه وكلاه

وفيه يقول ابن قرناص:

ويلك قد بدت فيه معان تطيب بها الندامى والمدام
يسامرك النسيم اذا تغنت حمائمه ويسقيك الغمام

ومنه قوله فيه:

قد أتينا نبغي زيارة يلك قد حبانا بالجود والاكرام
ناولتنا ايدي الغصون ثمارا أخرجتها لنا من الاكمام

ومن محاسن الشام أراضي المزارع وهي خضرة مع الفلاة وكثرة المياه. ومن خصوصياتها الهليون.

الهليون

قال ابن البيطار في مفرداته الهليون ورقه كورق الشبث ولا شوك له البتة وله بزر مدور اخضر ثم يسود ويحمر وفي جوفه ثلاث حبات كأنها حب النيل صلبة، منه برّي كثير الشوك وهو الذي يسمى بعجمية الاندلس أسرعين.

وقال جالينوس في السادسة وقوته قوة تجلو وليس لها اسخان ولا تبريد ظاهر، ولذلك صار يفتح السدد من الكبد والكليتين.

قال ديسقور يدس : واذا سلق سلقة خفيفة واكل لين البطن وادرّ البول. واذا طبخت اصوله وشرب طبيخها نفع من به عسر البول أو يرقان ومن به عرق النساء ووجع الامعاء.

قال ابن ماسويه : ويزيد في الباه ويفتح السدد التي تعرض في الكبد والكلى، وينفع من به وجع الظهر العارض من الريح والبلغم وينفع من وجع القولنج

قال الرازي : وربما غثى ولا سيما اذا لم يسلق. وليس يحتاج المبردون الى اصلاحه وأما المحرورون فليأكلوه بعد سلقه وتصفيته بالخل والمري.

وقال ابن الجوزي في (لقط المنافع): الهليون حار رطب معتدل يولد المني ويحرك شهوة الجماع ويدر البول وفيه الجلاء وكذلك يفتح السدد ويؤكل مطبوخا باللحم ومصلوفا بالزيت والمري والتوابل وغذاؤه متوسط.

ونقلت من (عجائب المخلوقات) لابن الاثير قال: الهليون قضبان برية ينبت بنفسه في المواضع الندية التي تجمع فيها مياه الامطار، وقد نقل الى البساتين فافلح. وأجوده الغض البستاني المنعطف وهو حار رطب يفتح سدد الاحشاء وينفع عرق النساء مطبوخا وينفع من القولنج البلغمي والريحي وينفع من عسر البول ومن عسر الحبل وينفع لوجع الظهر ويزيد في الباه وبزره جيد لوجع الضرس.

وذكر القزويني قال: حكى لي صديق أربلي قال: بجبال اربل هليون كثير، وكان عامل الناحية يتخذ منه شرابا في كل سنة يبعث به الى صاحب اربل فعمله سنة وبعث به فوقعت الاكراد الحرامية على القفل فنهبوه ورأوا ذلك الشراب في البراني فحسبوه عسلا فأمعنوا في أكله فغلب عليهم الاسهال حتى ضعفوا عن الحركة فمر المسافرون فرفعوا أمرهم لصاحب اربل فارسل اليهم فقبضوا عليهم وأدخلوهم محملين على الدواب، والناس يضحكون منهم ويقولون هؤلاء سكارى الهليون. فتبصر في تأثيره ومنافعه. انتهى.

وفيه يقول كشاجم:

وباقة هليون أتت وهي غضة
فشبهتها تشبيه ذي اللب والفضل
برشق نبال جمعت من زبرجد
مشنفة الاعلى مفضضة الاصل

الطرخون

ومن خصوصياتها الطرخون. قال ابن البيطار: في مفرداته هو نبات طويل الورق دقيق الساق يعلو على وجه الارض نحوا من شبر الى ذراع ونصف وهو من بقول المائدة ينهض ويطيب النهكة واذا شرب الماء عليه طيبه.

وقال صاحب (الفلاحة): الطرخون صنفان بابلي طويل الورق ورومي مدور الورق وهو من بقول الصيف وطعمه حريف لذاع في وسط الدرجة الثانية بطيء في

المعدة عسر الانهضام يجفف الرطوبات وينبغي أن لا يكثر منه المبرودن وهو يطفىء حدة الدم ويقطع شهوة الباه وعسر انهضامه لكثرة دهنيته فلهذا صار بطيء الغذاء ويختار منه ما كان طريا غضا قريبا من ابتداء النبات لان ذلك اقل لدهنيته ويؤكل معه الكرفس لانه يمنع ضرره ويجيد انحداره وانهضامه.

وقال التميمي الطرخون يخدر اللهاة واللسان بما في طبعه من الحرافة الكافورية اللطيفة وفي طعمه شيء من طعم العاقر قرحا وقد ينفع مضغه من يكره شرب الادوية المطبوخة فلا يلبث في معدته ويدخل ماؤه مع ماء الرازيانج الاخضر في الشراب الهندي المسمى شراب الكدر النافع من فساد الهواء المانع لكون الجدري والحصبة وهو من أنفس اشربة الملوك الهندية وملوك خراسان، وهذا من خاصة ماء الطرخون ويمنع من حدوث الوباء فافهم ذلك.

وقال ابن الاثير: الطرخون متى جعل في اصوله الملح جوّده وألقحه.

وعاقر قرحا هي أصل الطرخون الجبلي، وهو حار يابس وفيه قوة مخدرة مجفف الرطوبات اذا مضغ نفع من القلاع ويطيب البوارد اذا ألقي فيها ويقوي المعدة غير أنه يعطش ويحدث وجع الحلق.

الكرنب

ومن خصوصياتها الكرنب، وليس يوجد بالبلاد المصرية، وهو صنفان النبطي وهو المشهور وخوزي وهو غليظ الورق جدا شديد الخشونة. والكرنب النبطي الاندلسي وهو شبيه بالسلق صغير القلوب وأشد رخوصة من القنبيط.

وقال جالينوس: الكرنب في السابعة، وقوته قوة تجفيف اذا أكل واذا وضع من خارج، ولكنه ليس بظاهر الحدة والحرافة بل قوته قوة تبلغ به الى ادمال الجراحات واشفاء القروح الخبيثة والاورام التي قد صلُبت وصارت في حد ما يعسر انحلاله.

وبزر الكرنب يقتل الدود اذا شرب وقضبان الكرنب اذا احرقت يصير منها رماد

يجفف تجفيفا شديدا حتى أن قوته تكون قوة محرقة، ومن أجل ذلك صاروا يخلطون معه شحما عتيقا ويستعملونه في مداواة وجع الجبين اذا عتق وفي سائر العلل الشبيهة بهذا النوع من الوجع لانه يحلل تحليلا قويا.

وقال ديسقور يدوس: في الثانية ان سلق سلقة خفيفة وانحل سهل البطن وان سلق سلقا جيدا أو سلق مرتين بماء بعد ماء امسك البطن ولقد زرع بمصر فما اكل لمرارته ولا نبت بعد جهد واذا أكل الكرنب نفع من ضعف البصر والارتعاش، واذا اكله المخمور سكن خماره. وعصارة الكرنب اذا خلط بالشراب وشرب نفع من لسعة الافعى واذا خلط بدقيق الحلبة والخل وتضمد به نفع من النقرس ووجع القروح الوسخة العميقة واذا احتملته المرأة مع دقيق الشيلم ادر الطمث. وورق الكرنب اذا دق ناعما وتضمد به وحده أو مع سويق نفع من كل ورم من أورام البدن ومن الاورام البلغمية ومن الحمرة ويبرىء الشري والجرب المتقرح. واذا خلط بالملح قلع النار الفارسية ويمسك الشعر المتساقط واذا أكل الورق نيئا مع الخل نفع المطحولين واذا مضغ ومص ماؤه اصلح الصوت المتقطع وزهره اذا عمل منه فرزجة واحتملته المرأة بعد الحبل قتل ما في بطنها.

وقال ارجنجانس: الكرنب ينفع السعال القديم والنقرس اذا صب طبيخه على المفاصل وان أطعم الصبيان نشأوا نشوءاً سريعا وعصيره ان شرب بالنبيذ أياما ذهب بوجع الطحال. ورماده يبريء حرق النار ويبريء عصيره الحكة والجرب وان خلط بالزاج والخل وطلي به على الجرب والبرص نفع وأكله يجلب النوم ويصفي الصوت وينفع من عضة الكلب.

وقال الرازي: مرق الكرنب ينفع من السعال ومن وجع الظهر العتيق ووجع الركبة.

وقال مسناوس: أكل الكرنب يحسن اللون وان سلق مرتين ثم طيب بكمون وزيت وملح وفلفل وغلي عليه نفع اصحاب العفر في الامعاء. والماء الذي يغسل الكرنب به او يطبخ فيه ينقي البدن ويخفف الصداع وينقي العينين اللتين يجد فيهما

صاحبها ظلمة من رطوبة أو بخار غليظ ، وينفع الاحشاء ولا سيما الطحال الغليظة، والذين غلبت عليهم السوداء الا انه ينقي العروق.

وقال ابن ماسويه الكرنب مولد للمرة السوداء والدم العكر وان طبخ باللحم السمين قلت غائلته. وفي الكرنب الشامي صنف آخر سمي الموصلي وله ورق اخضر جعل مثل ورق الكرنب الاندلسي غير انه منبسط على وجه الارض وينبت بمقامات العجوز. وبدمشق كرنب آخر بري ثمره مدوّر ابيض اللون على هيئة الفلفل الابيض وهو ينفع من نهش الافاعي، وعروقه اذا جففت وسحقت وسقي منها وزن درهمين بشراب ينفع من نهش الافاعي.

وأما القنبيط الذي يدعى عند المصريين بالكرنب فهو اغلظ واقوى وابطأ في المعدة من الكرنب، وورقه الناشيء حواليه أقل ضررا وأصلح من جمارته الصفراء الناشئة في وسطه للمائية الغالبة عليه. واجتنابه كله احمد لتوليده الدم العكر، والاكثار منه يضعف البصر، وهو مطلق للبطن، كثير البخار يورث احلاما رديئة وسددا ومرة سوداء، واصلح ما يؤكل مطبوخا باللحم السمين، وبيضه الاصفر الذي يسمى جمارة يهيج القراقر والنفخ ويزيد في المني.

وقال الطبري القنبيط بارد يابس غليظ عسر الانهضام رديء الغذاء واذا طبخ بيضه الذي هو ثمره وصب ماؤه ثم اكل بالخل والزيت والمري زاد في المني.

وقال الرازي : لمائه خاصية في منع السّكر. وخاصية بزر القنبيط افساد المني اذا احتملته المرأة بعد الطهر من الطمث.

وقال الاسرائيلي واذا شربه المخمور حلل خماره واذا شرب قبل الشراب منع السكر. انتهى والله أعلم.

وفيه يقول مؤلفه:

بغضي في قنبيط قد حكى والفكر صارم
الرؤوس من يهود قطعت تحت العمائم

الباذنجان الأحمر

ومن خصوصياتها الباذنجان الاحمر الرفيع والابيض القليل البزر الرقيق القشر.
قال ابن البيطار: اسمه فارسي معرب ويمسي بالعربية الارنب.

قال الرازي: جيد للمعدة التي تقيء الطعام ورديء للرأس والعين يولد ماء اسود يسير المقدار ويتولد عنه كثير القوابي والبواسير والرمد والامراض السوداوية ويفتح سدد الكبد والطحال واذا سلق ثم قلي بدهن اللوز ذهب عنه أكثر حدته وحرافته، والمشوي منه أصلح للمعدة التي تقيء الطعام، والمطبوخ بالخل أوفق للمحرورين واصحاب الاكباد الحارة والاطحلة الغليظة.

وقال ابن ماسويه: والاحمد في اتخاذه ان يقشر ويشق ويحشى ملحا ويترك وقتا طويلا في الماء البارد ثم يصب ذلك الماء عنه ويعاد عليه ماء آخر ثم يسلق ويطبخ بالحملان والجدايا والدجاج وان اكل مقلياً بسيرج وخل ومري يمتص بعد اكله ماء الرمان. وكثرة اكله تولد السرطانات والصلامات والجذام والسهر وتكثر البلغم والبواسير الا ان اقماعه اذا جففت في الظل وسحقت نفعت البواسير بعد ان تطلى بدهن مسخن.

وقال بعضهم في وصف الباذنجان يشبه انوف الرنج واذناب المحاجم وبطون العقارب وبزر الزقوم. فقيل له انه يحشى باللحم المقلي بالزعفران فقال لو حشي بالتقوى ما افلح ابدا.
وقال الشاعر:

واذا صنعت غذاءنا   فاصنعه غير مبندجي
اياك هامة اسود   عريان اصلع كوسجي

وقال مؤلفه البدري فيه وهو مقلي:

بذنجة شبهتها   لما قلاها واخترم
بسقط زنج راقد   وزند من بعض الخدم

وقال فيه ايضا:

بذنجكم كزنوج كواسج في التئام
خضر الطراطير هاموا بالرقص تحت الخيام

الكراث

ومن خصائصها الكراث. قال الغافقي الشامي صنفان منه صنف أعناقه طويلة ورؤوسه صغيرة، وصنف منه اعناقه قصيرة ورؤوسه مدورة كبيرة اطيب طعما من الاول هو المسمى بالقفلوط وهو مما يؤكل أصله دون فروعه وهو في الثانية نافخ رديء الكيموس تعرض منه احلام رديئة ويدر البول ويلين البطن ويلطف ويحدث غشاوة في العين ويدر الطمث ويضر بالمثانة المتقرحة والكلى واذا طبخ بماء الشعير اخرج الفضول التي في الصدر وورقه اذا طبخ بماء البحر والخل وجلس النساء فيه نفعهم من انضمام فم الرحم والصلابة العارضة له وقد يسلق سلقين بماء بعد ماء ثم ينقع بماء الورد حتى يحلو طعمه ويقل نفخه

وقال الرازي: يهيج الباه والانعاظ وهو أسكن وأقل في الحدة والاعطاش من البصل، وأغلظ جرما وأبطأ نزولا وانهضاما

وقال ابن ماسويه[٣٣] ينفع من القولنج، واذا أكل الكراث أو طبخ نفع من البواسير الباردة وورق الكراث للشامي من خاصيته النفع للرحم التي فيها رطوبة تزلق الولد. وكراث المائدة المسمى عند أهل العراق بالقرط وفي الشام بالبقل وفي الحجاز بالكراث.

وقال ابن اسحق[٣٤]: هو الكراث النبطي ويخرج من تحت الأرض أوراقا ثلاثا دون اعناق في لون ورق الكراث الاندلسي وشكله الا أنه دقيق جدا وما تحت الارض من أصله قدر عقدتين أو ثلاث، أبيض مستطيل غير مستدير:

(٣٣) في (مفردات ابن البيطار) : «ابن ماسة».

(٣٤) في (مفردات ابن البيطار): ابن مسحون قال علي ابن محمد.... الخ».

ديسقوريدوس: والكراث النبطي هو اشد حراقة من الكراث الشامي ، وفيه شيءمن قبض، ولذلك ماؤه اذا خلط بالخل ودقاق الكندر قطع الدم وخاصة الرعاف، ويحرك شهوة الجماع، واذا خلط بالعسل ولعق كان صالحا لكل وجع يعرض في الصدر وقرحة الرئة، واذا أكل نقى قصبة الرئة، واذا أدمن أكله أظلم البصر، وهو رديء للمعدة، واذا تضمد به مع السماق قطع الثآليل ويبري الشري، واذا تضمد به مع الملح قلع خبث القروح واذا شرب من نوره وزن درهمين مع مثله من حب الآس قطع نفث الدم من الصدر

وقال ابن ماسويه: حار في الدرجة الثالثة يابس في الدرجة الثانية، مصدع، يولد بخارا رديئاً ويري أحلاما مرعبة، ينفع من السدد العارضة في الكبد المتولدة من البلغم وان سلق وطحن وأكل وضمد به البواسير العارضة من الرطوبة نفع منها.

وقال الرازي: مفتق لشهوة الطعام منغط معين على الاستكثار من الباه، ولا يصلح لاصحاب الامزجة الحارة ومن يسرع اليه الرمد والامتلاء الى راسه.

وقال اليهودي: خاصيته افساد الاسنان واللثة.

قال مونس اذا ضمد به على موضع لسعة الافعى نفع منها.

ماسرجويه وبزره اذا دهنت به المقعدة أذهب البواسير وأكله يخرب الاضراس وينثرها غير انه اذا وجد في الامعاء بلغها أساله، واذا شرب من بزره ملعقة أحدث انتشارا صحيحاً. انتهى.

وأما الجزر قال ابن الجوزي: حار رطب، يحرك الباه، ويدر البول، بطيء الهضم دفع مضرته انضاجه وفيه نفخ. اصلاحه بالخل والمرى والخردل.

ومن تشبيه ابن المعتزل قوله:

أنظر الى الجزر الذي يحكي لنا لهب الحريق
كمدية من سندس وبها نصاب من عقيق

الزعتر

وبها الزعتر . قال ابن الاثير: الزعتر نوعان بستاني وبري . وهو حار يابس محلل ملطف، يسكن وجع الضرس اذا مضغ، وينفع من أوجاع الوركين، وينفع الكبد والمعدة ويخرج الديدان، ويدر البول، ويمري ويشهي الطعام، ويحلل الرياح، وقدر ما يوجد منه مثقال واكله ينفع من غشاوة الحادث من رطوبة، ودهنه ينفع الصدر والرئة؛ وينفع من لسع الحيات لا سيما النديّ منه وذكروا أن القنفذ وابن عرس اذا تناهشا الافاعي والحيات تعالجا بأكل الزعتر البري . والله اعلم .

وفيه يقول ابن وكيع :

زعتر بل ادق من أرجل النمل وازكى من نفحة الزعفران

كسطور كسين نقطا وشكلا من يدي كاتب لطيف المعاني

الفجل

وبها الفجل حار يابس محرك الباه رديء الكيموس يهضم ولا ينهضم لانه يهضم بجوهره اللطيف فاذا انحل ذلك الجوهر بقي جوهره الكثيف الذي فيه عاصيا على القوى الهاضمة لزجا سريعا الى التعفن رديئا للمعدة يدر البول ويجلو المثانة فاذا أكل على الريق ازال البلغم وقوّى المعدة لكنه يضر الرأس والاسنان والعين، لكن ماءه يجلو العين واذا طلي بمائه البهق زال ومن طبخ الفجل باللبن والحليب وشربه تنظفت مثانته من الرمل والحصى . والمطبوخ من الفجل يصلح للسعال المزمن العتيق والكيموس المتولد في الصدر، واذا اكل الفجل قبل الطعام لين البطن وانفذ الغذاء، واذا اكل بعده صار الطعام صافيا ولا يدعه يستقر . وماء ورقه يفتح سدد الكبد ويزيل اليرقان وينفع من نهش الافاعي . وان وضعت شدخة منه على العقرب ماتت، وماؤه اقوى من ذلك، وأين لدغت العقرب من أكل فجلا لم تضرَّه . ونور الفجل يحلل الرياح وينفع من النمش الكائن في الاعضاء وآثار الضرب والكلف . ومن أكل بزر الفجل مع العسل ذهب بعض فؤاده . انتهى .

السذاب

وبها السذاب. حار يابس ينفع وجع الصدر ويقاوم السموم ويشرب من يحذر السم من بزره وزن درهم مع ورقة شراب يجفف ويقطعه ومن أغلى السذاب في سيرج وطلى به جسده لم يكن في ثيابه قملة ومن آلمه ضرسه فأخذ ورق السذاب مع زبيبة سوداء فمضغه سكن.

النعناع

وبها النعناع حار يابس وفيه رطوبة تحرك به شهوة الجماع ويقوي المعدة ويسخنها ويجود الهضم ويسكن الفواق الحادث عن امتلاء وينفع اليرقان وخصوصا بشرابه واذا تركت منه طاقات في اللبن لم يتجبن.

الرشاد

وبها الرشاد حار يابس ملطف يقتل الدود ويحلل الرياح ويقطع البلغم والرطوبة الا انه يضر المعدة والمثانة.

البقلة

وبها البقلة الحمقاء باردة رطبة تنفع الضَّرَس والصداع الحار تضر المني وتقطع شهوة الجماع، دفع ضررها بالجرجير تصلح للامزاج الحارة والشباب في الصيف، واذا شرب بزر البقلة مع السكر نفع السعال الحار، والاقباط تسميها رجلة.
وفيها يقول السراج الوراق:

وأحمقٌ أضافنا ببقلة
لنسبة بينهما ووصله
فمن أقلُّ أدبا من سفلة
قد مد ما بين الضيوف رجله

الاسفاناخ

وبها الاسفاناخ حار معتدل رطب وقيل بارد ينفع من السعال وخشونة الحلق والصدر ويقمع الصفراء والمرار مضرته أنه يسيء الهضم دفعها بمعجون الورد.

الكرفس

وبها الكرفس حار يابس يحلل الرياح ويسكن الاوجاع وينفع من عسر البول ويخرج المشيمة ويهيج الباه وينفع المعدة وبردها والسعال والطحال وينقي الكلى والمثانة ويفتت ويصدع الدماغ الا أن يضاف اليه الخس يصلح للامزاج الباردة والكهول في الشتاء وأكله في الشتاء يذهب البلغم.

السلق

وبها السلق الاحمر والابيض حار رطب وقيل بارد ملين للطبيعة وبه تلطيف يفتح به سدد الكبد والطحال ينبغي لمن يأكله أن يطيبه بالخل والخردل وأصل السلق مولد البلغم لا يوافق المعدة وماؤه يذهب الحرارة من الرأس ويقلع الثآليل. مضرته يحرق الدم. دفعها... والمري ينفع من الكلف اذا استعمل ورقه ضمادا بعد غسل الموضع بنطرون ومن طلا رأسه بالسلق زالت الصيبان منه وأسودّ شعره وتجعد وطال.

الهندباء

بها الهندباء باردة رطبة وقيل يابسة جيدها الرطب يقوي المعدة ويفتح سدد الكبد والطحال والاحشاء والعروق ويقطع حرارة الدم ويبرد الكبد الحارة وانفعها للكبد أمرّها وماؤها المعتصر ينفع اليرقان الذي من السدد مضرتها تبطيء بالهضم، دفع مضرتها بالرشاد، تصلح للامزجة الحارة والشباب في الصيف.

البصل

وبها البصل. حار يابس وقيل رطب ينفع من تغير المياه ويفتق الشهوة ويهيج الباه ويزيد في المني ويحسن اللون ويقطع البلغم وينظف المعدة إلا أنه يثير الشقيقة ويصدع الرأس ويولد رياحا ويظلم البصر، وكثرة أكل البصل تورث النسيان وتفسد العقل، دفع مضرته الخل واللبن، يصلح الامزاج الباردة، واذا دق وعجن بالعسل ووضع على الكلف الغليظ والقوابي والبهق الاسود قلع ذلك، واذا دق ناعما وطلي به موضع الشعر نفع داء الثعلب، وان أحرق كان أنفع، وينفع من نهش الحيات والكَلْب الكَلِب

الثوم

وبها الثوم حار يابس سخن مجفف جيده القليل الحدّة، ويقوي المعدة، ويسخن المعدة مع البدن، ويقطع البلغم ويحل النفخ، ويصفي الحلق، ويحفظ صحة البدن وينفع من تغيرت عليه المياه، والسعال المزمن، وأوجاع الصدر من البرد، ويخرج العلق من الحلق، وينفع من السموم ويفتح السدد، الا أنه يهيج الصفراء ويضر الدماغ ويصدع ويضعف البصر والباه، ولا يصلح بأن يأكله معتقل ولا مصدع وخلطه غليظ، والنيء منه يقتل الدود، والمطبوخ ينظف المثانة. ومن أخذ شيئا مطبوخا منه أو مقلياً بسيرج وتحمل به ازال الحكاك عنه ونفعه من عرق النساء، ومن أكل الثوم ولدغته العقرب لم تضره وان طلي مكان اللدغة بالثوم خرج السم من اللسع، واذا مضغ على سن سكن ألمه، ومطبوخه ومشويه يسكن وجع الاسنان، ورماد الثوم اذا طلي بالعسل على البهق والقوابي نفع، ومن أراد أن يذهب ريح الثوم من فيه فليمضغ دقيق الباقلاء.

الكسفرة والكراوية والكمون

وبها الكسفرة (٣٥) اليابسة حارة مع قبض وقيل باردة (٣٦) تقوي المعدة المحرورة

(٣٥)وردت في كتب النبات والعقاقير بلفظ كسفرة وكسبرة وكزبرة.

(٣٦) هذا قول (ديسقور يدوس) وقد تكلم على ذلك ابن البيطار في لفظ «كزبرة» من مفرداته بمقالة تدل على فضل وعلم.

لكنها تولد ظلمة البصر، ولا ينبغي الاستكثار منها لانها تحرق الدم وتعفنه وتقطع الشهوة وتفسد الدهن والرطوبة وربما قتلت.

وبها الكراوية حارة يابسة تحلل الرياح وتقتل الدود العارض في الامعاء وتسمن وتنفع الخفقان والمغص وترخي الرئة، دفع ضررها بالشعير. انتهى.

وبها الكمون كالكراوية وأقوى في تحليل الريح، حار في الثانية يابس في الثالثة اذا غسل الوجه بمائه صفاه فان استكثر منه صفر اللون واذا سخن بالخل وشم قطع الرعاف.

القرع

وبها القرع. قال جالينوس السابعة مزاجه بارد رطب، وهو منهما في الدرجة الثالثة، ولذلك صار عصير جرادته نافعا من وجع الاذن الحادث عن ورم حار متى استعمله الانسان مع دهن ورد، وكذلك جملة جرم القرع وما دام نيئا فطعمه كريه ومضرته للمعدة عظيمة. وقد رأيت انسانا أقدم على أكله نيئا فاحسّ في معدته بثقل وبرد وأصابه عليه غثيان وقيء. فاذا سلق فانه يغذو غذاء رطبا وانحداره عن المعدة سريع لرطوبته ولما فيه من الملاسة والتزليق، واذا انهضم فليس خلطه برديء متى لم يسبق اليه الفساد قبل انهضامه والفساد يعرض له من قبل ابطائه في المعدة وعدم انحداره، ومهما اكل معه انقلب خلطه وتشبه به.

وقال ديسقور يدوس: يسكن الاورام البلغمية، واذا طبخ كما هو وعصر وشرب ماؤه بعسل وشيء يسير من نطرون اسهل البطن اسهالا خفيفا.

وقال الرازي: بارد مولد للبلغم وهو طعام المحرورين يطفىء ويبرد ويسكن اللهب والعطش وينفع من الحميات، واذا طبخ بالخل نقص من غلظه وبطؤ هضمه وكان اشد تطفية للصفراء والدم، الا أنه في هذه الحالة لا يصلح لاصحاب خشونة الصدر والسعال وأما من به سعال وحمى فليطبخه مع كشك الشعير ومع الماش المقشر

ودهن اللوز الحلو وليجتنبه المبرودون والمبلغمون لانه يولد فيهم القولنج الغليظ، وان اكلوه فليأكلوه مطبوخا بالزيت مطيبا بالفلفل وليشربوا عليه الشراب الصرف، فاذا وضع مع اللبن يصلح منه الخردل، واذا وقع في الخل فانه يصلح غلظه لكن لا يصلح برودته.

وقال اسحق بن سليمان: اذا لطخ بالعجين وشوي في الفرن أو التنور واستخرج ماؤه وشرب ببعض الاشربة اللطيفة سكن حرارة الحمى الملتهبة وقطع العطش.

وقال حبيش بن الحسن: اذا شرب من مائه المستخرج بالشيء فيكون مع عشرين درهما من الجلاب اوزن عشرة دراهم من السكر الابيض، ومقدار ما يشرب منه أربعة آواق الى نصف رطل وحميته تسقط الشهوة ودهنه في نحو دهن البنفسج جيد للحر والسهر.

وقال اسحق بن عمران: ماؤه يسكن الصداع اذا شرب أو غسل به الرأس، وقد ينوم من يبس دماغه اذا قطر منه في الانف وهو يلين البطن كيف استعمل ولم يداوَ المبرسمون والمحرورون بمثله ولا أعجل نفعا منه.

وقال الشريف: ماؤه المشوي بالعجين اذا اكتحل به يذهب صفرة العين الكائنة من اليرقان، واذا اكتحل بماء زهره اذهب الرمد الحار، وقشر القرع اليابس اذا أحرق وذر على الدم المنبعث قطعه، واذا أحرق وسحق وعجن بخل وطلي به البرص نفع منه، واذا قشر حبه ودق واستخرج دهنه انتفع به من وجع الاذان ووجع الامعاء الحارة ومرقة الفروج المطبوخة بالقرع منعشة للمغشي عليهم من حدة الاخلاط الصفراوية في الحميات وحراقة قشره اليابس تنفع من قروح الاعضاء اليابسة وهي جيدة لتطهير الصبيان ومن قروح الذكر وتجففها.

وعن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ «اذا طبختم قدرا فاكثروا فيها من الدبّاء فانه يشد قلب الحزين» انتهى.
وانشدني شيخنا العلامة شهاب الدين المنصور:

يـا عين أعيـان الزمـان ويا　　شيخ الشيوخ ومحيي الشـرع
ما قرع البـاب عليك امـرء　　الا وذاق حـلاوة الـقــرع

كمأة دمشق

وبها الكمأة وهي من خواصها. قال ابن البيطار في الثانية وهو أصل مستدير لا ورق له ولا ساق، لونه الى الحمرة يؤخذ في الربيع ويؤكل نيئا ومطبوخا.

وقال جالينوس: في الثامنة قوام جرم الكمأة من جوهر أرضي وهي غليظة الكيموس قليلا الا أنه ليس برديء تورث عسر البول والقولنج واجودها ما كان من موضع فيه رمل قليل والكمأة الحمراء قاتلة واجود الكمأة الشديدة التلزز والاملاس والميل الى البياض وأما المتخلخل الرخو فرديء جدا في المعدة الحارة يولد الاوجاع في أسفل الظهر والصدر ويولد السدد، وماؤ ها يجلي البصر وادمان اكلها يورث السكتة والفالج وهي بطيئة الانهضام وينبغي لآكلها ان يقشرها وينقيها تنقية كبيرة ليصل اليها الماء ويخرج غلظها وربما تدفن في الطين الحار يوما وليلة ثم تغسل ثم تسلقها بالماء والملح والفودنج والسذاب سلقا بليغا ثم تؤكل بالزيت الركابي والمري والسعتر والفلفل. واليابسة من الكمأة أبطأ في المعدة وأكثر ضررا وينبغي ان يشرب عليها النبيذ المعسل الصرف ويؤخذ الترياق والزنجبيل.

وقال ابن الجوزي: الكمأة نبات يتولد من عفونة الارض الكثيرة الامطار يولد البلغم الشديد والاسود اشد غلظا يولد السوداء ويفسد النكهة وهي من الاغذية الرديئة لكن ماءها يجلو العين لقول النبي ﷺ «الكمأة من المنّ وماؤ ها شفاء للعين» اخرجاه في الصحيحين. انتهى.

وقال الغافقي في مفردات ابن البيطار: ان من أكلها ولسعه شيء من الهوام ذوات السموم مات ولم يخلصه الدواء البتة. انتهى.

اللوبياء والأرز

وبها اللوبياء. قال ابن الجوزي: منه أبيض ومزاجه بارد يابس، ومنه أحمر وفيه حرارة ونفخ، جيده الاحمر يدر البول ويولد خلطا ويغشي ويولد احلاما رديئة رفعها بالزيت والمري والخردل ومنه غليظ وقليل صاف ينفع الامزاج الباردة اليابسة يصلح للكهول نفخه اقل من الباقلاء.

وبها الأرز، حار قيل بارد منفعته من لذغ المعدة مضرته القولنج لانه يحبس البطن دفعها أن يطبخ بالدهن واللبن. واذا طبخ الارز بعد أن يغسل بدهن اللوز أو السيرج أو السمن أو الالية لم يحبس البطن بل يسكن الوجع العارض في المعدة والامعاء وغذاؤه محمود معتدل يصلح للامراض الحارة الرطبة، واذا طبخ باللبن الحليب ولد السوداء لتوليده خلطا غليظا لكنه ينفع الباه.

الباقلاء والذرة والدخن

الباقلاء. بارد رطب وقيل يابس، اجوده الابيض السمين وارداه الطري، يحدث الحكة ويولد البلغم ودفع مضرته بالسعتر والملح ويؤكل بعده الزنجبيل، والباقلاء تنفع من السعال. مضرته يبلد الحواس دفعها باطالة نقعه واجادة نضجه وأكله بالفلفل والملح والسعتر مع الادهان لما فيه من النفخ والترهل والنوم والكسل والسدد يولد الاخلاط الغليظة ويرى أحلاما رديئة واذا طبخ بقشره كان أردأ وأكثر توليدا للرياح والباقلاء وتجلو البهق من الوجه

وفيها يقول القاضي جمال الدين ابو الحسن علي بن منصور الخزرجي صاحب (غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات) وقد سلق قدامه الباقلاء:

وقدر بها تسلق الباقلا ... قبيل الصباح لمن قد خمر
أتينا بها وسط زبدية ... فكان كأحسن شيء حضر
فصوص من العاج مطبوقة ... لها غلف من أديم البشر

ومن مجون ابن العطار الدنيسري قوله:

شاقني حارس فول زهره حاكى عيونك
وابتغى التعريض قلنا لعن الله قرونك

ومن بديع ابن وكيع قوله:

إن للباقلاء نورا ظريفا
جلَّ في الحسن عن بديع مثال
قد حكى ضحوة لنا اذ تبدى
سرر الروم ضمخت بغوال

ومن بديع المذكور ومقاصده قوله فيه:

فصل الربيع بدا لنا بنسيمه يدعو فتسرع نحوه الخلق
زهر الباقلا به فكأنه[37] بين الرياض حمائم بلق

ومن تشابيهه الفائقة قوله:

كأن ورد الباقلاء اذ بدا
لناظريه اعين فيها حور
كمثل الحاظ اليعافير اذا
روّعها من قانص فرط الحذر
كأنها مداهن من فضة
اوساطها فيها من المسك اثر
كأنه سوالف من خرّد
قد نبتت سودا لها بيض الطرر

ومن لطائفه قوله فيه:

لي نحوَ ورد الباقلا لحظ سباني بالدعج
كأنما بياضه يلوح في ذاك البلج
خواتم من فضة بها فصوص من سبج

---

(37) كذا.

وله رحمه الله تعالى:

كـلفـت بـنـور بـاقـلا سـبـتـني
كـمـائـمـه فـسـري فـيـه فـاش
اذا نـزل الـفـراش عـليـه يـومـا
حـسـبـت الـنـور افـراخ الـفـراش

وبها الذرة. باردة يابسة مجففة

وبها الدخن يابس يعقل.

الماش والقرطم والعدس

وبها الماش. بارد رطب جيده الاخضر الكبار يسهل الاخلاط المؤذية ويلين الصدر وينفع من السعال مع الحمى ويضعف الاسنان ويولد الرياح بطيء الانهضام وهو غذاء جيد للمحموم اذا طبخ بدهن اللوز.

وبها القرطم. حار رطب يسهل البلغم ويحلل الأورام الصلبة وينقي الصدر والصوت ويزيد في الباه، لكنه رديء للمعدة، مقدار الشربة منه خمسة دراهم.

وبها العدس. بارد يابس، جيده الابيض الناضج، يسكن حدة الدم، ويقوي المعدة، مضرته بالماليخوليا والاعصاب والبصر دمه غليظ وهو عسر الانهضام، يصلح الامزاج الدموية والشباب في الصيف ويكره لاصحاب السوداء، لانه يتولّد منه خلط سوداوي فيحدث فيهم الوسواس والجذام وحمى الربع ويضر بالعين التي مزاجها يابس وينفع العين التي مزاجها رطب؛ ومما يدفع ضرره الاسفاناخ والسلق مع كثير من الادهان. وينبغي أن يلقى على رطل من العدس سبعة أرطال من الماء حتى ينضج جيدا.

ولا ينبغي أن يخلط به حلو فانه يولد سددا في الكبد، ومن أكثر من أكله اظلم بصره لشدة تجفيفه ويقلل البول والطمث فلا يقربه من يقطر في بوله.

السمسم وبزر قطونا والترمس

وبها السمسم. حار رطب دسم مغث. معطش مسقط للشهوة مرخ للحشا عسر الانهضام، الا أنه يسمن ويحلل الاورام الحارة وهو جيد لضيق النفس والربو. رديء للمعدة. دفع مضرته أن يؤكل بالعسل. ودهن السمسم هو السيرج محلل الاورام البلغمية والقولنج وينفع السعال وخشونة الحلق الا أنه رديء لفم المعدة

وبها بزر قطونا. بارد رطب يجلو ويغسل وينقي ويطفي العطش اذا قلي فان ضرب في الماء حتى يرخي لعابه وشرب اطلق الطبيعة.

وبها الترمس. حار يابس. نفعه يقتل الدود وينفخ سدد الطحال عسر الانهضام يولد خلطا باردا دفعها أن يؤكل بالخل يصلح للامزاج البلغمية والشيوخ في الشتاء وفيه يقول مهيار:

وترمس طاف به مهفهف كالقمر
من اسود وأصفر واحمر وأخضر
فخلته لما أتى به فصوص جوهر

الحمص

وبها الحمص. حار رطب وقيل يابس والاسود أقوى جيده الكبار ويجلو ويزيد في المني جدا ويفتت الحصى ويحسن اللون طلاء وأكلاً ويصفي الصوت ويفتح السدد من الكبد والطحال، وينبغي أن يؤكل في الطعام. وطبيخ الاسود بدهن اللوز

ويفتت الحصى في المثانة والكلى. وهو رديء لقروح المثانة ورطبه اكثر توليدا للفضول من يابسه وماؤه يحدر الدود وينقي المثانة والامعاء الدقيقة وينفع من وجع الظهر

ويخرج الجنين ويدر الطمث. دفع مضرته بالخشخاش والكمون والاسود أنفع. واذا نقع في الخل على الريق وصبر عليه نصف يوم قتل الدود. انتهى.

وفيه يقول الشهابي ابن الاطرش ويعرض بذكر الامير طشتمر حمص أخضر لما عاد من النفي :

لما رجعت الينا من شقة البعد والبين
خلناك تحنو علينا يا حمص اخضر بقلبين

الحلبة

وبها الحلبة. حارة يابسة ملينة للطبيعة اذا اكلت مطبوخة بعد الطعام. ومتى طبخت مع التين اليابس طبخا جيدا ثم صفيت والقى ماؤهما في العسل وطبخ ثانية حتى يصير كالعرق نفع أصحاب السعال العتيق ونقى الصدر والرئة من الخلط الغليظ اللزج.

الخس

وبها الخس. قال ابن الجوزي: بارد رطب ينفع السهر ويولد ماء كثيرا ويجلب النوم وينفع من الهذيان واحراق الشمس للرأس ويقطع سيلان المني. وهو أفضل البقول وأقلها رداءة واكثرها غذاء سريع الهضم ينفع الامزاج الحادة والاورام الحارة واليرقان وينفع من اختلاف المياه وهو يسكن شهوة الجماع وينفع من كثرة الاحتلام وبزره أشد في ذلك الا أن ضرره يجفف المني ويضر الباه والبصر ويحدث ظلمة، دفع مضرته الكرفس. والله أعلم.

وفيه يقول مؤلفه البدري على لسان بعض الظرفاء:

صحبت في الزيه[٣٨] يوما خلين والجوع مسّنا
بفولة جاد لي ذا وذا ببقل وخسّنا

---

(٣٨) كـذا.

فضل غرس الأشجار

ومن محاسن الشام أرض الميطور والسيلوق وهما من متنزهاتها ويقال أن أول من غرس بها غراسا بيده سليمان بن عبد الملك وكان يروي عن النبي ﷺ حديثا يقول: قال النبي ﷺ «من غرس غرسا كتب الله له من الاجر بقدر ما يخرج من ثمار ذلك الغرس» وقال النبي ﷺ «نعم المال النخل الراسخات في الوحل المطعمات في المَحْل» وقال ﷺ «ابتغوا الرزق في خبايا الارض» يعني الزراعة. وقيل لعثمان رضي الله عنه «اتغرس بعد الكبر؟» فقال: : «لأن توافيني الساعة وأنا من المصلحين خير من توافيني وأنا من المفسدين». وقيل لابي الدرداء رضي الله عنه وهو يغرس جوزة «اتغرس وأنت شيخ وهي لا تطعم الا بعد عشرين سنة» فقال: «لا عليّ بعد أن يكون الاجر لي. ومر كسرى بشيخ وهو يغرس فقال «اترجو أن تأكل من تمرتها» فقال «غرسوا وأكلنا ونغرس فيأكلون» فقال كسرى «زه» وأعطاه اربعة آلاف درهم فقال الشيخ «ان الشجر تدرك وتطعم في سبع سنين وقد أطلعت شجرتي في يوم واحد» فقال كسرى اعطوه أربعة آلاف اخرى.

رجع. ويقال أن سليمان بن عبد الملك كان نهما في الاكل فجاءه بستاني ليضمن بستانه هذا فقال اركبُ اليه اولا انظر فاكهته ثم نضمنك اياه ثم ركب ودخل البستان فلم يدع به من الثمار الا اليسير حتى ما خلىّ فيه من البندق الاخضر والفستق الا ما عزب عنه ثم نادى الضامن سليمان وقال للشهود اكتبوا على هذا ضمان هذا البستان فقال البستاني كنت أضمنه قبل دخول امير المؤمنين اليه فضحك منه. ويقال ان قشر البندق والفستق تجمع فجاء قدر مكوك طائفي وفضل عنه(٣٩).

البندق

قال ابن الجوزي: البندق حار يابس اغلظ من الجوز وابطأ انهضاما ويولد رياحا

(٣٩) كان القصاصون يبالغون أولاً بذكر القصص في هذا الباب تقربا للعباسيين، ثم خلف من بعدهم خلف تجاوزوا حدود المنطق والعقل في هذا الاغراق واسرفوا فيه.

في البطن الاسفل الا أنه يقوي المعدة والامعاء وخلطه غليظ في الدماغ ويؤكل مع قليل فلفل فينفع من الزكام وينفع من النهوش خصوصا في التين والسذاب وكذلك الجوز.

قال ابن البيطار: في السابعة وفيه من الجوهر الارضي البارد اكثر مما في الجوز وكذلك هو أشد عفوصة منه عند المذاق، وذلك موجود في شجرته وثمرته وقشره.

قال جالينوس: اذا سحق وشرب بالعسل ابرأ من السعال المزمن واذا قلي واكل مع شيء يسير من الفلفل انضج النزلة واذا حرق وسحق وخلط بالشحم العتيق من شحم الخنزير أو شحم الدب ولطخ به داء الثعلب نبت فيه الشعر. والبندق المحروق اذا اسحق مع الزيت وسقيت به يافوخات الصبيان الزرق سوّد أحداقهم وشعورهم ومن اكل البندق قبل الطعام نفع من السموم وهو مقطع للخلط اللزج نافع من النفث الحادث من الرئة.

وفيه يقول بعضهم وابدع:

ولقد شربت مع الغزال مدامة   حمراء صافية بغير مزاج
فتفضل الظبي الغرير ببندق   شبهته ببنادق من ساج
فكسرته فوجدت صوفا أحمرا   قد لف فيه بنادق من عاج

الفستق

الفستق حار يابس وقيل رطب وقيل معتدل منفعته للمعدة يقوي فمها ويقوي الكبد ويفتح سددها وينقي الكليتين والمثانة يفتح منافذ الغذاء ويزيد في الباه وينفع من لدغ العقرب وسائر الهوام خصوصا الشامي لكنه يصير الشري دفع مضرته بمشمش يابس والله أعلم. انتهى.

وفيه يقول مهذب الدين الدهان:

وفستقة شبهتها اذ رأيتها
وقد عاينتها مقلتي بنعيم

زبــرجــدة خــضــراء وسط حــريــرة
بــحــقــة عــاج في غــلاف اديــم

وهو مأخوذ من قول الصابي:

زمــرد صــانــه حــريــر   في حق عــاج لــه غــلاف

واحسن منه قول ابن المعتز بالله:

زبــرجدة ملفــوفة في حــريرة   مضمنــة درا مغشى بياقــوت

وقال فضل الكاتب وابدع:

وفــســتــق مــســتــلذ   من بعــد شــرب الــرحيق
حــق مــن الــعــاج يحــوي   زمــردا في عــقــيــق

ومن لطائف ابن سكرة قوله:

كــأنمــا الــفــســتــق المملوح حــين بــدا
مــقــشــرا في لــطيــفــات الــطيــافــير
والــقلب مــن بــين قشــريــه يــلوح لنــا
كــألــســن الــطير مــن بــين المنــاقــير

عود وانعطاف الى ذكر سليمان بن عبد الملك. نقل الحافظ بن عساكر في تاريخه عن عبدالله بن عبدالله بن الحارث قال اخبرنا ان سليمان بن عبد الملك أمر قيّم بستانه ان يحبس على الفواكه لا يجني منها شيئا وأمرني بالركوب معه عند طلوع القمر من آخر الليل ومن حضر من أصحابه، فلما دخلنا الى البستان انفرد كل منا يأكل حتى ارتفع النهار ثم صرنا اليه وقد أكلنا قدر الطاقة ونحن نقول هذا القطف العنب استوى فيخرطه في فيه وهذه التفاحة نضجت وهذه الانجاصة ناعمة وكلما رأينا نضيجا نشير اليه فيتناوله ويأكله حتى آن الضحى، فأقبل على قيم البستان وقال ويحك يا شمرذل اني قد جعت فهل عندك شيء تطعمنيه. قال نعم عناق حولية حمراء قال ائتني بها بلا تأخير فجاءبها مشوية على خوان وهو قائم بين اشجار الفاكهة فصار يتناول منها قطعة بعد قطعة ويتناول عليها الفاكهة الى ان فرغت. فقال له ياشمردل هل عندك غيرها فقال نعم دجاجتان معلوفتان قد عميتا شحما قال ائتني بهما ففعل كما

فعل العناق واتى بهما وهو قائم بين أشجار الفاكهة حتى فرغا وقال له ان كان عندك سويق بسمن سلا وبعض سكر فائتني به فاني جائع فجاء بذلك فأكله واستدعى بماء بارد وجعل شمردل يصب عليه الماء وأمير المؤمنين يحركه حتى كفأه فارغا ثم أعاد الاكل في الفاكهة فأكل مليا واذا بالسماط حضر فجلس يأكل كأنه لم يأكل شيئا. قال الحارث فعجبنا منه.

ويقال انه عرضت له حمى عقيب هذا اشرف منه على الموت وقيل بل سبب موته انه أكل اربعمائة بيضة وسلتي تين وسبعمائة رمانة وخروف وست دجاجات ومكوك زبيب طائفي. انتهى.

وانما ذكر ذلك على سبيل الاستطراد وذكر بستانه والله أعلم.

متنزه السهم

ومن محاسن الشام (السهم) وهو متصل بارض الصالحية. وهو درب ما بين دور وقصور، وفاكهة وزهور، ومياه تجري بهدير كالبحور. وفيه يقول القيراطي:

دمشق بواديها رياض نواضر
بها ينجلي عن قلب ناظرها الهمّ
على نفسه فليبك من ضاع عمره
وليس له فيها نصيب ولا سهم

ومن لطائفه قوله فيها وفي السهم:

بقاع دمشق للأمير بشائر
فقف بمغاني جنكها مترنما
بقاع اذا قوس الرباب بسهمه
رماها غدت بالوشي بردا مسهما

وما أحسن قول القيراطي:

دمشق سما سهمها على قوس الكواكب، وأقبلت من كتائب زهورها في مواكب. وتحرك عودها حين غنت عليه من الورق الفينان، وطفح يزيدها فقلت وهذا مما يعجب ابا سفيان.

التوت

ومن المحاسن ارض بضار وبهران، وهما معدن التوت، واصل حسنه المنعوت وهو أصناف: محسني. بندقي. عجمي. مخضب. قرشي. حراديني. شامي وهو الاسود.

قال جالينوس في السابعة التوت المحسني الابيض اذا كان نضيجا فهو يطلق البطن وما لم ينضج وقدِّد صار دواء يحبس البطن حبسا شديدا حتى انه يصلح لقروح الامعاء والاستطلاق ولجميع العلل التي هي من جنس التحلب، ويخلط بعد أن يسحق مع الاطعمة كما يخلط السماق فان أحب انسان أن يشربه شربة مع الماء أو مع الشراب أو مع عصارة التوت المدرك فهي نافعة لإدواء الفم.

وقال ابن الجوزي: اذا أكل التوت الابيض على الريق أسهل وولد خلطا جيدا فان أكل على الطعام ولد كيموسا وأضر بالمعدة وهو رديء الغذاء فاسد الدم خلطه غليظ يكره منه غير النضيج والاوفق أن يغسل قبل أكله ليؤمن اضراره بالمعدة والرأس ويشرب بعده السكنجبين والتوت النضيج المبرد بالثلج ينفع المعدة التي غلب الحر عليها واليبس. انتهى.

وفيه يقول المهلبي:

كلوا من التوت وانشطوا ... فانه على الارى مسلط
كأنما التوت على اطباقه ... لآلىء بعندم منقط

ومن مجون لسان الدين بن الخطيب قوله فيه:

أقول له اذ ابتعنا عصيرا
وجاوزنا المنازل والبيوتا

لـعـلك يـا حـبـيـب الـقـلب تـأتي
وتـأكـل عـنـدنـا عـنـبـا وتـوتـا

ونقلت من خط المرحوم شمس الدين محمد النواجي قوله:

بـالله يـا صـاح قـم وبـاكـر بستـان لهـو حـوى نعـوتـا
تشبـع نخـلا بـه وكـرمـا مـرتبـا يـانـعـاً وتـوتـا

والتوت الاسود الشامي قال ابن الجوزي في (لقط المنافع) الحلو حار رطب والحامض بارد جيده الكبار السود. ومنفعته لأورام الحلق وادرار البول، ومضرته يحدث مغصا وسوء استحالة وهو رديء للمعدة الا أنه لا يضر معدة صفراوية ودفع مضرته الاطريفل الصغير يصلح للامزاج الدموية والشباب في الربيع في البلد الحار والله يعلم.

الصالحية

ومن محاسن الشام (الصالحية) مشحونة بالزوايا والترب والمدارس حتى ان بها قصبة دون ميل تمشي فيها بين ترب ومدارس ببناء جميل استولى عليها المباشرون والنظار، فازالوا منها العين ولم يبق سوى الآثار. فكم من مدرسة اندرست بعد الصلاة والتراويح، وأمست في ظلمة بعد تلك المصابيح. وهي تقول أصبحت حاصلا، بعدما كان ايواني بالقراء عامرا آهلا، وهذه تقول أضحيت مربطا للبهائم، بعدما كنت معبدا للقائم والصائم. وهذه تقول اتخذوني مسكنا، وهذه تقول جعلوني متبنا. وهذه تقول هدوني، واخذوا سقفي وكشفوني. وهذه تقول اخربوا جداري، وباعوا الباب، وجعلوني مأوى للكلاب. والاوقاف تستغيث الى المولى المغيث. فيقال لهم اسمعوا كلام الرحمن في محكم القرآن «ان الينا إيابهم، ثم إن علينا حسابهم».

فياشوقاه لحسن (الجركسية) وحلاوة (الركنية) ويالهفاه على (جامع الافرم)

و(الناصرية) تغيرت تلك المعاهدة وغلقت أبواب تلك المساجد والمعابد. انا لله وانا اليه راجعون. إن هذا هو البلاء الجسيم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وبالصالحية نهران، فيها يجريان. (ثورا) و (يزيد)، وكم عليهما من غرفة وقصر مشيد.

يحكى عن ابن الصائغ الحنفي انه لما قدم من القاهرة الى دمشق المحروسة نزل في (الجسر الابيض) عند الامير مجير الدين بن تميم ونهر ثورا يمر بداره المأنوسة فاجلسه على جانب النهر لاجل برد الهواء، فرأى شمس الدين بن الصائغ ما يمر من الفواكه على وجه الماء وصار يتناول ويأكل ما استطاب ويضع قدامه منه ما اعجبه ثم التفت لابن تميم وقال له أنت يغنيك هذا النهر عن شراء الفاكهة يفيض فضله العميم وانشده في الحال ارتجالاً:

يقول وقد رأى ثورا خليلي
يفيض بسائر الثمرات فيضا
أيكفيكم فلا تشرون شيئا
فقلت له نعم ونبيع أيضا

فقال ابن الصائغ: وهذه الفاكهة اليس يرميها في النهر أرباب الغيطان. قال له ابن تميم انما هذه من اشتباك الاشجار وانحنائها عليه فيلقيها النسيم عند ما تشتمل الاغصان واما البساتنة فانهم يضعون فواكه مجموعة على ابواب البساتين كالزكاة لمن يمرّ بها ويحتاج الى شيء فيأخذه من الفقراء والمساكين.

وأخبرت في القديم ان بعض الفقراء يضع مكتله على رأسه ويسرح في طرق البساتين فيعود وقد امتلأ مكتله مما يسقط من الاثمار من غير ان يتناول بيده شيئا.

وفي البساتين من يزرع اشجارا للفقراء يعرفونها بالتكرار، وغالبا ما يزرع من ذلك على الطرقات ليقرب تناولها. انتهى.

وغالب أهل الصالحية يهادون سكان المدينة بالبلح والاترج والكباد، لنمو حسنه عندهم ونضارته التي هي في ازدياد.

البلح والتمر والنخيل

قال ابن الجوزي البلح حار يابس وقيل بارد ينشف الرطوبة ويدبغ المعدة ويحبس، جيده غير القباض يضر بالاسنان والفم. دفع مضرته بالسكنجبين واذا اكل أول ما يحلو أحدث قراقر. والبسر والبلح يحدث السدد في الاحشاء والكبد ويولد الاكثار منهما اخلاطا غليظة وهما رديئان للصدر واللثة والجمار الذي هو طلع بارد يابس يقوي الحشا ويعقل البطن ويضر الصدر والحلق دفع مضرته بالتمر والشهد خلطه غليظ بطيءالهضم ينفع الامزاج الحارة الرطبة ومن اكثر من أكل الطلع مرضت معدته واورثه القولنج.

وباسناد عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ «كلوا البلح بالتمر فان الشيطان اذا نظر الى ابن آدم ياكل البلح بالتمر يقول يقي ابن أدم جني الحديث بالعتيق». انتهى.

الرطب حار رطب يقوي المعدة الباردة ويوافقها ويزيد في الباه لكنه سريع التعفن ودمه رديء وهو مصدع ويولد السدد ويؤذي الاسنان وينبغي ان يشرب بعده السكنجبين

وعن انس قال «رأيت رسول الله ﷺ يأكل البطيخ بالرطب» ورواه ابو داود. وعن عبدالله بن جعفر قال «رأيت رسول الله ﷺ ياكل القثاء بالرطب» اخرجاه في الصحيحين وعن ابي داود من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يأكل البطيخ بالرطب ويقول «يكسر حر هذا برد هذا». وقال ابو سليمان الخطابي وفي هذا بيان الرطب والعلاج ومقابلة الشيء المضاد له وفيه اباحة التوسع بالاطعمة ونيل الملاذ المباحة.

والرطب المعسل حار رطب ينفع المعدة الباردة ويضر الحنجرة والصوت. دفع مضرته بالسويق الخشخاشي. فاذا عتق كان أقل حرارة واكثر رطوبة وازيد في توليد المني فاذا ربي بالعسل والزعفران تضاعفت حرارته لكن يكسرها اللوز في موضع النوى ويؤكل بعده الخس بالخل.

والتمر جيده البرني الحديث الكبار وهو حار رطب في الاولى يقوي الكبد والاعصاب ويلين الطبع ويزيد في المني ولكنه يصدع لحرارته ويولد السدد ويؤذي الاسنان سريع التعفن.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «كلوا التمر على الريق فانه يقتل الدود» وعن انس بن مالك ان وفد عبد القيس من أهل هجر قدموا على النبي ﷺ فقال «خير ثمراتكم البرني يذهب بالداء ولا داء فيه» وفي مدينة النبي ﷺ تمر يقال له العجوة. وفي الصحيحين من حديث سعد بن ابي وقاص عن النبي ﷺ انه قال «من تصبح سبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر» وعن أبي سعيد وجابر قالا قال رسول الله ﷺ «العجوة من الجنة وهي شفاء من السم» واعلم انما خصت عجوة المدينة بدعاء النبي ﷺ لان التمر لا يفعل ذلك.

والقسب معتدل في الحرارة يابس يحبس الطبع وهو احمد من التمر وما الطف قول صدر الدين بن الادمي في التمر:

لم أرد التمر الذي اهديتموه لسوى
خوفي من نواكم لان في التمر النوى

وقال ظافر الحداد في وصف النخيل:

وعشية بهرت لعينك منظرا
قدم السرور بها قلبك وافدا
روض كما أخضر العذار وجدول
نقشت عليه يد النسيم مباردا
والنخل كالهيف الحسان تزينت
فلبسن من اثمارهن قلائدا

وقال بعضهم:

أما ترى التمر يحكي في الحسن للنظار
مخازنا من عقيق قد قمعت بنضار

كـأنمـا زعـفـران فيـه مـع الشهـد جـاري
يـشـف مـثـل كـؤوس مملـوءة بـعـقـار

ومما ينسب الى نفطويه قوله:

كـأنما النخل وقد نكست رؤوسهـا الـريح بـاذيـالهـا
احبـة فـارقهـا إلـفهـا فـأطرقت تنظر في حـالهـا

ومن محاسن ابن سارة قوله في الجمار:

جمـارة كـالمـاء لـكـنهـا مـا بين أطمـار من الليف
كـأنها جسم رطيب وقـد لفف في ثـوب من الصوف

والنصير الحمامي في من أهدى له جمارة:

أهـدى لـنـا جمـارة من لست أخلو من عـذابـه
فـكـأنمـا هـي جـسـمـه لمـا تجـرّد مـن ثـيـابـه

ابن المعتز يصف الطلع بقوله:

ومـريضـة الاجفـان تفتن كـل ذي عقـل ونـاسـك
اهـدت الـيـنـا طـلعـة والشـوك لـلأحشـاء نـاهـك
فـكـأنها لمـا بـدت في كفهـا مكـوك حـائـك
حـتى اذا فـضـت رأيـت من اللجـين بها سبـائك

ومن محاسنة قوله فيه:

كـأنمـا الـطلع يحـكـي لنـاظـري حـين يقبـل
سـلاسـلا مـن لجـين يـضـمـهـا تحـت صـنـدل

وأخذه بلا نافية ابن عبد ربه:

أفـدي الـذي أهـدى الـينـا طـلعـة
اهـدى الى الـقـلب المـشـوق بـلابـلا
فـكـأنمـا هـي زورق مـن فـضـة
قـد أودعـتـه من الـلجـين سـلاسـلا

وأخذه ابن وكيع فقال وهو من لطائفه:

طلع هتكنا عنه أثوابه ... من بعد ما قد كان مستورا
كأنما لما بدا ضاحكا ... في العين تشبيها وتقديرا
درج من الصندل قد أودعت ... فيه يد العطار كافورا

ومن معانيه البديعة قوله:

وطلع هتكنا عنه جيب قميصه
فيا حسنه من منظر حين هتكا
حكى صدر خود من بني الروم هزها
سماع فشقت عنه ثوبا ممسكا

ومن مقاصده قوله في البسر الاحمر:

انظر الى البسر اذ تبدى ... ولونه قد حكى الشقيقا
كأنما خوصه عليه ... زبرجد مثمر عقيقا

ومن بدائع ابن القطاع قوله فيه:

انظر البسر ان صورته ... أحسن ما صوره الرائي
كأنما شكله لمبصره ... أنامل قمعت بحناء

ابن حمديس الصقلي قوله في البلح:

أما ترى النخل أطلعت بلحا ... جاء بشيرا بدولة الرطب
مكاحل من زمرد خرطت ... مقمعات الرؤوس بالذهب

ابن النقيب اللباني قوله في البسر الابيض:

انظر الى البسر الذي ... قد جاءنا بالعجب
كيف غدا في لونه ... كعاشق مكتئب
كأنه من فضة ... قد غمست في ذهب

ومن لطائف ابن وكيع قوله في الرطب:

أما ترى الرطب المجنى لآكله
حلوى اعدت لنا من صنعة الباري

مــا بــاشــرتهــا يــد العقــاد في عمــل
في الـدست يومـا ولا حـطت عـلى النـار

الأترج

الاترج. قال ابن البيطار كثير بأرض العرب وهو مما يغرس غرسا ولا يكون بريا وورقه مثل ورق الجوز وهو طيب الرائحة ونواره شبيه بنوار النرجس الا أنه الطف وله بزر شبه الكمثري.

وقال جالينوس في السابعة وجوف الاترج الذي فيه البزر حامض الطعم وقوته قوة تجفف تجفيفا كثيرا حتى يقال انه في الدرجة الثالثة من درجات الاشياء التي تبرد وتجفف.

اسحق بن سليمان: وما كان منه حامضا كان باردا يابسا في الدرجة الثالثة يقوي المعدة ويزيد في شهوة الطعام ويقمع حدة المرّة الصفراء ويزيد الغم العارض منها ويسكن العطش ويقطع الاسهال وينفع من القوباء والكلف اذا طلي عليها؛ ويستدل على ذلك من فعله في الحبر اذا وقع في الثياب فانه اذا طلي عليه قلعه وذهب به.

جـالينوس: وشحم الاترج الذي بين قشره وحماضه يولد احلاطا غليظة باردة.

ابـن سينا: ينفخ بطيء الانهضام يورث القولنج ويجب أن يؤكل مفردا ولا يخلط بطعام قبله ولا بعده والمربى بالعسل اسلم واقبل للهضم.

وقال ابن الجوزي :الاترج جيدهالسوسي الكبار وهو بارد رطب ولحمه بارد وقشره حار يابس وحماضه بارد يابس ودهنه ينفع البواسير وحبه ينفع الدماغ الذي ناله البرد ويحلل الرياح العارضة فيه. والله أعلم
وفيه يقول عبدالله بن المعتز بالله:

يــا حبذا يـومنا ونحن عـلى رؤوسنــا نعقـد الاكــاليــلا

في روضة ذللت لقاطفها　　غصونها الدانيات تذليلا

كأن اترجها تميس به　　أغصانها حاملا ومحمولا

سلاسل من زبرجد حملت　　من ذهب أصفى قناديلا

وما أرشق قول ابن رشيق:

اترجة سبطة الاطراف ناعمة

تلقى النفوس بحظ غير منحوس

كأنما بسطت كفا لخالقها

تدعو بطول بقاء لابن باديس

ومن تشابيه ابن بوبن من مزدوجته:

كأنما أترجه المصبغ　　أيدي زناة من زنود تقطع

ومن بديع ابن المعتز قوله:

وكان الاترج كف كعاب　　جمعته لضمها بسوار

ومن التشابيه البديعة قول ابن حمديس:

انظر الى الاترج وهو مصبغ

ان كنت في التشبيه اي محقق

مثل الاكف غدت تضم انامـلا

يدخلنهنّ في اناء ضيق

ومن محاسن محيي الدين الدهان:

حياك من تهوى باترجة　　ناعمة مقدودة غضة

فجلدها من ذهب أصفر　　وجسمها الناعم من فضه

وقال الامير أبو فراس بن حمدان في الكباد:

أما ترى الكباد في حسنه　　اذا بدا في وسط بستانه

كعاشق أبصر محبوبه　　فاصفرّ من خيفة هجرانه

وقال ابن زيدون في الحماض:

يــا حــبــذا حمــاضــة تحــدث لــلنفس الــطرب
كــأنها كــافــورة لهــا غــشــاء مــن ذهــب

الليمون

الليمون. قال صاحب الفلاحة ستة أنواع منها المركب وهو نوعان أحمر وأصفر ومنها التفاحي وهو نوعان المختم والحلمسى، وغالب ما يستعمل الاصفر والتفاحي.

وأخبرني بعض الغياطنة أن بمصر الليمون أربعة عشر نوعا ولم يعد منهم ولا واحدا.

وقال ابن البيطار والليمون مركب من ثلاثة اجزاء مختلفة المنافع والقوى وهي القشر والحماض والبزر. في طعم قشره بعض مرورة وقبض خفي وله عطرية ظاهرة وفيه تسخين وتجفيف مزاجه حار في أول الدرجة الثانية يابس في آخرها.
ومن لطائف النصير الحمامي قوله فيه:

أهــدى الي الــظبــي لــيــمــونــة
لا زلــت ذا شــكــر لاحــســانــه
صــفــرتهــا تحــكــي اصــفــراري بــه
وطــعــمــهــا مــن طــعــم هــجــرانــه

وله فيه:

ليموننا هــذا الذي قــد بدا يــأخذ من اشــرافه بــالعيــان
كــأنــه بيض دجــاج وقــد لــطخه العــابث بــالــزعفــران

النارنج

النارنج قال ابن الجوزي: حماضه بارد يابس يقوي المعدة ويقطع البلغم ويسكن

الصفراء الا انه يرخي الاعصاب دفع مضرته أكله بالسكر يشهي الطعام وحبه يحلل الرياح الباردة من الدماغ وهو ألطف من الاترج ومختاره ما قلت حموضته وقشره حار يابس وخاصية النارنج ان من ادمن شمه يأخذه الرعاف الى ان يموت. والله سبحانه وتعالى أعلم وزهره يسمى بالقداح.

ومن محاسن ابن قرناص قوله في نواره:

نـديمِيَّ هبّـا قـد قضى النجـم نحبـه
وهـبَّ نـسيـم نـاعـم يـوقظ الـفـجـرا
وقـد أزهـر الـنـارنـج أزرار فـضـة
تـزر عـلى الاشجـار أوراقهـا الخضـرا

ومن أغراض شهاب الدين محمد بن دمرداش قوله:

ان أيـنـع الـنـارنـج حـاكـى لـونـه
في صـبـغـه الـقـانيّ خـد حـبـيـبـي
واذا تـبـدّى مـزهـرا فـكـأنمـا
جمـع الـوصـال عـذاره ومـشـيـبـي

وقال مؤلفه البدري:

نـارنـجـة قـد أشـبـهـت حـسـنـاء في
عـرس النسيم تميس مـع نشـر صُوى
يـا حـسـنهـا تجـلى لـنـا في حـلة
مـن سـنـدس أزرارهـا مـن لـؤلـؤ

وقال أيضا:

في الكـيـمـيـا صـحـت لـنـا   نـارنـجـة مـن حـطـب
لجـين زهـرهـا يَـعُـد   سـبـائـكـا مـن ذهـب

ومن لطائف الارجاني قوله فيه:

ونارنجة بين الرياض نظرتها   على غصن رطب كقامة اغيد
اذا ميلتها الريح كانت كأكرة   بدت ذهبا في صولجان زبرجد

ومن محاسن الصاحب بن عباد:

بعثنا من النارنج ما طاب عرفه
ونمت على الاغصان منه نوافج
كرات من العقيان احكم خرطها
وايدي الندامى حولهن صوالج

ومن بدائع ابن وكيع قوله:

ألا اسقني الراح في جنة   طرائف أثمارها تزهر
كأن تمايل نارنجها   مقابض كيمختها أخضر

ومن ألغاز ابن خلكان قوله فيه:

ما اسم اذا صحفته الفيته   من بعد ذاك ولفظه تاريخ
في ضمنه نار اذا حققتها   لاجمرها وار ولا منفوخ
حيران ان صحفته وعكسته   لا العذل يسمعه ولا التوبيخ
ياريح بلغ من احب تحيتي   ان الحبيب لما تقول مصيخ

ونقلت من خط بلدينا الشرف القواس الدمشقي:

نظرت الى نارنجة في يمينه
كجمرة نار وهي باردة اللمس
فقربها من خده فتألقت
فشبهتها المريخ في دارة الشمس

ومن بدائع ابن قرناص الحموي قوله:

نارنجة برزت في منظر عجب   زبرجد ونضار صاغه المطر
كأن موسى كليم الله اقبسها   نارا وجرّ عليها ذيله الخضر

ومن اغزال ابنْ دمرداش قوله:

تأمل ترى النارنج في الدوح باسما
نضيرا يروق العين من جلناره

وقـد لاح تحت الغـصن غـضـا كـأنـه
خـدود الـذي أهـواه تحـت عـذاره

ومن المعاني التي سبكها ظافر الحداد قوله:

تـأمـل فـدتـك النفس يـا صـاح منـظرا
يـسـر بـه قلب الـلبيب عـلى الفـكـر
حيـا وابـل يجـري عـلى شجـر بـدا
بـه ثـمـر النـارنـج كـالأكـر التـبـر
دمـوع حـداهـا الشـوق فـانهملت عـلى
خـدود تـراب تحـت انـقـبـة خـضـر

ونقل ابن خلكان في ترجمة السلامي انه كان شاعراً مجيدا فرحل في صباه من مدينة السلام الى الموصل وبها جماعة من كبراء الشعراء كالسري والببغاء والخالديين فارادوا اختباره في النظم فقال أبو الفرج الببغاء أنا اكفيكم ذلك وضع وليمة ودعاه الى عنده وقال له في غضون المحاضرة ما تقول في هذا النارنج الذي بمنزلنا فانشده ارتجالا وقال:

ونـارنـج تميـل بـه غصـون ... ومنهـا مـا يـرى كالصـولجان
اشبهــه ثـدايـا نـاهــدات ... غـلائلهـا صبغن بـزعفـران

فحرك كل منهم رأسه وقال هذا التشبيه هجس بفكري الآن. وانشد:

تطالعنا بين الغصون كـأنها ... نهود عذارى في ملاحفها الصفر

السري:

اذا ما تبدى في الغصون حسبته ... نهود عـذارى مسهن خلوق

جبل قاسيون

ومن محاسن الشام (جبل قاسيون) فان الصالحية في سفحه وتحت ذراه. وهو جبل مبارك به آثار الانبياء والصحابة والاولياء وبه (الكهف) ويقال انه كهف اصحاب

القصة وبه مغارة الدم يقال ان كل ليلة جمعة يرى بها قطرة دم وبه محاريب الاربعين محل تعبدهم. وقال بعضهم:

تحن الى وادي دمشق جوانحي
وإن كان مماقل فيه نصيبي
وإني لاهوى قاسيون لأنني
رأيت اسمه شبهاً لاسم حبيبي

وبه ينبت من عندالله تعالى من الازهار والاشجار مالا ينبت في غيره وسقيه بالامطار.

القرنفل والخزام والشيح

فمن ازهاره القرنفل وهو شديد العطرية.
والخزام وهو مشهور بالعطرية.

والشيح. قال ابن الجوزي حار يابس في الثالثة أفضله ماكان الى البياض وهو بدمشق يخرج الدود. واذا احرق وسحق ووضع في زيت او في دهن اللوز وطلي به من لم ينبت له لحية، اسرع نباتها لانه يوسع مسامها بلطافته ويمنع من داء الثعالب. وعن عبدالله بن ابي جعفر القرشي ان رسول الله ﷺ قال «بخروا بيوتكم باللبان والشيح»

السماق

وبه السماق. قال ابن البيطار في الاولى يستعمل في الطعام وهو ثمر نبات يقال له اروس برسوديسقونس[٤٠] وهو بالعربية سماق الدباغين وانما سمي هكذا لان الدباغين يستعملونه في دباغة الجلود. وهي شجرة تنبت في الجبال والصخور طولها نحو من ذراعين وفيها ورق طويل لونه الى حمرة الدم وهو مشرف الاطراف على هيئة المنشار وله ثمر شبيه بالعناقيد كثيف وفي عظم الحبة الخضراء الى العرض.

(٤٠) في مفردات ابن البيطار «رؤوس برسوديسمقوس».

وقال جالينوس في الثامنة يقبض ويجفف وانفع ما فيها الثمرة وعصارتها.

ديسقوريدوس: ويعمل منه حقنة لقرحة الامعاء ويقطر في الاذن التي يسيل منها القيح واذا تضمد بالورق مع الخل والعسل اضمر الداحس ومنع الورم الخبيث الذي يقال له غنغرانا .

الرازي: وزعم قوم انه اذا شد في صوف مصبوغ بحمرة وشد على صاحب النزف من أي عضو كان قطع الدم.

ابن ماسويه: وينفع الاسهال المزمن الذي يكون من الصفراء واذا نقع في ماء ورد واكتحل به نفع من ابتداء الرمد الحار مع مادة وقوّى الحدقة.

اسحق بن عمران وان نقع في ماء نفع من السلاق والاحتراق وقطع الحكة العارضة للعين، وان اخذه من به قيء دائم ودقه مع الكمون دقا جريشا وشرب منهما بماء بارد قطع القيء عنه.

وقال ابن الجوزي: السماق بارد في الثانية يابس في الثالثة قابض مقو للمعدة يشدها ويجلو خشونة اللسان ويسكن العطش والغثيان الصفراوي واجوده الاحمر. انتهى.

الزعرور

وبه الزعرور. قال صاحب كتاب الفلاحة هي شجرة تنبت بنفسها في الجبال والصحاري وتغرس في البساتين وفلاحتها كفلاحة الخوخ والمشمش واذا حولت ضعفت ومن اراد قوتها فليحمل اليها من التراب الذي كانت به ويطمره حواليها فانها تقوى واجوده الاحمر البستاني البالغ وهو بارد يابس رديء للمعدة والكلى يولد بلغما والجبلي يقمع الصفراء ويحبس السيلانات ويقوي المعدة ويقمع القيء الا انه يصدع

وقال صاحب المفردات هي شجرة مشوكة ولها ثمر صغار شبيه بالتفاح في شكله لذيذ في كل واحدة منها ثلاث حبات ولذلك سماه قوم طريفان[٤١] وهو ذو الثلاث

(٤١) في مفردات ابن البيطار (طريفلن) وفي اللغة الفرنسوية لفظ Triphylle بمعنى ثلاثي الورقات.

حبات وهو قابض واذا اكل كان جيدا للمعدة ممسكا للبطن مسكنا للصفراء والدم ولا يحبس البول ويشهي الاكل ويولد القولنج.

وقال صاحب (اللقط) الزعرور الجبلي بارد يابس مطفىء للحرارة يقمع الصفراء والبستاني الاحمر بارد رطب مولد للبلغم رديء للمعدة والله أعلم.

وهذا الاحمر لا حاجة به لجناه وانما يرمي سياجا لشدة شوكه وكذا في السياج توت اسود لايجنيه زراعه كورد السياج السالف لنا ذكره.

الزيزفون

ومن السياج شجرة يقال لها (الزيزفون)(٤٢) لها زهر اصفر برائحة عطرية وفيه تهييج للنساء اذا شممنه وهذه الاربعة الاشياء انما يزرعونها لشدة شوكها. انتهى وفيه يقول ابن حني وأبدع:

كـأنمـا الـزعـرور لمـا بـدا
في حـسـن تـقـديـر وأمـر أنـيـق
جـلاجـل مخـضـوبـة عـنـدمـاً
أو خـرزات خـرطـن مـن عـقـيـق
يـضـوع مـن ريـاه لمـا هـفـا
بـه نـسـيـم الـريـح مـسـك نشـيـق

ونقلت من خط الشهابي أحمد بن العطار الدنيسري:

بـاكـر الـدوحـة واغـنـم واجـتـلي
غـصـن زعـرور تـسـامـى وافـتـخـر
حـقـة مـن ذهـب داخـلـهـا
قـطـنـة فـيـهـا ثـلاث مـن درر

(٤٢) قال ابن البيطار هو اسم دمشقي للنوع الذي لا يثمر من شجر الغبيراء.

الخرنوب

وبه الخرنوب قال ابن الجوزي بارد يابس وقيل حار، جيده الحلو الطري ينفع القيام ما دام طريا فاذا يبس عقل البطن والرطب رديء للمعدة واليابس أبطأ انهضاما يدفع ضرره الفانيد، والمضمضة بطبيخه جيدة لوجع الاسنان انتهى والله أعلم.

قرية منين

ومن محاسن الشام قرية (منين) خضرة نضرة، وهي شمالي جبل قاسيون، وبها السيدان الجليلان (الشيخ جندل) و (الشيخ أبو الرجال) أعاد الله علينا من بركاتهما ويقال أن الشيخ جندل لا يقبل من ينام عنده، فاذا نام الانسان حول الضريح يفتح عينه يجد نفسه ملقى خارج المزار وقد اشتهر ذلك عنه.

الجوز المنيني

والى منين ينسب الجوز المنيني لرقة قشره وبياض قلبه، وهو صنوف: مغاربي، وفرك، ومنيني، وجبلي، وبستاني.

قال جالينوس في السابعة: وهذه الشجرة في ورقها وأطرافها شيء من القبض وهو في القشر الخارج اذا كان طريا ابين. وكذلك الصبّاغون يستعملون هذا القشر، وأما قلبه الذي يؤكل ففيه دهنية، وبهذا السبب تسرع اليه الاستحالات.

قال ابن الجوزي: الجوز حار رطب وقيل يابس عسر الانهضام رديء للمعدة مضرته نتن الفم ويؤلم الحلق ويصدع ولا يصلح أكل العتيق منه. ودفع مضرته بالخشخاش والمتولد عنه دم حار يصلح للامزاج اليابسة وللمشايخ اذا اكل مع التين نفع من السموم لا سيما الجوز الاخضر.

وقال ديسقوريدوس: الجوز عسر الانهضام مولد للمرة الصفراء حار لمن به سعال، واذا اكل على الريق هون القيء واذا احرق قشره وسحق مع شراب وزيت

ولطخ به رؤوس الصبيان حسن شعورهم وأنبت الشعر في داء الثعلب، وداخله اذا احرق وخلط به شراب واحتملته المرأة منع الطمث.

اسحق بن سليمان: والجوزة الخضراء اذا اخذت عندما تبقى قدر الحمصة ودقت وخلطت بالعسل واكتحل بها نفع من غشاوة البصر.

الشريف: واذا دق قشره الأخضر وألقي معه خبث الحديد مكسورا وترك اسبوعا معه يحرك في كل يوم ثم خضب به بعد ذلك الشيب سوده وكان منه صبغ عجيب واذا دلكت به القوابي والحزازات نفعها.

البصري: والجوز المربى جيد لبرد الكبد نشاف لرطوبة المعدة والله أعلم.

وفيه لابي الفرج بن هندو:

تأمل الجوز في اطباقه لترى — رواق حسن عليه غير محطوط

كأنه أكر من صندل خرطت — فيها بدائع من نقش وتخطيط

الثلج

وبها الثلج الذي يقيم من العام الى القابل. ويحمل ثلج السلطان الى القاهرة مدة العام وما يستعمل بدمشق الجميع منها يخزنونه في حواصل معدّة له.

وقال ابن الجوزي: الثلج بارد بالطبع يابس بالعرض وفيه خلط يولد سوداء في الكبد جيده ما كان من ماء عذب يجمد يجود الهضم لكنه يهيج السعال ويلين المفاصل ويشنج ويضر العصب لأنه يحقن البخارات الحارة فيها ويمنعها من التحلل خصوصا التي يتولد فيها اخلاط باردة دفع مضرته شربه قليلا قليلا وهو صالح للأمزجة الحارة وهو يطلق البطن أولا ثم يعقل واذا كانت المياه الثليجة والجليدة في آجام كانت رديئة ثقيلة وهي تولد البلغم في الشتاء والمرارة في الصيف وتورث شاربيها الطحلة وحشو الاحشاء وربما وقعوا في الاستسقاء وتضعف اكبادهم وتولد فيهم الجنون والبواسير ويعسر على نسائهم الحبل والولادة ويلدن اجنة متورمين. والثلج رديء للمشايخ وماء الثلج يسكن وجع الاسنان الحار والله اعلم.

ومن لطائف ابن عباد قوله:

اقبل الثلج فانبسط للسرور   وبشرب الصغير بعد الكبير
فكأن السماء صاهرت الار   ض وصار النثار من كافور

واخذه بلا قافية احمد بن علي العلوي فقال:

هواك من الدنيا نصيبي وانني
اليك لمشتاق كجفني الى الغمض
فزرني وبادر يوم ثلج كأنه
شمائم كافور نثرن على الارض

ومن محاسن قول أبي الفتح البستي:

قد نظمنا السرور في عقدانس   وجعلنا الزمان للهو سلكا
وشربنا المدام في يوم ثلج   عزل الفيء فيه رشدا ونسكا
فكأن السماء تنخل كافو   را علينا ونحن نفتق مسكا

اخذه ظافر الحداد فقال:

ويوم ضاحك يبكي   ضعيف معاقد السلك
اذوب ببرده بردا   كمبسم من حوى ملكي
كأن الريح تنشره   على الارضين في وشك
تغربل من خلال الند   كافورا على مسك

وينبت في الثلج الريباس قال ابن الجوزي بارد يابس مسكن للحرارة وقامع للصفراء ونافع للاسهال يقوي المعدة والكبد الحرانين وهو شبيه باضلاع السلق وفيه خشونة وطعمه حلو يعطي حموضة بعفوصة ولا يطلع الا في الثلج والله اعلم.

وفيه يقول أبو علي العثماني النيسابوري:

انظر الى الريباس تنظر   منه لأعجب منظر
كسواعد بيض بدت   من كم شعر أحمر

وينبت في جبال الثلج ايضا امير باريس. قال ابن البيطار هو البرباريس

وبالفارسية الزرشك. ومنه اندلسي ورومي وشامي، وأحسنه الشامي يجلب من جبل بيروت وجبل بعلبك وهو اجود من الرومي عند باعة العطر بمصر والشام .

الفلاحـة: وهو شجرة خشنة النبات خضراء تضرب الى السواد تحمل حبا صغارا بنفسجية.

قال ابن ماسـة :بارد يابس في الثانية يقوي الكبد والامعاء وفيه قوة قابضة مانعة. ماسرجويه يمنع من الاورام الحارة اذا وضع عليها .

الرازي هوقاطع للعطش جيد للمعدة والكبد الملتهبين ويقمع الصفراء جدا.

قال الرازي : (٤٣) حبه يجفف قروح الامعاء ويقطع نزف الدم الاسفل، ولا سيما الذي يجلب من جبلي بيروت وبعلبك. انتهى.

وينبت بهذا الجبل الصنوبر : قال ابن الجوزي حار في الثانية يابس في الثالثة حبه ينفع من الصداع البلغمي، افراط استعماله مصدع دفع مضرته بالشاه صيني أو الصندل، والغرغرة بطبيخ قشره يجلب بلغما كثيرا. انتهى.

وفيه يقول الشريف الرضي:

حب الصنوبر اذ أتا — ك غنيت من كل البشر
نقل لعمري مشتهى — ما ان يدوم له خبر
يحكي لنا صدقا أتت — في باطن منها الدرر

ومن اغراض ابن المعتز قوله:

صنوبر ظلتُ به مولعا — لانه أطيب موجود
كأنه الكافور في لونه — يحويه اذ لاح من العود

القلقاس

وثَمّ أشياء لا تنبت الا في الاراضي الحارة كالقلقاس فانه يطلع بأرض قرية الغور من اعمال دمشق ولا ينبت في غيرها من أرض الشام

---

(٤٣) نقله ابن البيطار عن كتاب (التجربتين) ولم يذكر جملة «ولا سيما. . . الخ».

قال ابن البيطار ينبت على المياه في الاراضي الحارة وله ورق كبير أملس يشبه ورق الموز الا أنه ليس بطوله وهو مجفف يشبه ورق القرع ولكل ورقة من ورقه قضيب منفرد غليظ الاصبع ونبات القضيب من الاصل الذي من الارض وليس لهذا النبات ساق ولا ثمر واصله شبيه بالاترج إلا أن ظاهره مائل الى الحمرة وداخله أبيض كثيف مكتنز مشاكل للموز وطعمه فيه قبض مع حرافة قوية تدل على حرارته ويبسه وهو يابس في الاولى اذا سلق بالماء زالت حرافته جملة واكتسب مع مافيه من القبض اليسير لزوجة مغرية كانت بالقوة الا ان حرافته كانت تخفيها وتسترها ولذلك صار غذاؤه غليظا بطيء الانهضام ثقيلا في المعدة لكثافة جسمه ولزوجته الا انه لما فيه من القبض والعفوصة صارت فيه قوة مقوية للمعدة معينة على حبس البطن اذا أخذ مقدار منه لا يثقل على المعدة فيحيله ضرورة لثقله وبعد انهضامه ولما فيه من اللزوجة والتغرية صار نافعا من سحوج الامعاء ويزيد في الباه ويسمن وادمانه يولد السوداء والله أعلم.

الموز

ومنها الموز. ـ قال ابن الاثير في عجائبه: الموز يسمى قاتل ابيه لان شجرته لا تثمر الا مرة في السنة ثم تموت ولا يحمل الأصل الواحد الا قنواواحداً ثم يموت، وتخلفها اخرى من اصلها ويكون في القنو من خمسين موزة الى خمسمائة ومن حين نشوئها الى حين إثمارها شهران، ويقال ان فيه بريا وبستانيا والبري يسمى الطلح، واكثر ما يوجد في الجزائر. وورقها طوله ثلاث أذرع وعرضه ذراعان. وأجود الموز الكبار البالغ وثمرته حارة رطبة تنفع حرقة الصدر والحلق وتنفع المثانة وتدر البول وتلين الطبع لكنه ثقيل على المعدة والاكثار منه يولد السدد ويزيد في الصفراء والبلغم وأكله بعد الطعام يمنع بخار المعدة الى ان يرتقي الى الرأس.

وقال ابن الجوزي: جيده الكبار الحلو ينفع من خشونة الصدر والرئة وقروح الكليتين ويضر المعدة. دفع مضرته بالسكر ويتولد عنه دم بلغمي والله أعلم.
وفيه يقول الخوارزمي:

يامن اتى البستان يقصد نزهة ... انظر لصنع الله فيما يخلق
الموز شبه عساكر مصفوفة ... من فوقها رايات خضر تخفق

وفيه يقول مؤلفه البدري :

انظر الى الموز الذي ... حلا وصفا اذ مر بي
سبائكا من فضة ... قد موهت بالذهب

قصب السكر

ومنها القصب. قال ابو حنيفة : القصب أنواع فمنه أبيض وأصفر وأسود والاسود لا يعصر وهو يغلظ حتى لا يحيط به الكفان وانما يعتصر الابيض والاصفر ويقال لعصارته عسل القصب واجوده ما يجاء به من أرض الزنج فهو أصفر مثل الاترج. والقند ما يجمد من عصير قصب السكر ثم يتخذ منه السكر ويقال لما جعل فيه القند من السويق وغيره مقنود ومقند كما يقال معسول ومعسل.

وقال أبو العبر : قصب السكر لطيف ملائم للبدن نافع من الخشونة التي تعرض في الصدر والرئة والحلق ويجلو الرطوبة اللطيفة المتولدة فيها ويدر البول ويولد نفخا ولا سيما اذا أخذ بعد الطعام.

وقصب السكر ملين للطبيعة واستعماله لتهييج القيء صالح اذا شرب على أثره ماء فاتر وتهوع بريشة طويلة قد غمست في السيرج.

وقال المنصوري : حار باعتدال يدر البول ويذهب بالحرقة الكائنة عند خروجه وينفع من السعال.

اسحق بن عمران : يقطع الالتهاب العارض في المعدة برطوبته ولطافته وينقي المثانة.

وقال ابن الجوزي : القصب أشد تليينا من السكر لكنه يولد رياحا دفعها ان يقشر ويغسل بماء حار.

وقال عفان بن مسلم المحدث: من مص القصب السكر بعد طعامه لم يزل يومه اجمع في سرور والله تعالى أعلم. انتهى.

وفيه يقول خليل بن الفرس رحمه الله:

سبحان من أنبت في ارضه ما بين شوك وجلا فيها
انبوبة مملوءة سكرا قد كان ماء وحلا فيها

وكتب مؤلفه البدري يستدعي بعض الاخوان في شهر رمضان الى غيط قصب.

في قصب السكر لي ذوق سريع ما اقتضب
شبهته بأهيف قد رق عشقا وانتصب
واصفر جسمه لذا أرخى له خضر العذب
فقم لوصل قطعه واسع له اخا الأرب
في الصوم قبل العصرا ن ذا لأعجب العجب

غوطة دمشق

قلت: واما محاسن الشام فانها لا تحصى، وغوطتها الجامعة للمحاسن لا تستقصى. وقد جاء في الاخبار عن كعب الاحبار رضي الله عنه «غوطة دمشق بستان الله في أرضه».

وعن ابي امامة رضي الله عنه ان النبي ﷺ تلا هذه الآية «وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومَعين» قال «هل تدرون اين هي» قالوا «الله ورسوله أعلم» قال «هي في الشام بارض يقال لها الغوطة مدينة يقال لها دمشق هي خير مدائن الشام».

وفي رواية عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ «قال هي دمشق».

قال الذهبي: وأجمع سواح الارض والاقطار على ان متنزهات الدنيا أربعة وهي (صغد سمرقند) و (شعب بَوّان) و (نهر الأبلة) و (غوطة دمشق).

قال أبو بكر الخوارزمي في رحلته: رأيتها كلها فكان فضل غوطة دمشق على

الثلاث كفضل الاربعة على غيرهن، كأنها الجنة وقد زخرفت وصورت على وجه الارض.

وما أحسن قول الشيخ علاء الدين علي بن المشرف المارداني وقد أنشدنيه شقيقه ركن الدين محمد عند قدوم اخيه الى دمشق المحروسة في سنة احدى وعشرين وثمانمائة:

ليس في الحسن للشآم نظير ... لا يغرَّنك بالبلاد الغرور
كل ما تشتهيه نفسك فيها ... وبها البشر والهنا والسرور
قلت للركب مذ انخنا عليها ... وتراءت ولدانها والحور
هذه الجنة ادخلوا بسلام ... بلد طيب ورب غفور

وقال الشيخ عبدالله الارموي رحمه الله «دمشق من أي جهة أقبلت عليها تجدها حلة بيضاء طرازها أخضر».

وقال الشهاب محمود من رسالة «وأما دمشق فكأنها وجه الحبيب، وقد دار به العذار الاخضر الرطيب».

وقال الشيخ (عبد الولي الحضرمي) رحمه الله: «سحت البلاد ورأيت ما بها من الاعاجيب، فلم انظر كصغد سمرقند، وهو نهر تحف به قصور وبساتين وقرى مشتبكة العمائر مقدار اثني عشر فرسخا في مثلها، وهي في وسط مملكة ما وراء النهر. ورأيت شعب بوان وهي بقعة مذكورة بنيسابور طولها فرسخان وقد التحفتها الاشجار، وجاست خلالها الانهار. وهذا الشعب لبوان بن ايوح بن افريدون، وفيه يقول أبو الطيب المتنبي من قصيدة تشتمل على وصفه:

يقول بشعب بوان حصاني ... أعن هذا يُسار الى الطعان
أبوكم آدم سنَّ المعاصي ... وعلمكم مفارقة الجنان

ومررت بنهر الأبلة وهي من أعمال البصرة طوله أربعة فراسخ وعلى جانبيه بساتين كأنها بستان واحد قد مد على خط الاستواء نخله كأنه غرس في يوم واحد. ودخلت

الى دمشق وتنزهت في غوطتها أجدها أحسن من الثلاث واكثرها خيرا طولها ثلاثون ميلا وعرضها خمسة عشر ميلا مشتبكة القرى والضياع لا تكاد الشمس تقع على أرضها لغزارة أشجارها واكتناف أغصانها».

وقال الميدومي في كتابه (لطايف الاعاجيب) كان بغوطة دمشق اشجار تحمل الواحدة منها أربع فواكه كالمشمش والخوخ، والتفاح، والكمثري. وبها ما يحمل الثلاث واقلهن اللونان من الفاكهة. قلت وهذا موجود الى يومنا هذا فاني رأيت بها الكرمة الواحدة تطرح العنب الابيض والاسود والاحمر ورأيت بوادي النيربين شجرة توت تطرح التوت الابيض والاسود.

وهذا من صنعة الفلاحة يسمى التطعيم وهو ان يأخذ قطعة خشب من التفاح ويشق ساق شجرة كمثري تكون بساقين وتوضع تلك القطعة في احدى الساقين المشقوقة وتشدها بخرقة وتسقيها وتعاهدها الى أن تلحم بها ويخرج الورق الجديد ثم تثمر.

رجعٌ الى بقية كلام الميدومي. قال: وكان غرس الاشجار في بعض البساتين كالسطور التي تقرأ. انتهى والله أعلم.

ونقلت من شرح الشريشي ما نقله عن شيخه ابن جبير قال: دمشق هي خير المشرق، ومطلع حسنه المؤنق وعروس المدن قد تحلت بازاهير الرياحين، وتجلت في حلل سندسية من البساتين. وحلت من موضع الحسن بمكان مكين، وتجملت في منصتها بأجمل تزيين. وتشرفت بان ادنى الله المسيح وامه الى ربوة ذات قرار ومعين. ظل ظليل، وماء سلسبيل، ورياض تحيي النفوس بنسيمها العليل، وتتبرج لناظرها بمجتلى صقيل، وتناديهم هلموا الى مغرس للحسن ومقيل. قد سئمت ارضها من كثرة الماء، حتى اشتاقت الى الظماء. فتكاد تناديك بها الصم الصلاب: اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب. قد أحدقت البساتين بها احداق الهالة بالقمر، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر. وامتدت بشرقها غوطتها الخضراء امتداد البصر. ولقد صدق القائلون «ان كانت الجنة في الارض فدمشق لا شك فيها، وان كانت في السماء فهي بحيث تسابمتها وتساميها».

وقال البحتري فيها:

اذا أردت ملأت الطرف من بلد
مستحسن وزمان يشبه البلدا
يمشي السحاب على أجبالها فرقا
ويصبح النبت في صحرائها بددا
فلست تبصر الا واكفا خضلا
ويانعا خضرا أو طائرا غردا
كأنما القيظ ولّى بعد جيئته
أو الربيع دنا من بعد ما بعدا

وقال ابن سعيد الموصلي:

سقى دمشق واياما مضت فيها
مواطر السحب ساريها وغاديها
ولا يزال جنين النبت ترضعه
حوامل المزن في احشا اراضيها

صناعات دمشق

ومن محاسن الشام، ما يصنع فيها من القماش والنسيج على تعداد نقوشه وضروبه ورسومه. ومنها عمل القماش الاطلس بكل اجناسه وانواعه. ومنها عمل القماش الهرمزي على اختلاف اشكاله وتباين اوصاله. ومنها عمل القماش الابيض القطني المصور لإحياء القصور، واموات القبور وبها أيضا عمل القماش السابوري بجميع الوانه وحسن لمعانه وفيها تعمل صناعة الذهب المسبوك والمضروب والمجرور والمرفوع، والممدود والمرصوع. وفيها تعمل صناعة القرطاس بحسن صقالة ونقي اوصاله. وفيها تعمل صناعة القرضية ودباغاتها المرضية وفيها تعمل صناعة الزموط والاقباع وتحمل لسائر البلاد والضياع وفيها صناعة الحرير بالفتل والدواليب والسرير. وفيها تعمل صناعة السلاح، بما فيها من الاعاجيب والاقتراح. وفيها

تعمل صناعة الموشى والمدهون بما تحتار فيه النواظر والعيون. وفيها تعمل صناعة النحاس من الضرب والتفصيل والنقوش التي تشرح صدر الناس وفيها صناعة الواح الصقال ودهن الواح صغار الكتاب، وجفان القصع وتفصيل القبقاب.

واذكرني هنا قول ابن هاني الاندلسي على لسان القبقاب واجاد ثم أفاد:

كنت غصنا بين الانام رطيبا
مائس العطف من غناء الحمام
صرت أحكي رؤوس اعداك في الذلّ
برغم اداس بالاقدام

وغالب ما ذكرناه من هذه الصنائع تتبدل عليه أيادي الصناع من الواحد بعد الواحد الى أن ينيف على عشرة صناع حتى تتم.

واعلم ان هذه الصنائع استخرجتها الحكماء بحكمتها ثم تعلمها الناس منهم وبعضهم من بعض وصارت وراثة من الحكماء والعلماء ومن العلماء للمتعلمين ومن الاستاذين للتلامذة للصناع هكذا نقله ابن جماعة في شرحه على نقول العيد. انتهى.

قافات دمشق

ومن محاسن الشام ما يحمل منها الى الديار المصرية عشرة قافات انفردت بها وهذه مسمياتها: قصب ذهب، قبع، قرضية، قرطاس، قوس، قبقاب، قراصيا، قمر الدين من المشمش، قريشة، قنب.

وكنت في هذا المحل اكتب واذا بشخص خليع يغلب عليه الخبال والدخل يتردد اليّ من أهل مصر العتيقة يقال له تعاتير جاء اليّ وقال عبر لي هذاالمنام :رأيت الليلة في النوم رجلا جليلا من أهل الشام أعطاني قصعة بها آثار قطن فيه بعض قضامة مربوطة بخيط قنب. فأردت ان ادخل عليه سرورا قلت له: يا تعاتير من مناسبة الحبال القضامة وهي ذهب وفضة في وعاء مشدود معقود تناله من بعض رؤ ساء الشاميين.

فسر بذلك وفارقني فأخذت أتعجب من الاتفاق وذكر هذه الاربعة قافات المجلوبة من الشام الى القاهرة وفيها انا في مثل هذا السياق اذا أنا به في اليوم الثاني جاءني وهو يضحك فقلت ما بالك وما خبرك. قال: فارقتك فاخذت لي قطعة جنب ورطب

وجلست آكلهم برغيف في عقبةٍ قدام المقياس واذا برئيس شامي في خدمته عبيد وغلمان نزل الى تلك العقبة وقال للنوتي اطلع بنا المقياس لنزوره وزورنا الآثار وقال لغلمانه لاقونا بالخيل الى الآثار فنهرني بعض العبيد وقال ما تخرج. فقال له سيده دعه يؤانسنا. وسألني عن اسمي فقلت له الناس يسموني تعاتير وانما اسمي ابو الخير. فتهلل وجهه وقال : هذا المكان ما اسمه فاقول له كيت وكيت وهذا يعرف بكذا الى ان توجهنا الى درج الآثار وأراد الطلوع واذا بمنديل سقط منه في المركب فبادرت لمناولته اياه فقال لي اعط منه للنوتي دينارا وخذه لك بما فيه فقبلت يده وقال لي ما تروح معنا قلت له مرسومك هذا النوتي ابن حارتي وارجع معه فقال ادع لنا. وتركته وأنا لا أصدق من الفرح فقلت لبعض غلمانه ايش يقال لهذا الرئيس بين الشاميين قال هذا القاضي بدر الدين بن المزلق فدعوت له وانصرفت أجد بالمنديل خمسة دنانير ذهبا وسبعين نصفا فدفعت للنوتي دينارا وجئت لأتشكر منك على تعبير المنام واخبرك بتفسيره فقلت له هذا أعجب من الأول. انتهى.

وغالب ما عددناه وأوردناه من محاسن الشام انفردت به دون غيرها ويحمل منها الغالب البلاد لكثرة خيرها ومن اعاجيبها ان خيرها في الغالب لغير بنيها حتى انه ينسى الاهل والاوطان ولو فارقها لعاد اليها على طول الزمان.

وقال القاضي الفاضل:

يقولون لي ماذا رأيت بشامهم
فقلت لهم كل المكارم والفضل
فبلدتهم خير البلاد واهلها
فاحسانهم تغني الغريب عن الاهل

وقال ابن سعيد:

في جلق نزلوا حيث النعيم غدا
مطولا وهو في الآفاق مختصر
فالقضب راقصة والطير صادحة
والنسر مرتفع والماء منحدر
لكل واد به موسى يفجره
وكل روض على حافاته الخضر

وقال ابراهيم بن عبدالله الانصاري متشوقا اليها:

رعى الله اياما تمضت بجلق
لقلبي عليها أنة وتوجع
رحلت وابراد الشباب قشيبة
وعدت واسمال المشيب ترقع

وقال الشيخ شمس الدين محمد بن الصائغ الحنفي يتشوق اليها:

ادمشق لا بعدت ديارك عن فتى
ابدا اليك كله يتشوقُ
اشتاق منك منازلا لم انسها
انىَّ وقلبي في ربوعك موثق
انىّ اتجهت رأيت دوحا ماؤه
متسلسل يعلو عليه جوسق
والريح تكتب والجداول اسطر
خطٌّ له نسخُ الغمام محقق
ومعاطف الاغصان هزتها الربا
طربا فذاك نما وهذا مونق
تتلو على الاغصان أخبار الهوى
فيكاد ساكت كل شيء ينطق

فصول دمشق وخصائص كل فصل

ومن محاسن الشام ان كل نزهة ذكرناها لها أوانٌ يتفرج أهل البلد فيه وزمان يتعاهدونها به ويرجعون اليه ويعجبني قول ابن فائد البحراني:

برزت دمشق لزائري أوطانها
من كل ناحية بوجه ازهر
لو أن انسانا تعمد أن يرى
مغنى خلا من نزهة لم يقدر

ومن لطائفه قوله في الذهبيات وقد عاد اليها في الخريف:

صبغت بلون ثمارها أوراقها
فتكاد تحسب انهن ثمار
لو كان مكتوبا عليها يوسف
شهد الصيارف أنها دينار

ومن محاسن ابن ديار قوله في الذهبيات:

انظر الى ذهبيات الغصون وقم
الى المدام وواصلها الى العنق
أما ترى النهر بالتصفيق أطربها
فنقطته دنانيرا من الورق

ونقلت من خط الزيني ابن الخراط قوله:

اتانا الخريف نديمي فقم نجدد الرياح عيشا ذهب
اذا ما جلونا عروس الطلا على الغصن نقطها بالذهب

ومن المعاني التي افتضها الرغادي:

يا ورقا بالخريف يحكي على النحور المسلسلات
شبه الدنانير صففوها على سيوف مسلسلات

ونقلت من خط بلدينا العلاء بن ايبك الدمشقي:

لا تخش يا محبوبُ من فاقتي
فعن قريب ذهبي يأتي
فاذهب لفضيات ذا بالطلا
واستجلها في الذهبيات

ونقلت من خط المرحوم شيخ الاسلام شهاب الدين بن حجر:

قد قال زهر الروض من ذا الذي
فضل فضل الذهبيات
ما ذهبي يذهب من حجلة
مودعا بل ذهبي يأتي

ويعجبني قول المعوج الشامي وتلطف بقوله:

تأمل ترَ أرض الخريف عليلة
من البرد حتى عادها وابل القطر
وعالجها فصل الربيع فعوفيت
فنقطها الازهار بالبيض والصفر

ومن محاسن الشام صيفيتها وانها معلنة بحياة الازهار ونمو الاثمار. ولهذا قال الحافظ اليغموري:

واستنشقوا لهو الربيع فانه
نعم الصديق وعنده الطاف
يغذي الجسوم نسيمه فكأنه
روح حواها جوهر شفاف

ويعجبني قول ابن قرناص فيه:

بعث الربيع رسالة بقدومه
للروض فهو بقربه فرحان
ولطيب ما قرأ الهزار بشدوه
مضمونها مالت به الاغصان

وشتويتها مؤذنة بموت الاشجار بالاصفرار، وتغسيلها بعد التجريد بالامطار.
ولهذا قال الحافظ اليغموري:

خذ في التدفي بالخريف فانه
مستوبل ونسيمه خطاف
يجري مع الاجساد جري حياتها
كصديقها ومن الصديق يخاف

ومن الدر النظيم قول ابن تميم:

ياشهر كانون من حب الغصون امتّ
الارض وجدا وأبكيت السما حزنا
والمزن غسلها من فيض أدمعه
والثلج حاك لها من نسجه كفنا

لكن يعتدّون للشتاء بالاسمان والادهان ويمونون البيوت بالحبوبات، ولحم القديد والمعسولات والفاكهة المعلقة، والحلاوات المؤنقة. ويكنون في الاماكن المبخرات ولا يخرجون منها. فانها بلدة كثيرة المحاسن، وماؤها غير آسن. وهي مباركة فيها البركة وعيشها رغد في السكون والحركة. ولكن استقرى من كان مولده فيها لم يزل في قبض، ما دام بها الا أن ينزل الى تحت الارض ويقال أنه لا يوجد بها اثنان من أهلها على قلب واحد متصافيان.

بركات دمشق

ويقال ان من قصدها بسوء ونواه اكبه الله تعالى فيه وأعثره. ولما قدم عبدالله بن علي بن عبدالله بن عباس رضي الله عنهم دمشق وحاصر أهلها فلما دخلها وهدم سورها وقع منه حجر كان عليه مكتوب باليونانية فارسل خلف بعض الرهبان فطبعه وقرأه فاذا عليه مكتوب: ويك ام الجبابرة من رماك بسوء قصمه الله. ويك من الخمس الاعين. نقضُ سورك على يديه بعد الف سنة. فوجدوا الخمس الأعين عبدالله بن علي بن عبدالله بن عباس بن عبد المطلب.

فهي بلدة كثيرة البركات غزيرة الخيرات، نعم بلدة الانبياء، وموطن الاصفياء والاولياء. وبها صحابة من الاجلاء ومقابرها حوت اماثل الفضلاء.

جبانات دمشق والعظماء المدفونون فيها

ومنها جبانة باب الصغير بها بلال الحبشي رضي الله عنه وبها السيدة سكينة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وبها السيدة زينب بنت الامام علي رضي الله عنهما وبها معاوية رضي الله عنه، وبها اويس القرني رضي الله عنه، وبها أبو عبيدة بن الجراح على ما قيل خارج الجامع المعروف به(٤٤).

---

(٤٤) زاد ابن الحوراني في كتابه (الاشارات الى أماكن الزيارات) أن من الصحابة المدفونين في (الباب الصغير):

اوس ابن أوس الثقفي الصحابي من أهل الصفة، ذكره النووي في (تهذيب الأسماء).

وأبا الدرداء عويمر الخزرجي الصحابي، ولي قضاء دمشق لعمر. وزوجته أم الدرداء الصغرى مدفونة بقربه.

وواثلة بن الاسقع من أهل الصفة، خدم النبي ﷺ ثلاث سنين.

وفضالة بن عبيد، ولي قضاء دمشق لمعاوية ودفن عند ابي الدرداء. وحمل معاوية نعشه وقال لابنه «اعني فاني لا أحمل بعده مثله».

وسهل بن الربيع الأوسي الصحابي.

ويسرة بن فاتك الأسدري أخا خزيم بن فاتك، وهو الذي قسم دمشق بين المسلمين بعد فتحها.

وشمعون بن ختانة ابا ريحان الأسدي الأنصاري.

ومكحولاً مولى سعيد بن العاص، سمع من انس وواثلة.

ونقل ابن الحوراني عن الهروي في (الزيارات) أن في (مسجد النارنج) بباب الصغير ثلاثا من أزواج النبي ﷺ، وفضة جارية فاطمة، وقبر سهل بن الحنظلية، وقبر ام الحسن بنت حمزة بن جعفر الصادق، وقبر علي بن عبد الله ابن العباس، وقبر ابنه سليمان، وقبر زوجته ام الحسن بنت جعفر ابن الحسن بن الحسين. وبمقبرة باب الصغير أيضاً قبر خديجة بنت زين العابدين، هؤلاء في تربة واحدة. وقبر سكينة بنت الحسين. وقبر محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

وبها قبور كثير من الأولياء والصالحين لم يعلموا، لما قيل من أن مقبرة باب الصغير حرثت وزرعت بعدُ مائة سنة، فلذلك لا تعرف القبور.

ونقل عن الحافظ ابن طولون في (بهجة الانام) أن قبر معاوية الكبير في الحائط القبلي من جامع دمشق في قصر الامارة (الخضراء)، وهو الذي تسميه العامة (قبر هود). أما الذي في الباب الصغير فهو قبر أبي ليلى معاوية الثاني ابن يزيد.

وذكر صاحب (مثير الغرام) أن (الوليد بن عبد الملك)- الذي بنى مسجد دمشق ومسجد النبي ﷺ وقبة الصخرة المقدسة في بيت المقدس- دفن سنة ٩٦ بمقبرة باب الصغير شمالي قبر معاوية بنحو عشرين ذراعا وقبره ظاهر معروف يزار.

وفي الباب الصغير من العلماء الشيخ حماد وهو من القدماء. ومنصور بن عماد بن كثير السلمي. وعمر بن الحسَن =

ويليها مقبرة محلة القروانة وبها جماعة من الاجلاء والفضلاء.

ومنها جبانة باب شرقي بها ابّي بن كعب رضي الله عنه، وبها جبل بن معاذ رضي الله عنه، وبها ضرار بن الازور رضي الله عنه في حارة السادة القدماء عفا الله تعالى عنهم.

وتليها مقبرة الشيخ رسلان أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته وعنده جماعة من الاماثل والاجلاء الافاضل(٤٥).

وخارج باب توما شرحبيل كاتب وحي رسول الله ﷺ والسيدة خولة بنت الازور رضي الله عنهما.

وجنانة بيت لهيا بها سادة وأعيان وصالحون لهم قدر وشأن.

ويليها مقابر باب الفراديس بها أبو الدحدح الصحابي رضي الله عنه، وبها عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق رضي الله عنهما(٤٦).

=الخرقي من تابعي أصحاب أحمد بن حنبل وهو مؤلف «المقنع». وأبو الفتح نصر بن إبراهيم بن نصر المقدسي النابلسي شيخ الشافعية بالشام وقد اجتمع به الغزالي واستفاد منه. وأبو البيان محمد بن محفوظ القرشي شيخ الطائفة البيانية ويعرف بابن الحوراني. قال ابن كثير له تآلف كثيرة وكان هو والشيخ رسلان أولاً مجاورين في المسجد الذي في رأس درب الحجر في أواخر السوق الكبير قريباً من الباب الشرقي. والحافظ الكبير ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر صاحب (تاريخ دمشق) دفن شرقي مدفن معاوية. وتاج الدين عبد الرحمن بن ابراهيم الفزاري المعروف بابن الفركاح تلميذ ابن الصلاح والسخاوي وابن عبد السلام. وبدر الدين ابن مالك. وأبو الربيع سليمان ابن بلال الجعفري الهاشمي تلميذ الفزاري والنووي. وابن هشام وابن رجب. وابن قيم الجوزية. وابراهيم الناجي. وأبو العباس أحمد الميلي.

(٤٥) قال (ابن الحوراني) الشيخ ارسلان الدمشقي ابن يعقوب بن عبد الرحمن بن عبد الله الجعبري. مدفون مع شيخه ابي عامر المؤدب، توفي بعد الاربعين والخمسمائة.

(٤٦) قال (ابن الحوراني): وفي مقبرة باب الفراديس مشهد الخضر، وعنده قبر محمد بن عبد الله بن الحسن المقدسي ثم الدمشقي المعروف بأبي شامة وكان له شامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر توفي سنة ٦٦٥.
وفي مسجد الأقصاب سوق حجر بن عدي الصحابي وأصحابه.

ومقبرة سويقة صاروجا بها صالحون من أجلّ المسلمين.

ومقابر الصوفية بها جماعة من العلماء ائمة الدين وصالحي المسلمين كإبن الصلاح وأبن تيمية وابن المبارك وغيرهم[٤٧]

ويليها مقبرة القنوات وباب السريجة وبها علماء الامة واهل الرحمة. آخر من دفن بها شيخنا المرحوم العلامة محب الدين البصروي الشافعي رحمه الله.

ومنها جبانة الحمرية[٤٨] وبها المرحومون من الاولياء والصالحين.

ومنها مقابر محلة السيدة عاتكة رضي الله عنها ويقال ان في ظاهرها ضريح المساك لركاب النبي ﷺ رضي الله عنه.

ومنها جبانة محلة القبيات وبها العلماء العاملون والمجاذيب والصالحون كالسيد الشريف الشيخ الزاهد العالم تقي الدين أبي بكر الحصني الشافعي امدنا الله بمدده. وهذه جملة المقابر التي في المدينة الخارجة عن مقابر الصالحية والقابونين وغير ذلك.

وثمّ صحابة في قرى الضواحي رضي الله عنهم كسعد بن عبادة رضي الله عنه

(٤٧) مقابر الصوفية هي الواقعة الآن في حديقة مستشفى دمشق على نهر بانياس عند محطة البرامكة غربي دمشق. قال ابن الحوراني: وممن دفن فيها (قطب الدين أبو المعالي مسعود ابن محمد بن مسعود) انفرد في دمشق برئاسة الشافعية توفي في رمضان سنة ٥٧٨.

ومنهم (الفخر ابن عساكر) توفي سنة ٦٢٠ ودفن مقابل قبر ابن الصلاح) المتوفي سنة ٦٤٣.
ومنهم (عبد الرحمن بن نوح) من أشياخ النووي وكان مفتي دمشق في وقته توفي سنة ٦٥٤.
ومنهم (عماد الدين بن كثير البصري القرشي) توفي سنة ٧٧٤ ودفن عند شيخه شيخ الاسلام ابن تيمية المتوفي سنة ٧٢٨.

ومنهم (ابراهيم بن سليمان الحموي) له شرح الجامع الكبير في ست مجلدات وشرح المنظومة في مجلدين.
ومنهم (ابراهيم بن عبد الرازق الحنفي) شارح القدوري توفي سنة ٨٠٧.

(٤٨) قال ابن الحوراني هي بمحلة الشويكة وممن دفن فيها أحمد بن بدر الدين الحنفي المتوفي سنة ٩٣٤، ومحمد بن الحر الحنفي توفي ٧٨٩.

بارض المنيحة(٤٩) وتميم الداري رضي الله عنه بقرية تميم التي سميت به وابو الدرداء رضي الله عنه فانه داخل قلعة دمشق والسيدة زينب الكبرى بنت الامام علي بن ابي طالب رضي الله عنهما وهي اخت أم كلثوم الكبرى التي تزوجها عمر رضي الله عنه وكانتا مع اخيهما الحسين لما قتل وقدمتا الشام وهاتان والحسن والحسين ومحسن الذي مات صغيرا أولاد الامام علي من فاطمة رضي الله عنهما ثم تزوج بعد موت فاطمة وتسرى فجاءه بنون وبنات ومن جملة البنات زينب الصغرى وأم كلثوم الصغرى، وهكذا ذكره شيخنا الحافظ برهان الدين الناجي رحمه الله تعالى ورضي عنه. وقال الشيخ العارف أبو بكر الموصلي رحمه الله تعالى في كتابه (فتوح الرحمن) توفيت السيدة زينب الكبرى بنت علي رضي الله عنهما بغوطة دمشق عقيب محنة أخيها ودفنت في قرية من ضواحي دمشق اسمها راوية ثم سميت البلدة بها فالآن يقال للبلدة الست ولا تعرف الا بقبر الست رضي الله عنها قال: وكنت ازورها في أول أحد من العام، ومعي جماعة من أصحابي الفقراء، ولا ندخل الى قبرها بل نستقبله ونغض ابصارنا، لما قرره علماؤ نا في أن الزائر للميت يعامله بما لو كان حيا من الاحترام، فبينما أنا في البكاء والخشوع والحضور وكأني بها وقد تراءت لي في صورة امرأة كبيرة محترمة موقرة لا يقدر الانسان ان يملأ نظره منها احتراما فاطرقت فقالت: يا بني زادك الله ادبا الم تعلم ان جدي رسول الله ﷺ واصحابه كانوا يزورون أم أيمن(٥٠) لكونها امرأة محترمة وبشر الامة أن جدي محمدا ﷺ وجميع اصحابه وذريته يحبون هذه الامة، الا من خرج عن الطريق فانهم يبغضونه. فلحقني ازعاج من كلامها غيبني فلما عدت الى الحسّ لم أجدها فواظبت على زيارتها الى يومنا هذا انتهى.

وبالقرية المذكورة ضريح السيد الجليل، مدرك الفزاري الصحابي اعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته.

---

(٤٩) نقل ابن الحوراني عن النووي في (تهذيب الأسماء) قال: سعد بن عبادة الصاحبي الأنصاري الخزرجي الساعدي كان نقيب بني ساعدة وصاحب الأنصار في المشاهد كلها، قال فيه رسول الله ﷺ «انه من بيت جود» شهد العقبة وبدراً والمشاهد، توفي سنة ١٦ واتفقوا على أنه كان بحوران ومات بها، قال الحافظ ابن عساكر وغيره: هذا القبر المشهور في المنيحة يقال انه قبر سعد بن عبادة فيحتمل أنه نقل من حوران اليها.

(٥٠) قال الزبيدي في التاج: ام أيمن امرأة أعتقها ﷺ وهي حاضنة أولاده فزوجها من زيد فولدت له اسامة.

وهذا الذي وصل الينا من معرفة من بدمشق من الصحابة رضي الله عنهم اجمعين. وتم فيها من الانبياء والصحابة والاولياء الصالحين غير ما ذكرناه لكن لتوالي المحن واندراس العلم والمعاهد والدمن وبانقراض المخبر انقطع الخبر فلا عين ولا اثر.

فان الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالى قال في شرح سنن أبي داود الشام من العريش الى بالس وقيل الى الفرات وقال ابن السمعاني هي بلاد بين الجزيرة والغور الى الساحل ويجوز فيها التذكير والتأنيث والهمز وتركه وأما شآم بفتح الهمزة والمد فأباه اكثرهم الا في النسب انتهى والله أعلم.

فعلى هذا انظر ما في بلاد الشام من الانبياء والصحابة والصالحين قال الحافظ العراقي «دمشق بلاد الانبياء وموطن الاصفياء من الصحابة والتابعين والاولياء» وبسندي الى النبي ﷺ انه اخبر انه زويت له مشارق الارض ومغاربها وقال سيبلغ ملك امتي مازوى لي وانهم سيفتحون مصر وهي أرض يذكر فيها القيراط وان عيسى ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق. انتهى.

واما فضائل الشام فكثيرة ومحاسنها جمة غزيرة، وبركاتها مشهورة واخبار خيراتها مأثورة. ولهذا أطلقنا عنان القلم في غيضاتها وروضاتها وقطوفها الدانية للمتفكر في متنزهاتها، وهيمنا الى الدور في تسلسل انهارها ونبهنا الاحداق في حدائق ازهارها.

* * *

وقد ختمنا كتابنا بذكر الانبياء والصحابة والاولياء والمشايخ والصالحين والعلماء العاملين وذكر المقابر، فان كل انسان اليها صائر. ونحبس عنان جواد القلم في ميادين طرسه، فان من دخل الى المقابر انقطعت اخباره بتواريه في رمسه.

والله تعالى اسأل ان يؤنسنا بالقرآن العظيم في قبورنا وان ينقلنا منها الى الجنان بمحمد شفيعنا ﷺ صلاة وسلاما يتأرج شذاهما ملء الاكوان ويفوح ضوعهما على نشر الازهار وطي عرف الريحان ويكون كالنسيم في دوره بين الرياض والتنسيم فيكون آخر منتهاه أول مبتداه ان شاء الله تعالى بكرمه ومنه.



الفهرس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة







